علي علي الفلال

مهيار الديلمي وشعره

الكتاب الفائز بالجائزة الأولى في مسابقة البحث الأدبي
من مجمع فؤاد الأول للغة العربية
مارس سنة ١٩٤٨

تجمعُ بين الماء والنار يدٌ
وما جمعتَ الرزق والأدبا
مهيار

الناشر
دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر

الإهداء

سيدى صاحب الدولة

إنه لشرف عظيم لكتابي هذا أن أهديه إلى دولتكم تقديراً لرفيع أدبكم ، واعترافا بكريم توجيهكم ، شاكرا لكم تنازلكم بالقبول .

بقيتم مفخرة الأدباء ، وقدوة المجاهدين المخلصين .

على الفلال

حضرة صاحب الدولة ابراهيم عبد الهادى باشا



أفصحُ ماقيــل ولكنها فصاحةٌ تُهْدَى إلى « يَعرُبِ »

مهيار

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــدمة

لحضرة صاحب العزة عبد الوهاب خلاف بك عضو المجمع اللغوى

إن البحث الأدبى فى شاعر وشعره ، إن هو إلا مذكرة إيضاحية يضعها الباحث لهذا الشاعر ، وهذه المذكرة لايستطيعها إنسان قرأ ديوان الشاعر .

وإنما الذى فى وسعه استيعابها هو من درس دراسة طويلة وعميقة : أى درس عصر الشاعر وبيئته والعوامل التى كونت شاعريته ، وقارن بينه وبين من سبقوه ولحقـــوه ، وامتزج بهؤلاء وبعصرهم سنوات طويلة ، وكأنه عاش فى بيئتهم .

وقد أحسن المجمع بأن جعل من موضوعات المسابقة «البحث الأدبى» ، فإن كل باحث يحافظ على كرامته لا يستطيع أن يتقدم إلى المجمع إلا بعد جهد جهيد ، ودراسة وافية .

فى سنة ١٩٣٠ م طبعت دار الكتب ديوان « مهيار الديلمى » فى أربعة أجزاء ضمت قرابة خمسمائة قصيدة تشتمل على نيف وعشرين ألف بيت ، وقد قرأنا الكثير من هذا الديوان وفهمناه ، ولكن كثيرا من شعر «مهيار» لم يفهم للكثيرين على جليته وهو يخاطب أشخاصا ، ويثير مشاكل لو أحطنا بها خبرا لكان فهمنا لشعره أدق وأسلم ، واجتلاؤنا لمراميه أوضح وأبين ولهذا أعتقد أن هذا الباحث الذى قدم إلينا بحثه الأدبى فى «مهيار» وشعره وفق إلى حد كبير إذ عنى عناية كبيرة بدراسة عصر مهيار ، وقد عاش فى بغداد فى أواخر القرن الرابع ، وأوائل الخامس الهجرى ، فعكف ذلك الباحث على دراسة عصر ملوك بنى بويه من مبدئه إلى منتهاه ، ورجع العوامل التى أحاطت « بمهيار » وأثرت فى شعره إلى خمسة .

أولها فقره ، فقد كان فى أكثر شعره يشكو الفقر ، ويندب الحظ ، وأكثرنا يحفظ له مثل هذه الأبيات .

عيش كلا عيش ونفس مالها — من متعة الدنيا سوى حسراتها
وتود حين تود لو ما بدلت — أحبابها من جورها بعداتها
ويزيدها جلدا وفرط تجلد — بين العدا الإشفاق من إشماتها
إن كان عندك يا زمان بقية — مما يضام بها الكرام فهاتها

ومثل قوله فى قصيدته الحائية :

شد ما منى غرورا نفسه — تاجر الآداب فى أن يربحا
أبداً تبصر حظاً ناقصا — حيثما تبصر فضلا رجحا
والمنى والظن باب أبدا — تغلق الأيدى إذا ما فتحا
قد خبرت الناس خبرى شيمى — بخلاء وتسموا سمحا

وتكاد لا تخلو قصيدة من قصائد مهيار من شكوى الزمان ، وقد عنى باحثنا ببيان عامل الفقر الذى أثر فى شعر مهيار ، وبين أن هذا الفقر لم يكن داء خاصا بالشاعر ، وإنما كان مرضا عاما لسوء سياسة الدولة ، وعصره ؛ وذلك أن الدولة فى هذا العهد كانت دولة بؤس وفقر ، وكان ملوك بنى بويه ، يلقبون بجلال الدولة ، وبهاء الدولة ، وعز الدولة ؛ والحقيقة أنهم كانوا شقاء الدولة ، وبؤس الدولة ، وفقر الدولة .

ولقد ملكنى العجب حين تذكرت ما فى كتاب الخراج الذى ألفه أبو يوسف ، لهارون الرشيد عما كان يجبى من سواد العراق من أموال طائلة ، ورأيت كيف أصبح هذا السواد بعد قرن أو يزيد قليلا موطن الفقر ، وموئل البؤس ، ودار الشقاء .

عجبا : كيف تبدلت الحال ؟ فماء دجلة ما غاض ، وسواد العراق ما أملح ولكنها العقول أجدبت ، والأيدى شلت ، وليست العبرة بالمكان ، بل العبرة بالزمان ؛ وليست العبرة بالأرض بل العبرة بالسكان .

ووضح الباحث عاملا ثانياً من العوامل التى كان لها أثر فى شعر «مهيار» وهو النزاع الذى كان مستعرا بين بنى بويه وجيشهم ، وما كان يذكى هذا النزاع من شقاق عنصرى ؛ فهؤلاء الجند من الترك ، وأولئك من الفرس ، وما كان يجره هذا النزاع على البلاد من خراب ودمار ، وما يتركه من بؤس وفقر ، فكان شعر « مهيار » فى كثير منه صدى لتلك الأحداث .

ثم بين الباحث عاملا ثالثا من العوامل التى أحاطت بالرجل ، وهو الانقسام الدينى إلى سنة وشيعة ، ومن أكبر السيئات التى تسجل لبنى بويه أنهم غرسوا شجرة الحزبية الدينية فى الإسلام ، فقد نشأ « مهيار » على دين المجوس ، ثم أسلم وتشيع وغلا فى تشيعه حتى قال له بعضهم « إنك بإسلامك انتقلت فى النــــار من زاوية إلى زاوية ، انتقلت من زاوية المجوس إلى زاوية الروافض .

وعامل رابع بينه الباحث ، وهو الانقسام القوى الذى استشرى فى ذلك العهد ، فقد انتشرت فكرة الشعوبية ، واعتز الفرس بفارسيتهم ، ونطق شعر « مهيار » بهذه العصبية فى كل مناسبة ، ومنه هذه الأبيات :

قومى استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رءوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم ... وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى على إيوانه ... أين فى الناس أب مثل أبي ؟

فإنها تنم عن شعوبية وعصبية ، وفى أكثر شعره ما ينم عنهما .

أما العامل الخامس الذى وضحه لنا الباحث ، فهو ما منى به «مهيار» من وفاة كثير ممن كان يعتز بهم ، ويركن إليهم ، وعلى رأسهم « الشريف الرضى » ، فقد كان الشريف أستاذه ، وكان تشيع مهيار راجعاً فى الحقيقة إلى تبعيته للشريف ، وقد كان فقد هؤلاء الأحبة — وفيهم من أعانوه فى ساعة العسرة — عاملا من العوامل التى أنطقت الرجل بالجيد .

لقد بين الباحث هذه العوامل واستشهد لكل منها بشواهد من شعر « مهيار » فجلى « مهيار » أحسن الجلاء ، ثم زاد بأن عقد موازنة بين مهيار والشريف فى المدائح وغيرها ، وبين « مهيار » وغيره من الشعراء فى جملة موضوعات أهمها الغزل فى الحجيج ، وبذلك رسم هذا الباحث صورة واضحة لمهيار وعصره .

ومن قرأ ديوان مهيار بعد دراسة هذا البحث تجلى له شعره فى صورة أوضح ، وفهم منه معانى أدق .

لذلك أرى أن طبع هذا الكتاب سيضم إلى المكتبة العربية مؤلفاً نفيساً ؟ .

عبد الوهاب خلاف

مقدمة المؤلف

الحمد لله الملهم المعين، وصلاته تعالى على نبيه الكريم وبعد .

فلقد بدأت أتصل « بمهيار » — عن طريق ديوانه — عقب قيام دار الكتب المصرية بطبعه، وكان ذلك سنة ١٩٣٠ م حيث أغرمت بشعر الرجل إغراماً حملني على حفظ الكثير منه، وكتابة مقالات عنه نشرتها « صحيفة البلاغ » مقتضبة فى أغسطس سنة ١٩٣١، وقد سألت الله فى خاتمة تلك المقالات أن أكون قد فتحت الباب لغيرى لتوفية هذا الشاعر حقه .

وما أكثر اليوم سرورى باستجابته سبحانه لدعوة مضى عليها ستة عشر عاما، فألهم المجمع اللغوى الموقر لاختيار بحث مهيار وشعره موضوع مسابقة هذا العام، وبذلك قدر لهذا الرجل أن يبعث من مقابر النسيان بعد أن لبث فى غيابتها ما يقرب من ألف عام .

وأود أن أنبه القراء إلى أنى اضطررت إزاء ما تستوجبه دقة بحث حياة هذا الشاعر وشعره إلى الاهتمام بنواحى ثلاث :

أولاها : بسط حياة العصر الذى عاش فيه ، وثانيتها : ناحية تشيعه، والثالثة : ما يتعلق بشعوبيته ؛ لما لتلك النواحى من كبير الأثر فى شتى أغراض شعره .

كما وجهت مزيدا من العناية بإماطة اللثام عن الشخصيات التى مدحها، لأن معرفة الممدوح من شأنها أن تعين على تفهم المدائح ، والكشف عن اتجاه المادح .

كما أنى اهتممت بغرض المدح لأنه محور أشعار الرجل فى مختلف اتجاهاتها .

وأرجو ألا يدور بالخلد من تعرضى لبعض المآخذ على شعر « مهيار » دون إفراد باب لحسناته — أن شعره كان جديباً من مواضع الإحسان، ومواطن اللطف فهو بهما غنى، ولكننى آثرت ذكر المآخذ لأنها فى مقدور الإحصاء، وصدفت عن شرح المحاسن لأنها فوق حول الاستقصاء؛ ومع ذلك فلم يفتنى التنويه بالمعجبات من شعره عند المناسبات.

أما وصف ما عانيت من مشقة فى إخراج هذا البحث الفقير بمراجعة ما جعل عمدتى فيه ديون الشاعر — فسأتركه لشهادة البحث نفسه وتقدير القارىء، والسلام.

على الدولل

المنصورة فى ٣٠/١٠/١٩٤٧

ملاحظة: أرجو القارىء أن يرجع إلى صواب الأخطاء قبل القراءة.

تمهيد

لما كان الناس أبناء بيئتهم ومزارع مجتمعهم كما يقول علماء المذهب الاجتماعي في القانون كان لزاماً على من يريد دراسة شخصية الأديب وأدبه أن يتناول دراسة العصر الذي عاش فيه من الجو السياسي الذي أحاط به، والحياة الاجتماعية التي نشأ في كنفها، والحالة الفكرية التي تغذى من ثمارها، والمحيط الأدبي الذي استنشق عبيره لما لكل أولئك من ظاهر الأثر في حياته وإدراكه وخلقه وميوله وما إلى ذلك من الآثار التي يتردد صداها على لسانه في أدبه.

لهذا ولأن العصر الذي عاش فيه « مهيار » يكتنفه بعض الغموض من نواحي عدة فقد رأينا قبل الخوض في شعره أن نتناول في إيجاز دراسة بيئته من نواحيها السياسية والاجتماعية والعقلية والأدبية وذلك في العصر البويهي (٣٣٤ — ٤٤٧) هـ الذي عاش فيه هذا الشاعر.

الحالة السياسية في ذلك العصر

قامت الدولة العباسية (١٣٢ — ٦٥٦ هـ) بسيوف الأعاجم الذين قوضوا عرش الأمويين فبدءوا يحسون بشيء من الزهو والدالة على بني العباس واعتبروهم مدينين لهم بعروشهم وطمع زعماؤهم في الاستبداد بالأمر والنهي مستهينين بقوة العرب وكان يكون لهم ذلك لولا خلائف تلك الدولة الأولون. وما عرفوا به من أيد وحرص فسدوا عليهم أبواب تلك المطامع وفتكوا بكل من سولت له نفسه منهم أن ينازعهم بعض السلطان بالحق وبالباطل وكان أول من شرع تلك السنة أبو « جعفر المنصور » حين فتك بأبي مسلم رأس حركة الانقلاب تلك التي انكشف دجاها عن قيام دولة بني العباس ووقف ولا تزال يداه مخضوبتين بدمه في الخراسانيين قائلا . . .

« إن من نازعنا عروة ذلك القميص أجزرناه خبء هذا الغمد» وبذلك أقعد همم جميع منافسيه وقذف فى قلوبهم الرعب وسار خلفاؤه على طريقته مع هؤلاء المنافسين من الفرس ومعاضديهم من العلويين وأضرابهم فريقاً يأسرون ويقتلون فريقاً ، ولم تكن نكبة البرامكة على يد «الرشيد» إلا جزءاً من تلك السياسة الاستبدادية الحكيمة التى حفظت على العرب هيبتهم وجعلتهم مرهوبين فى أعين العجم كما كانوا فى العصر الأموى أكثر من قرن ونصف من الزمان .

سكنت ثورة الفرس ورضوا بالواقع كارهين وعدلوا عن التفكير فى إحياء عنصريتهم وإعادة مجدهم الكسروى أيام اعتبروا العرب عبيدا يحتازونهم عن ريف العراق وخضرة الدنيا إلى منابت الشيح ومهافى الريح . ولكنه سكوت الحاقد الموتور لعجزه عن سق هامة آبائه المجدلين ولذلك لجئوا إلى غير تلك السبيل ، سبيل الانتصار بالقوة وآثروا الدهاء عامدين إلى التفرقة بين حزبى الهاشميين محتضنين حركة التشيع علهم بذلك ينالون من بنى العباس نيلا أو أن يبلغوا فى ظل العلويين ما لم يستطيعوا بلوغه فى عهد بنى عمهم ، ولكن ظل ذلك منشودا طال على استحالته الأمد بفضل القوة المركزة فى يد الخليفة العربى الهاشمى وكان لذلك نتيجة ذات حدين .

أولها يرجع إلى الفرس فقد وطنوا أنفسهم ليضمنوا الجاه ورغد العيش — بالتقرب من أولى الأمر — على التشبع بالثقافة العربية وآدابها ولكنها كانت ثقافة من نوع جديد ظهرت فيه الروح الفارسية واضحة ، وإلى تلك الثقافة يرجع أكثر الفضل فيما انتهت إليه عظمة العصر العباسى الأول من مكان محسود ظهر أثره فى الحضارة والأدب على السواء .

وثانيهما يرجع إلى العباسيين الذين بالغوا فى سياسة الحذر وأسرفوا فى استعمال سلاح الغدر بكل نابه الشأن من الفرس وضرب هؤلاء بالعرب، ثم بالترك الذين جيشوا منهم جيشاً عتيداً يرهبون به عدو العرب وعدو

خلافتهم فكانت زلة لا يغفرها التاريخ « للمعتصم » أدت إلى عكس مرماه إذ استبد الترك بالأمر وأسقطوا هيبة الخلافة التى أصبحت جسدا بلا روح بل أن الفرس اتخذوا من هؤلاء الأتراك سلما للنيل من كرامة الخليفة وسلاحا لسلب البقية الباقية من سلطانه .

ضعف الخلافة العباسية وظهور الدويلات

هرمت الدولة العباسية مبكرة وهوت معجلة وإن سارت فى هويها بخطى ثقيلة إلى قاع نهايتها المؤلمة .

لقد بدأ نفوذ الترك يظهر بعد عصر « المعتصم » والواثق » إذ أخذ قوادهم يتدخلون فى شئون الخلافة واختيار الخليفة وكان «جعفر بن المعتصم» الملقب بالمتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) أول خليفة جلس على العرش بمشيئة هؤلاء القواد فترك لهم الحبل على الغارب فى تصريف شئون الدولة شاغلا نفسه هو بالمشاكل الدينية من اضطهاد المعتزلة ونصرة السنيين والتنكيل بالعلويين والتشهير بغير المسلمين — وجاء بعده « احمد بن محمد بن المعتصم » المعروف بالمستعين (٢٤٨ هـ) بإرادة الترك الذين أخذوا يملون عليه مشيئتهم وأصبح كبيرهم (أتامش) للمستعين وزيراً فأغضب ذلك باقى القواد فانقسموا إلى حزبين أحدهما يناصر المستعين والآخر يعاديه ثم تغلب المعادون ونصبوا « المعتز بن المتوكل » الذى أخرجوه من سجنه خليفة بعد أن فر « المستعين » من « سامرا » إلى « بغداد » فكان للمسلمين (٢٥١هـ) خليفتان متقاتلان ثم تغلب المعتز ودخل جيشه « بغداد » وتنازل له المستعين عن العرش .

ولقد أطلق على ذلك العصر الذى ظهر فيـــه نفوذ الأتراك من (٢٣٢ — ٣٣٤) العصر التركى تميزاً له عن العصر الفارسى . وقد تولى عرش الخلافة فيه إثنا عشر خليفة أولهم جعفر المتوكل على الله وآخرهم

ابراهيم المتقى لله قتل منهم اثنان وخلع خمسة وتوفى الباقون — وقد ساد الاضطراب فى ذلك العصر جميع البلاد وعمت الفتن وانتشرت الفوضى، وتقلص ظل الخلافة ولم يعد يتعدى بغداد وجاراتها القريبة، أما باقى أجزاء الدولة فقد اقتص منها واستقل بعضها استقلالا تاما وربط بعضها الآخر بالخليفة رباط أدبى أو هى مما كان يربط أمراء الاقطاع بملوك أوربا فى العصور الوسطى كادت تأتى عليه الأيام لولا ما وقر فى قلوب المسلمين جميعاً من تقدير للخليفة باعتباره رئيساً دينياً يمت بوشائج القربى إلى صاحب الدعوة الأول (محمد) صلى الله تعالى عليه.

انتهى بانتهاء العهد التركى العصر العباسى الأول، واعقبه العصر البويهى نسبة إلى «آل بويه» من الديلم.

عصر الديالمة

قبل ظهور بنى بويه كانت الموصل والجزيرة العراقية وديار بكر وديار ربيعة فى يد «الحمدانيين» وخراسان وتركستان فى يد «السامانيين» (٢٧٩ — ٣٨٩) الذين وسعوا أملاكهم فى طبرستان وما حولها على حساب الدولة الزيدية العلوية — وجرجان فى يد «الزياريين» ومصر والشام فى حوزة «الاخشديين» ثم صارت من بعدهم إلى «الفاطميين» وكان سلطان الخليفة كما أسلفنا واهيا فى بغداد ومعنى ذلك أن العناصر الفارسية بدأت تعمل على بسط نفوذها على بلادها فيما يشبه الاستقلال.

فى هذه الفوضى التى عب زاخرها خرج زعماء الديلم منتهزين فرصة ضعف سلطة الدولة المركزية للاستيلاء على الولايات القريبة منهم وانضم إلى كل زعيم عصبة من الأعوان ففى سنة ٣١٦ هـ خرج «أسفار بن شيرويه الديلمى» نكاية فى «ما كان بن كالى»[1] الذى كان قد طرده من جيشه لسوء سيرته،

---

(١) أحد القواد الذين عاونوا الحسن الملقب بالأطروش على نشر دعوته ببلاد الديلم والاستيلاء على طبرستان وجرجان ولما توفى الأطروش سنة ٣٠٤ هـ كان «ما كان» من أعوان ولديه

واستولى على طبرستان بمعاونة قائده «مرداويج بن زيار» من يد «الحسن ابن قاسم[١]» الداعى العلوى لتخاذل أعوانه عنه عن عمد ثم أرسل «أسفار» «مرداويج» لمقاتلة «سلار» صاحب شميران ولكنه اتفق مع سلار ضد سيده وعاونهما «ماكان ابن كالى» فلما قتل «أسفار» أصبح النفوذ «لمرداويج» الذى ضم اليه «همذان وكنكور والدينور ويزدجرد وقاشان وأصبهان» وغيرها ثم غدر بابن كالى وأخذ ما كان بيده من طبرستان وجرجان وكان استردها من السامانية، فعظمت دولة «مرداويج» وأصبحت بلاد الجبل كلها فى حوزته وبلغت جيوشه حلوان على حدود العراق وأقره الخليفة «المقتدر» على ما بيده وكان على ما رواه «ابن الأثير» متغطرسا ميالا للترف والأبهة.

من بنو بويه وكيف ظهر أمرهم ؟ :

لم يكن محل دهشة وسط تلك الفتن وهذه الفوضى أن يسود الصغير ويذل الكبير وليس من برهان على ذلك أصدق من أن أسرة رقيقة الحال من أسر بلاد الديلم (جنوب غربى بحر الخزر) يشتغل ربها بصيد السمك وأطفالها بجمع الحطب قد صارت وفى زمن قريب صاحبة السيادة على فارس ثم حكمت العراق وأصبحت لها الكلمة فى الدولة العباسية أكثر من قرن من الزمان دوخت أثناءه الأمم وأذلت العالم الإسلامى، واستولت على الخلافة ودارها (لأول مرة فى تاريخها) فشلت يد الخليفة وخصصت مبلغاً لنفقته وسملت أعين بعض الخلفاء وولت من شاءت وعزلت من شاءت واستوزرت من أرادت وصرفت من أرادت بيدها الأمر.

تلك هى أسرة (أبى شجاع بويه بن فنا خسرو) وكان له أولاد ثلاثة هم على ترتيب سنهم (على وحسن وأحمد) دفعهم فيما يظهر شظف العيش إلى

---

(١) خلف الحسن بن على الأطروش وكان متشددا فى تنفيذ تعاليم الشرع الإسلامى فكرهه أعوانه وكان أكبر قواده ابن كالى المذكور.

المغامرة بالاندماج فى سلك الجندية وأظهروا بسالة وإخلاصاً حين انضوائهم تحت لواء «ماكان بن كالى الديلمى» الذى ناصر «مرداويج بن زيار» ضد (أسفار) كما سبق بذلك القول، وما كان منهم بعد غدر (مرداويج) (بابن كالى) الذى ساءت حاله إلا أن استأذنوه فى الانصراف عنه بحجة أنهم أصبحوا عليه عبئاً ويظهر أن تعصبهم لديلميتهم من جهة وطمعهم فى الظهور بعد أن صاروا قوادا من جهة أخرى دفعهم إلى الاتصال (بمرداويج) الذى عظم نفوذه حينذاك إلى حد بعيد وانضم إليهم عدد من قواد «ماكان» فقبلهم «مرداويج» قبولا حسنا وقلد كل قائد ناحية من نواحى الجبل، وكان نصيب (على بن بويه) إقليم «كرج» ومن هنا تبدأ مواهب ذلك الشاب تظهر ونجمه يعلو بمواتاة الحظ له، يروى أن «مرداويج» بعد إرسال هؤلاء القواد إلى أخيه «وشمكير» بالرى لتسليمهم نواحيهم. أحسن «على» علاقته «بالحسن بن محمد» الكاتب الملقب «بالعميد» فلما عدل «مرداويج» عن تولية القواد مخافة منافستهم فى المستقبل وأرسل كتاباً بوقف تسييرهم وهم بالرى عند أخيه أرجأ العميد إبلاغ النبأ إلى أن مكن لعلى من السير إلى «كرج» ثم أوقف الباقين. ويذكر صاحب وفيات الأعيان وغيره أن علياقد اتفقت له أسباب عجيبة فى الحصول على المال كانت سبباً فى ثبات ملكه مما لا نجد محلا لذكره، وكل ما يجب أن نعرفه أنه قوى أمره فى كرج وعظم جمعه ثم جد فى توسيع إمارته جنوباً فأخذ «أصبهان وأرجان ونوبندجان» على خليج فارس وثبت ملك «ابن بويه» وكاتب الخليفة «الراضى» ووزيره «ابن مقلة» على أن يقطع الأراضى التى بحوزته باذلا المال سلم الآمال لكل طامع فى ولاية من الخليفة إذ ذاك فأجابه «الراضى» وفرح بشجاعته وخلع عليه.

ولقد غضب «مرداويج» وحقد على «على» وسعى جاهدا للتخلص منه وحاربه وانتصر عليه سنة ٣٢٢ ﻫ انتصارا لم يكن حاسماً ثم تصالحا على أن يخطب «لمرداويج» فى ولاية «على» الذى أهدى إلى مرداويج هدية قيمة

وأرسل أخاه « حسنا » رهينة عنده لضمان قيامه بتعهداته ، ثم يبتسم الحظ مرة أخرى « لعلى بن بويه » بقتل « مردويج » على يد بعض المتمردين من جنده الأتراك فخلا له الجو وفك أسر أخيه « الحسن » ، وأصبح له فى فارس نفوذ يتضاءل أمامه نفوذ السامانيين فى خراسان وما وراء النهر والزياريين وعلى رأسهم « وشمكير » فى الرى وعمل فى سرعة وشجاعة على حساب هؤلاء وأولئك على توسيع أملاكه وقبل موت الخليفة « الراضى » سنة ٣٢٩ ﻫ كانت فارس فى يد « على بن بويه » والرى وأصبهان والجبل فى يد أخيه « الحسن » ثم طمع « على » فى ملك الأهواز والعراق لثقته من ضعف الخليفة وقواته المضطربة المختلفة على نفسها ، ولما كان هو وأخوه (الحسن) مشغولين بما فى أيديهما أرسل أخاه « احمد » لهذا الغرض فسار إلى الأهواز واستولى عليها من (بجكم الرائق الديلمى) الذى انهزم إلى « واسط » . وبينما كان « أحمد » يستعد للاستيلاء عليها كانت بغداد مسرحا للفوضى والفتن وعمتها مجاعة أجبرت أهلها على أكل لحم الكلاب والقطط ، وهاجر منها من هاجر إلى البصرة وغيرها وعبثا حاول (شيرزاد) امير الجند إصلاح الحال ، فعرض منصبه على (ناصر الدولة بن حمدان) بالموصل إذا هو خف لإنقاذ دار السلام ولكنه اعتذر بانشغاله بمحاربة الروس فى (اذربيجان) والأخشيديين فى (الشام) . وزاد الموقف حرجاً سقوط واسط فى يد « احمد » البويهى وانضمام قوات الخليفة التى بها إليه فلم يكن مناص من اتفاق رؤساء الجند على الكتابة إلى « أحمد » بالزحف الى بغداد فدخلها فى جمادى الأولى سنة ٣٣٤ ﻫ فى عهد المستكفى بالله الذى أرغم على الخضوع لبنى بوية ولقبهم بألقاب الشرف أسوة بالحمدانيين وغيرهم فتلقب « احمد » بمعز الدولة « وعلى » عماد الدولة ، « وحسن » ركن الدولة وبسقوط بغداد فى يد بنى بويه يبدأ العصر الثانى من تاريخ الدولة العباسية ، وأطلق على عهدهم عصر بنى بويه واستمر أكثر من قرن تمكنوا خلاله من القضاء على نفوذ الأتراك

وانتزاع الموصل من يد الحمدانيين وحكمواهم وأبناؤهم وأحفادهم الجزيرة والعراق وغربى بلاد العجم حكما ظالماً .

وممن اشتهر من البوهيين غير هؤلاء الثلاثة :

عز الدولة بختيار بن معز الدولة ، تولى بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٦ هـ ، وظل إلى سنة ٣٦٧ هـ وقد ساءت حال العراق فى عهده لانشغاله باللهو عن تدبير شئون البلاد .

وعضد الدولة بن ركن الدولة . الذى تولى فارس بعد موت عمه « عماد الدولة » غير معقب ولدا سنة ٣٣٩ هـ . ثم زحف إلى العراق وانتزعه من ابن عمه « عز الدولة » سنة ٣٦٧ هـ ، وظل قائماً بحكم العراق إلى جانب ملك أبيه وعمه ، مع الموصل التى انتزعها من أميرها الحمدانى (وجرجان) التى اقتطعها من (قابوس بن وشمكير) حتى توفى فى شوال سنة ٣٧٢ هـ . وكان عضد الدولة أكبر بنى بويه صولة ، وأوسعهم دولة ، وأكثرهم شجاعة . وأبرعهم بلاغة وأرجحهم عقلا . وأعظمهم بذلا . وقد استطاع فى مدة حكمه القصيرة بالعراق أن يجمل بغداد . ويبعث فيها روح النشاط العمرانى والعلمى والأدبى ويقول ابن الأثير [١] عنه « إنه كان عاقلا فاضلا حسن السياسة . كثير الإصابة شديد الهيبة بعيد الهمة . ثاقب الرأى . محبا للفضائل ناظرا فى عواقب الأمور ، معظما للعلوم وأهلها يجلس معهم يعارضهم فى المسائل ويحسن اليهم . فقصده العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب كالإيضاح فى النحو والحجة فى القراءات . والملكى فى الطب . والتاجى فى التاريخ .

ومنهم فخر الدولة أخو عضد الدولة . الذى حكم طبرستان . واستوزر الصاحب بن عباد ثم حدثت بينه وبين عضد الدولة جفوة أدت إلى طرده وتولية أخيهما « مؤيد الدولة » على أملاكه فلما مات هذا (سنة ٣٧٣ هـ)

(١) جزء ٩ ص ٨ بتصرف .

عاد فخر الدولة اليها . وظل بها إلى أن توفى سنة ٣٨٧ هـ ثم خلفه ابنه (مجد الدولة) وكان طفلا فاستعانت أمه فى تدبير شئون الحكم (بأبى العباس الضبى) الملقب بالكافى الأوحد ممدوح « مهيار » الأول .

ومنهم تاج الدولة أبو الحسين بن عضد الدولة تولى الأهواز ثم غلبه عليها أخوه أبو الفوارس « شرف الدولة » سنة ٣٧٥ هـ ففر إلى عمه فخر الدولة مستنصرا فأمده بمال ووعده برجال ولما تباطأ عليه ثار ضده بأصبهان ونادى بشعار أخيه شرف الدولة ولكن جند عمه قبضوا عليه . وظل سجينا عنده إلى أن مرض عمه مرض الموت فأمر بقتله مخافة خطره على ابنه الصغير « مجد الدولة » ولقد كان تاج الدولة خياليا واسع الآمال منصرفاً إلى الشعر أثنى عليه صاحب (يتيمة الدهر) واعتبره آدب آل بويه وأشعرهم وأكرمهم ومن جيد شعره :

هب الدهر أرضانى وأعتب صرفه
وأعقب بالحسنى وفك من الأسر
فمن لى بأيام الشباب التى مضت
ومن لى بما أنفقت فى الأسر من عمرى ؟[1]

ومنهم صمصام الدولة بن عضد الدولة ، وهو الذى تولى العراق بعد أبيه ولما بدا ضعفه نازعه عليه أخوه « شرف الدولة » أمير فارس . وتم له الغلب ودخل بغداد سنة ٣٧٦ هـ . وظل يحكم العراق سنتين وثمانية أشهر .

ومنهم « بهاء الدولة » بن عضد الدولة — الذى ولى العراق بعد وفاة أخيه شرف الدولة سنة ٣٧٩ هـ ولبث يحكمه إلى سنة ٤٠٣ هـ . وقد وقع النزاع بينه وبين « صمصام الدولة » ثم تصالحا على أن يحكم صمصام الدولة فارس وأرجان « وبهاء الدولة » العراق وخوزستان . وكان عهد بهاء الدولة بالعراق على طوله — مشوبا بالفتن التى قامت ببغداد بين أهل السنة والشيعة . وقد

(١) عن ابن الأثير ص ١٨ ج ٩ . ويتيمة الدهر ص ١٩٨ ج ٢ .

كان لهذا الملك النصيب الأكبر من مدائح (الشريف الرضى) أستاذ « مهيار »،

ومن أبناء « بهاء الدولة » الذين حكموا العراق على الترتيب . (سلطان الدولة) أبو شجاع من (٤٠٣ — ٤١١ هـ) ومشرف الدولة من (٤١١ — ٤١٦)

ثم جلال الدولة (٤١٨ — ٤٣٥) الذى اشتبك فى حروب عدة مع ابن أخيه (أبى كاليجار بن سلطان الدولة) صاحب الأهواز ، ولقد كان عهده عهد اضطراب وفتن ودسائس وفيه قوى نفوذ الأتراك ، وضعف الديالمة ، ثار عليه جند الترك وأخرجوه من بغداد بعد أن نهبوا داره أكثر من مرة ، وكان ضعيفا مترددا أكثر من تولية الوزراء وعزلهم حتى أنه ولى « عميد الدولة أبا سعد بن عبد الرحيم » وعزله نحو ست مرات « وقد أجبر مع ضعفه هذا (الخليفة القائم بأمر الله) على تلقيبه ملك الملوك »[1] ومن العجيب أنه لم يحظ من ملوك آل بويه أحد سواه بأمداح « مهيار الديلمى » وكان حكمه فى عهد الخليفتين القادر والقائم .

وقد تولى بعد جلال الدولة العراق من آل بويه اثنان هما « أبو كاليجار » بن سلطان الدولة محي الدين من (٤٣٦ — ٤٤٠ هـ) . ثم ابنه « أبو نصر خسروفيروز » الملقب بالملك الرحيم وامتد نفوذه فوق العراق — إلى خوزستان والبصرة وعلى يديه زال سلطان البويهيين ، واستسلمت الخلافة لنفوذ جديد هو نفوذ السلاجقة .

الحالة الاجتماعية

وسنقصر هذا البحث على نظام المعيشة ، عند طبقات ذلك المجتمع ، وكيف كانت الأخلاق والعقائد التى غلبت على أجيال ذلك العهد ، وكيف ساد التعصب جميع طوائف الشعب ، أما الناحيتان الثقافية والأدبية فسنفرد لكل منهما بحثاً .

رأيت من التقدمة التاريخية السابقة ، أن عصر بنى بويه كان سلسلة

---

(١) وكان ذلك سنة ٤٢٩ هـ على ما جاء بابن الأثير ص ١٧١ جـ ٩

نكبات ودسائس سودت صحف التاريخ الإسلامي فى مقتبل العصر العباسى الثانى فى خلافة المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم . ولقد عانى الناس خلاله أهوالا ومصائب يتقطع لها قلب الإنسانية ألماً . فالحروب الداخلية لا تقف رحاها . والسعايات لا تهدأ نأمتها . والمجاعات لا تخف وطأتها .

وكان الشعب مكوناً من طوائف منقسمة على نفسها لا تخمد بينها نيران التنافس العنيد .

فهناك الصراع بين العصبيات العربية والأعجمية قائم على قدم وساق ، ثم تمخض عن معارك سلاحها الجدل بين الشعوبيين وأهل التسوية .

وهناك الصراع المذهبي بين الشيعة وأهل السنة والجماعة ، ولم تكن أسلحة ذلك الصراع مقصورة على الجدال . وإنما تعدته إلى القتال . وكم شهدت بسببه بغداد وغيرها من المدن الكبرى مذابح مروعة جرت الويلات حتى إلى الأبرياء والمسالمين .

وهناك كان الصراع الأكبر بين طبقات الشعب . فطبقة الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء تتطاحن فى سبيل الجاه والمجد ، وتتسابق إلى اقتناص اللذات فى إفراط بالغ ، وطبقة العلماء والأدباء تصانع الطبقة المتقدمة لتتسلق على أكتافها إلى قمم الرفعة وموائد العيش الخصيب . أما الطبقة الدنيا فكانت أشبه بالسوائم همها علفها وشغلها تقممها . وكثيراً ما رزحت تحت أعباء المجاعات واضطرت إلى التبلغ بلحوم الكلاب والقطط .

وإلى جانب ذلك كله كان هناك صراع مسلح بين طوائف الجند التى فقدت تجانسها وأخطره ما كان بين الديالمة والأتراك من شجار يكاد يكون متصلا .

يقول المرحوم الخضرى بك فى كتابه « تاريخ الأمم الإسلامية [1] » .

---

(١) ج ٢ ص ٥٧٣ .

بعد ذكر نهاية تلك الدولة ، وبذلك انقضت دولة بنى بويه التى لم يكن فيها شىء من الصلاح للبلاد بل زادتها فسادا وفرقة بما أظهرته من التشيع فى بغداد مع أن أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة . فكان النزاع كثيراً ما يقع بين الفرقتين وتحصل حوادث شديدة الوقع فى بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه . ولا السلطان لأنه كان يعين طائفتـه . ووجد الخلاف بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم . وكان هذا الخلاف كثيراً ما يدعو إلى وقوف بعضهم إزاء بعض متحاربين .

وعلى الجملة فإن البلاد التى استولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئا على طول مدتهم وضخامة دولتهم » .

ويمكنك أن تدرك بعد ذلك الوصف الموجز لحال ذلك العصر مدى اختلال الأمن والتفكك بين طوائف الشعب ، وتلمس مقدار التدهور الأخلاقى الذى كان أهم مظاهره الأنانية والرياء والوشاية والغدر والسلب والنهب . وما اليها من النقائص التى أصبح معها طلب العيش عند الطبقة الفقيرة وسط تلك الشرور — جهادا مريراً ، فلم تعد ثم غضاضة على من أسعدهم الحظ بالإلمام بالعلوم أو الشعر أو الكتابة فى أن يتجروا بمواهبهم فى سوقها الرائجة لدى الخلفاء والأمراء والوزراء .

الحالة الفكرية

لم يكن مرور مائة عام على عصر المأمون ذلك العصر الذى ازدهرت فيه العلوم ، وراجت سوق الترجمة والتأليف رواجاً لم يسبق له مثيل بالفترة الكافية لدك هذا الطود العلمى الراسخ بل على العكس من ذلك أخذت جهود هذا الخليفـة الجبار تؤتى ثمرها بعده فى الفكر الإسلامى نحو قرنين من الزمان حتى كان العصر العباسى الثانى أغنى بالمؤلفين والكتاب .

ثم حدث انقسـام فى جسم الدولة ولكن عقلها لم يتأثر به لأن تلك

الأعضاء التى أصبحت منفصلة أو شبه منفصلة قد أخذت تتسابق فى خدمة هذا العقل وتزويده بالمعارف ما وجدت إلى ذلك سبيلا مدفوعة بعامل التنافس حافز الهمم وملهب العزائم .

ولا تحسبن الذين ساهموا فى إنهاض العلوم فى القرن الرابع وأوائل الخامس فى العراق وفارس وماجاورها ممن بيدهم الأمر من الموالى قد فعلوا ذلك بدافع الغيرة على العلوم العربية ، ولكنهم اضطروا إلى مجاراة غيرهم من الولاة والحكام العرب بعد أن يئسوا من إحياء لغاتهم القديمة إحياء يتسع للتأليف وما يتطلبه من مصطلحات علمية اقتضتها العلوم الجديدة مما كانت العربية وحدها قد أعدت له ونهضت به ، فوق أنها فرضت نفسها لغة رسمية للدين والسياسة والأدب .

ولقد كان من آثار التنافس بينهم وبين باقى أمراء الدويلات أن حذقوا علوم العربية وآدابها وأغروا العلماء بالمال بملازمتهم والتأليف لهم واستدعوا بعضهم من ممالك أخرى إيماناً منهم بأن العلم زينة الملك ، كما خصوا أهل العلم والأدب بمزيد من التقدير . فاختاروا منهم الوزراء والرؤساء والحجاب والكتاب مما شجع الكثيرين على دراسة الضاد والتبحر فى علومها المختلفة طمعاً فى الجاه والمناصب . وظل البويهيون قبلة أنظار النوابغ بحكم تملكهم قلب الخلافة فى بغداد التى ظلت مصب أوردة المعارف للدولة كلها ، فامتازوا بذلك على السامانيين والسلاجقة والغزنويين الذين صرفوا هممهم لبعث الفارسية وإنمائها إنماء جعلها فى أواخر القرن الخامس الهجرى تنافس العربية فى الآداب والعلوم بقاصية المشرق ، وأدى أخيراً إلى ذلك الانحطاط القاصم الذى أصاب العرب فى لغتهم وآدابهم أخريات حكم العباسيين .

جاء فى ظهر الإسلام بالجزء الأول(١) فى شأن بنى بويه « إنهم مع فارسيتهم شجعوا الأدب العربى واللسان العربى والعلوم العربية . وكان ممن

---

(١) ص ٢١٧ .

نبغ من العلماء والأدباء والفلاسفة فى عهدهم من يعد بحق فخر المملكة الإسلامية فى العصور المختلفة ، ا ــ ﻫ .

ولقد كانت المدن الرئيسية فى العراق وفارس مراكز هامة لمختلف الثقافات العامة ، ومحكا للأفكار ، وأسواقاً رائجة للبحوث والمجادلات مائجة بالمؤلفات فى شتى الفنون لغوية وعلمية إسلامية ودخيلة .

وأهم تلك المدن بغداد والبصرة والكوفة والرى وأصبهان وهمذان وإصطخر وسيراف وشيراز وأرجان وشهرستان وغيرها فى كثرة تفوق الحصر مما يدل على مدى النهوض الثقافى فى ذلك الزمن كما يدل على أن الخلاف المذهبي قد كان عاملا قوياً فى تزويد تلك النهضة العلمية المباركة .

وإن عصراً ينجب أمثال أبي الحسن الماوردى مؤلف « الحاوى » فى الفقه وكتاب « الأحكام السلطانية » « وأدب الدنيا والدين » وأبي بكر أحمد ابن هانىء الطائى البغدادى — من الفقهاء — وأمثال الصابى من المؤرخين وأبي طالب المكى من فلاسفة المتصوفين . ويحي بن عدى من المنطقيين وأمثال أحمد بن محمد مسكويه من الأخلاقيين — لاينكر فضله إلا جائر .

الحالة الأدبية

يخطىء من يربط آداب الأمة بحالها السياسية . قوة وضعفا . تقدما وتأخراً . كحقيقة مجردة . فكثيراً مايظهر الأدباء البارعون فى الأمة أثناء ضعفها السياسى كما تظهر الروائع الخضرة فى الدمن البالية . ولنا من التاريخ على ذلك شهيد ، فقد برع أساطين الأدب اليونانى قديماً وبلادهم على أمرها مغلوبة . وأعلام الكتاب فى فرنسا اشتهروا قبيل الثورة الفرنسية وفرنسا فى اضطراب وضائقة مالية ، والأدب الأندلسى فى عهد ملوك الطوائف كان أرقى منه أيام عبد الرحمن الناصر الذى كانت البلاد فى عهده فى أوج عزها — بل إن الضعف والفقر والظلم وغيرها كثيراً ما تهز العواطف وتهيج

الوجدانات . وتفتق الأخيلة . وتطلق الألسنة . فوق أن لها فى جلاء القرائح ما للنار فى جوهر الذهب .

فالأدب فى الجزء الأول من العصر العباسى الثانى قد بلغ الدرجات العلى فى الرق لأن تقسيم المملكة الإسلامية إلى دويلات قد فتح باب التنافس على مصراعيه لا فى العلوم فحسب ولكن فى الآداب كذلك . وأنما يستتبع ضعف الدولة ضعف آدابها . وإماتتها أحيانا حين يكون ذلك الضعف نتيجة غزو أجنبي له لغة تخالف لغة أهل البلاد يكون لها من العصف بلغة المغلوبين ما للغازين من بطش بأهلها . كالذى حدث بفارس وبلاد الروم عقب الفتح العربي ، أو كان هذا الضعف ناشئاً عن تغلب عناصر لا تمت للغة بصلة وثيقة فتعمل على مناصرة لغة أخرى كالذى فعله السلجوقيون حين حاولوا نصرة الأدب الفارسى على العربى .

على أن تداخل عصور الأدب بعضها فى بعض قد جعل عهد البويهيين جزءا من العصر العباسى الأول أو بعبارة أدق . أوان جنى ثمار ما غرس خلفاء ذلك العصر وحكامه .

ولقد يذهب عنك الدهش إذا علمت أن أمراء بنى بويه ووزراءهم وكتابهم لم يشجعوا الآداب بدافع التنافس وحده . ولكنهم كانوا كذلك أدباء يتذوقون الأدب ويحضرون مجالسه . ويثيبون عليه . كما كان كافور « بمصر » وسيف الدولة بن حمدان « بالشام » وأن من ملوكهم وأمرائهم ووزرائهم من أجادوا نظم الشعر وأظهروا فى الكتابة براعة وتمكنا ومن أولئك :

عضد الدولة : فقد جاء عنه فى يتيمة الدهر للثعالبى (١) أنه « كان على ما مكن له فى الأرض ، وجعل إليه من أزمة البسط والقبض . وخص به من رفعة الشأن . وأوتى من سعة السلطان — يتفرغ للأدب ، ويتشاغل

(١) ص ١٩٥ جـ ٢ .

بالكتب ، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء، ويقول شعراً كثيرا وما أدرى كم من فصل بارع ، ووصف رائع قرأته للصاحب فى وصف عضد الدولة » اهـ. ومن جيد شعره قوله فى « أبى تغلب » حين اعتذاره إليه من اتصاله بخصمه « بختيار » .

أأفاق حين وطئت ضيق خناقه ... يبغى الأمان وكان يبغى صارما
فلأركبن عزيمة عضدية ... تاجية تدع الأنوف رواغما

وينسب اليه قوله :

ليس شرب الكأس إلا فى المطر ... وغناء من جوار فى السحر
غانيات سالبات للنهى ... ناعمات فى تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها ... ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها ... ملك الأملاك غلاب القدر
سهل الله له بغيته ... فى ملوك الأرض مادام القمر
وأراه الخير فى أولاده ... ليساس الملك منهم بالغرر

وقد قصده المتنبي وأثنى عليه بمدائح عدة ، وأقام عنده مقام ضيف كريم — وكان عضد الدولة هو الذى سعى إلى تضيفه رغبة فى كسب ثنائه ، ومن أشهر تلك المدائح .

— مغانى الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان

والتى مطلعها :

أزائر يا خيال أم عائد ... أم عند مولاك أننى راقد

والتى أولها :

ما أجدر الأيام والليالى ... بأن تقول ماله ومالى

والتى يودعه فيها عند انصرافه من عنده وتعتبر آخر أمداح أبى الطيب إذ قتل عقبها فى الطريق :

فدى لك من يقصر عن مداكا ... فلا ملك إذن إلا فداكا

وعز الدولة القائل :

فيا حبذا روضتا نرجس يحيي النـــدامى بريحانها
شربنا عليها كأحداقنا عقارا بكأس كأجفانها
ومِسْنَ من السكر ما بيننا تجرر ريطا كقضبانها

وأبو الحسين أحمد تاج الدولة ، الذى سبقت الإشارة إليه، وهو القائل:

سلام على طيف ألم فسلما وأبدى شعاع الشمس لما تكلما
بدا فبدا من وجهه البدر طالعا لدى الروض يستعلى قضيبا منعما
وقد أرسلت أيدى العذارى بخده عذارا من الكافور والمسك أسحما
وأحسب هاروتا أطاف بطرفه فعلمـــه من سحره فتعلما
ألم بنا فى دامس الليـل فانجلى فلما انثنى عنا وودع أظلما

والقائل قبل أن يسجنه عمه فخر الدولة :

تظن أنى أحمل الضيم فأين همــتى
تقنع بالأهواز لى وواســـط والبصرة
لست بتاج الدولة سليل تاج المـــلة
إن لم تزر بغداد بى بعـد قليل كبتى(١)
وعســـكر عرمرم يملك كل بلدة
حشو الجبال والفلا مواكب من غلمتى
نصرتهم منى ومن رب السماء نصرتى

ولم يكن تشجيع الملوك وشدة ولوعهم بالأدب وإثابتهم عليه المنهض له ليس غير — فالفقر الذى عم الشعب فى هذا العهد كان من العوامل الحافزة لـكثيرين إلى الإكباب على دراسة الأدب والبراعة فيه كأداة للكسب وسلم لارتقاء المناصب ، كما أن اتساع نطاق التأليف ورقى البحوث العلمية قد زود الأدب بمعين فياض ظهر أثره فى كتابة الكتاب ، وشعر الشعراء ،

(١) الـكبة بفتح الكاف وضمها : الحملة فى الحرب .

فاصطبغ الإنتاج الأدبي بصبغة جديدة أظهر ألوانها وضوح الفكرة، واتساع الأفق الخيالى، والترتيب المنطقى، والجدل الفقهى.

والخلافات الحزبية والمذهبية أحدثت ثورة أدبية عنيفة وبخاصة فى الشعر، لا تقل عن تلك التى كانت فى العصر الأموى والتى كان أبطالها الفرزدق وجرير والأخطل والكميت ومشايعوهم. أما تلك ففرسانها فى العراق «الشريف الرضى، ومهيار «من الشيعة» وعلى بن عيسى السكرى ومؤيدوه من السنيين ولئن كانت الأولى تعتمد على السباب والتفاخر بالأحساب — فالثانية اعتمدت على الحجاج المرتب، والاتهام المسبب مع عفة اللفظ، وإن كان شعار الأولى العبث والمرح والتسلية وإرضاء رغبة الخلفاء غالباً، فشعار الثانية الجد والحزن والأسف، ولئن كانت الأولى ثورة مكممة من حيث حرية رأى الشاعر الذى اضطر إلى أن يغرب ويورى كالكميت الذى مدح أهل البيت فى شخص رسول الله — من مثل قوله:

إلى السراج المنير أحمد لا .... تعدل بى رغبة ولا رهب.

فلقد كانت الثانية حرة سافرة، وسر ذلك اختلاف الحكومة فى العهدين من دون شك.

وعامل آخر أحدث مثل تلك الثورة فى الأدب وان لم يكن وليد هذا العهد ولكنه نما فيه — ذلك العامل هو الشعوبية التى يقول أصحابها بتفضيل الفرس وغيرهم من الأجناس الخاضعة للعرب على العرب، وقد انبرى لهم أصحاب مذهب التسوية الذين ينقضون ذلك التفضيل، وكان «مهيار» من الشعوبيين المتعصبين المصرحين، محتميا بالحكومة الفارسية القائمة، ومستغلا ضعف الخلافة التى لم تكن لتجرؤ على رفع صوتها للدفاع عن حق العرب.

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن أدب ذلك العصر كان له طابع جديد نتيجة زيادة التأثر بالثقافة الفارسية، فبدأ الكتاب والشعراء يتأنقون فى اختيار الألفاظ وإكساب أسلوبهم حلية جميلة أفرغت فيه جرسا موسيقياً

عذباً تأخذ أنغامه بمجامع الأفئدة وتتعشق وقعه الآذان، وتترطب بترديده الألسنة .

ومن أشهر أدباء تلك الحقبة :

الحسن بن محمد المهلبي والصاحب بن عباد ، وسابور بن أردشير من الوزراء الأدباء وابن العميد وأبو اسحق الصابي ، من الكتاب .

وأبو القاسم الآمدي صاحب الموازنة بين أبي تمام والبحتري، وأبو الحسن علي بن عبد العزيز المعروف بالقاضي الجرجاني، وصاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، من النقاد .

والشريف الرضي والسري الرفاء ، وابن نباته السعدي ومهيار الديلمي من الشعراء .

مهيار

في تلك البيئة التي أوجزنا وصفها لك ، وفي عهد الدولة البويهية ، وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وفي مدينة «بغداد» على ما يرجح — ولد شخص قدر له أن يكون شاعر الفرس ، ورافع لواء العلويين ، ومخلد آثار الشيعة ، ومنبه شأن الأمراء والوزراء والكتاب في عصره نحو أربعين عاماً — ذلك هو أبو الحسن (أو أبو الحسين) مهيار ابن مرزويه الديلمي. وقد كانت ولادته من أبوين فارسيين ديلميين يغلب عليهما الفقر .

والمؤرخون جميعاً أغفلوا السنة التي ولد بها ، وكل ما ذكروه أنه توفي سنة ٤٢٨ هـ ، وقد استطعت أن أرجح أنه ولد في العقد السابع من القرن الرابع حوالي سنة ٣٦٧ هـ كما يستفاد من قوله في قصيدة يمتدح بها «عميد الدولة أبا سعد بن عبد الرحيم» متغزلا في أولها وذلك سنة ٤٢٣هـ (١) .

يا قلب من أين على فترة … رُد عليك الوله العازب
أبعد أن مات شباب الهوى … شاورك المحتنك الشائب
وبعد خمسين قضت ما قضت … وفضلة أنكرها الحاسب

(١) ج (١) ص ١٣٦ بالديوان .

هبت بأشواقك نجدية   مطمعة أنت لها واجب

فهو يقرر أنه جاوز الخمسين بفضله قد تكون سنة وقد تكون تسعا ، فإذا توسطنا وفرضناها خمسا كان عمره فى سنة ٤٢٣ هـ خمسا وخمسين سنة ، يضاف إليها خمس سنوات عاشها الشاعر بعد تلك القصيدة ، فيكون قد مات فى الستين من عمره تقريبا ، أو جاوزها قليلا — ويؤيد هذا التقدير الذى ذهبنا إليه قوله فى موضع آخر سنة ٤١٧ فى الشيب :

قالت على البيضاء أخت عامر   أسفر فى فوديك ذاك الغيهب
ومن بلاياك وإن عبت به   شباب حي وعذارى الأشيب
غدرك والخمسون أى روضة   قشيبة بينهما لا تجدب (١)

وقد عاش مهيار بعد ذلك أحد عشر عاما فيكون مجموع عمره إحدى وستين سنة — مما يدل على أننا توخينا الصواب ما أمكن فى التقدير ، وقد يخطىء بعضهم فيظن الرجل قد عاش حتى قارب السبعين إذا استمعوا لشكوى المشيب فى شعره فى سنة ٣٩٨ أى قبل وفاته بثلاثين عاما وذلك حيث يقول من قصيدة فى الأمير سند الدولة « أبى الحسن بن مزيد » من نسيب فى مقدمتها (٢) :

لوت وقد أضحكت رأسي الخطوب لها   وجها إلى الصد يبكيني ويضحك بى
لا تعجبي اليوم من بيضائها نظراً   إلى سِنيَّ فمن سودائها عجبى
وسوم شيب فان حققت ناظرة   فانهن وسوم فى للنوب

إذ معنى ذلك أن مهيار قد لهزه الشيب فى سن الثلاثين على الأقل بالنظر إلى تقديرنا السابق ، مما يدعو إلى شىء من الغرابة سرعان ما يزول — إذا راعينا الظروف التى عاش فيها الشاعر من معاناة لشظف العيش ، ومخاوف جرتها الفتن والثورات ، والغدر والوشايات وغيرها من الأهوال التى تجعل

(١) الديوان ج ١ ص ٨٩ .
(٢) ج ١ ص ١٩ .

الولدان شيباً ، على أن الرجل فيما يظهر قد بكر به الشيب كما يبدو ذلك من شعره فى أكثر من مناسبة كقوله [١] .

تعد سنى تعجب من وقارى ولم يجتز مراح العمر عدّى
فما للشيب شد على ركضا فطوح بى ولم أبلغ أشدى

وكقوله فى موضع آخر [٢] :

رأت شعرات غير البين لونها فأمست بما تطريه أمس تعيب
أساءك أن قالوا أخ لك شائب فأسوأ منه أن يقال خضيب
ومن عجب أن البياض ولونه إليك بغيض وهو منك حبيب
أحين عسا غصنى طرحت حبائلى إلى فهلا ذاك وهو رطيب ؟
فعدى سنيه إنما العهد بالصبا وأن خانه صبغ العذار — قريب
همومى من قبل اكتهالى تكهل وغدرك من قبل المشيب مشيب
وما كان وجه يوقد الهم تحته لتنكر فيه شيبة وشحوب
لو ان دمى حالت صبيغة لونه مبيضة ما قلت : ذاك عجيب

ومن العجيب أن أستاذ الشاعر وهو الشريف الرضى قد وخطه الشيب قبل الثلاثين بمدة طويلة جاء فى عبقرية الشريف للأستاذ مبارك [٣] أن الشيب نزل ضيفاً على الشريف وهو فى الثالثة والعشرين من عمره » .

ومن قول الشريف متحسراً على الشباب متبرماً بالمشيب وهو فى السابعة والعشرين : —

واهاً على عهد الشباب وطيبه والغض من ورق الشباب الناضر
سبع وعشرون اهتصرن شبيبتى وألن عودى للزمان الكاسر
تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدى وتضل فى ليل الشباب الغابر
لو يفتدى ذاك السواد فديته بسواد عينى بل سواد ضمائرى [٤]

---

(١) ج ١ ص ٢٦٠ .
(٢) ج ١ ص ٤١ .
(٣) ص ٢١٠ ج ٢ . (٤) يقصد بسواد الضمائر سواد القلب .

أبياض رأس واسوداد مطالب صبراً على حكم الزمان الجائر

كما بكى الشباب فى السابعة والثلاثين من عمره من قصيدة يمدح بها «بهاء الدولة» حيث يقول «أى الشريف».

راحت تعجب من شيب ألم به وعاذر شيبه التهمام والأسف
ولا تزال هموم الدهر طارقة رسل البياض إلى الفودين تختلف
إن الثلاثين والسبع التوين به عن الصبا فهو مُزْوَرٌّ ومنعطِفُ

تفتحت عين «مهيار» أول تطلعها إلى الدنيا على دخان حرب بين (عز الدولة) وابن عمه «عضد الدولة» انتهت بفوز الثانى ودخوله بغداد — ورأى «مرزويه» أبوه نصيب الكتاب والشعراء من تقدير عضد الدولة وتقريبه فعول على تنشئة ابنه فى الآداب العربية رجاء أن تفتح له فى المستقبل أكمام الحظ ويسعده الزمان بمنصب فى الكتابة أو نحوها يُصيبُ من ورائه عيشاً رغداً، وكانت بغداد فى ذلك العصر لا تزال مهد اللغة العربية ومركز ثقافتها، وموطن الخلافة الإسلامية، وقلب الأمبراطورية العباسية وكانت كما وصفها «الصاحب ابن عباد» بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد) — ولم يكن هناك سبيل لمن يريد النبوغ والشهرة سوى تثقيف نفسه تثقيفاً عربياً — ولقد أكب هذا الطفل من صغره على دراسة الضاد وآدابها إكباباً معدوم النظير بدافع من رغبة أبويه وسمعة أدباء عصره وكتابه وبتأييد من عزمه وحزمه حتى تم له ما أراد من إتقان العربية وإجادة علومها المختلفة، والإحاطة بتاريخها فى عصورها المتعاقبة فى سن مبكرة — وكان ذلك فى أوائل عهد بهاء الدولة بن عضد الدولة، الذى خلف أخاه شرف الدولة على بغداد سنة ٣٧٩ ﻫ فى خلافة القادر بعد أن مر على خيال ذلك الناشىء فتن أهمها ما كان فى بغداد بين الديالمة وأخرى وقعت بسببها الحرب بين صمصام الدولة وشرف الدولة وانتهت بتولية الثانى، وثورة بين الأتراك والديلم سنة ٣٧٦ ﻫ انتصر فيها الديلميون أولا ثم انهزموا ثم تم

الصلح بينهما بعد معارك دامية وفى نفس سنة ٣٧٦ هـ حدث غلاء شديد بالعراق فارق كثير من أهله البلاد بسببه ، وفى سنة ٣٧٩ هـ عادت الفتنه بين الأتراك والديالمة وظلت اثنى عشر يوما فى بغداد وانتهت بانتصار الأولين — وفى نفس السنة قامت الحرب بين فخر الدولة وبهاء الدولة من أجل عرش العراق وانتهت بارتداد « فخر الدولة » إلى موطنه بالرى خائباً .

ولم تكد تخلو سنة من كوارث ببغداد إما لحرب أو جدب فلندع الحوادث تمر تباعا أمام عينى مهيار فيفيد منها دروسا نافعة ، ولننتقل إلى تطور جديد فى حياته : ذلك أنه اتصل فى منتصف العقد الثانى من عمره أو بعد ذلك بقليل بشخصية نابهة غيرت مجرى حياته فى أدبه وعقيدته تلك هى شخصية الشريف الرضى وكان أبو الشريف وهو « أبو أحمد الموسوى » شخصية لها مكانها عند جميع الناس ببغداد ويكفى أن تعرف أنه كان الرجل الذى يستطيع إنامة الفتن التى كانت تتيقظ من حين لآخر بين الشيعة « وهو منهم » وبين السنين على حين كان إخمادها يعجز الخليفه والملك البويهى ، كما كان يقوم بإصلاح ما بين أمراء بنى بويه إذا احتدم بينهم لظى الحرب — وحدث أن غضب عليه عضد الدولة لاتهامه بممالأة عز الدولة وسجنه بقلعة فارس وصادر أملاكه وقد لبث فى سجنه إلى أن أطلق سراحه شرف الدولة — وقد ردت إليه أملاكه أو معظمها سنة ٣٨٠ هـ وهى نفس السنة التى ولى فيها « أبو أحمد الموسوى » نقابة العلويين والمظالم وإمارة الحج [1] .

ومن ذلك تعلم أن الشريف كان محسود المكان مُهاباً فى بغداد وأن اتصال « مهيار » به كان بعد انقضاء فترة البؤس فى حياته حين سجن أبوه وصودرت أملاكه .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٢ .

وكان الشريف على توسط حاله المادية كريما شفيقا محبوباً يرغب مكانه فى التقرب منه — ولقد وضع « مهيار » نفسه موضع التلميذ المطيع لأستاذ يؤمن بقدرته وشخصيته فحكاه فى أدبه ، وكان الشريف شاعراً بارعا وكاتبا قديرا حسن التصوير جزل الأسلوب فتخرج صاحبنا عليه واقتبس من روحه وأخلاقه كما عب من آدابه ومشاربه ، ويبدو أثر ذلك الاتصال بوضوح لمن يقرأ شعر الرجلين ومنهج الأدبين من روعة الأسلوب وجلال فى المعانى وعذوبة فى الألفاظ وعفة فى الغزل وتلطف فى الهجاء .

ولا يبعد أن يكون الشريف — بما له من منزلة — قد سعى فى إلحاق « مهيار » كاتباً بديوان الخلافة ببغداد ، كما يظهر أن « مهيار » سعى جاهداً فى ذلك آملا أن يصبح له من الشأن ما لأعلام الكتاب أمثال « ابن العميد » و « الصابى » وغيرهما ممن رفعتهم الكتابة — ولكن سرعان ما صرفه عنها شيطان الشعر الذى ملك عليه نفسه وآنس من مواهبه استعداداً له فأقبل على نظمه وتجويده .

وإذا علمت أنه ابتدأ يقول القصائد الطوال سنة ٣٨٧ ﻫ أدركت أنه ظل ينظم الأشعار أكثر من أربعين عاما ، وأنه قال الشعر قبل بلوغه العشرين إذ لا يعقل أن تكون القصيدة التى نظمها فى مدح الفرس سنة ٣٨٧ والتى مطلعها :

أتعلمين يا ابنــة الأعاجم   كم لأخيك فى الهوى من لائم

باكورة شعره لأنها قوية السبك مرتبة المعانى سليمة العروض فلا بد أن يكون قد عالج قرض الشعر قبل نظمها بسنوات .

ومن العجيب أن تكون هذه القصيدة التى جادت بها قريحة الشاعر فى مدح بنى جنسه وهجو العرب مع استثناء النبى وآل بيته — ذات قيمة فى دراسة نشأته .

فهى ترينا أنه اتصل بالشريف الرضى قبل العشرين بأعوام وأنه تأثر

بمعاشرته تأثراً جعله يمزج بين الشعوبية والتشيع لأنَّ استثناءه الرسول الكريم وآله عليهم السلام ومدحه إياهم مما يوجبه عليه — فضلا عن مراعاة الشعور العام للمسلمين — إرضاؤه لأستاذه وهو من آل البيت النبوى الشريف .

بل أن هذه القصيدة لتشعر بميول « مهيار » نحو اعتناق الإسلام وإن كان ذلك لم يتحقق بالفعل إلا بعد نظمها بسبع سنين .

ومازال « مهيار » ينظم القصائد حتى برع فى الشعر وتفنن فى أغراضه المختلفة ، ولعله آثر ذلك الاتجاه الذى رفع من شأن غيره كالشريف وابن نباتة ، وكان صيتهما قد سبقه ، ولم يبلغ برغم جهاده شأوهما ، وظل فى حياتهما أصغر منهما خطراً حتى خلا له الميدان بموتهما فبدأ يعظم قدره وينبه ذكره . وبعد أن كان يعرض نفسه على ممدوحيه أصبح الممدوحون يخطبون وده ، ويجزلون له العطايا التى كادت تكون نصيبا مفروضاً له فى مالهم .

ومما يسجل لهذا الشاعر بالفخر أنه قد حذق اللغة العربية فى مهارة وسرعة : فحفظ ألفاظها وأساليبها ، وألم بأيام العرب وأنسابهم وتاريخهم . كما درس علوم الشريعة ، وتفهم شعر المتقدمين والمعاصرين . حتى بدا كل ذلك فى أشعاره التى بلغت حوالى خمسمائة قصيدة تحوى نحو واحد وعشرين ألف بيت : تقع فى أربعة أجزاء ، وقد ظل ديوانه مخطوطاً لا يطلع عليه إلا القلائل من الادباء حتى طبع حديثاً فكتب لصاحبه أن يبعث من مقابر النسيان بعد أن مضى عليه مايقرب من ألف عام .

ولقد صادفت مهيار فى حياته أحداث كثيرة كانت ذات تأثير قوى فى إنتاجه واتجاهاته وأغراضه ، أولها الفقر الذى كان شعار هذا العصر وهذا حمله على التكسب بشعره فى إسراف غير معهود إلا عند قلة من فرسان هذا الميدان ، وثانيهما الخصومة المذهبية التى جعلت منه عدواً شديد اللدد للسنيين ، ونصيراً مخلصا فى تبجيل المتشيعين — وثالثها الفتن التى

كانت تثار أمام عينيه ببغداد والتى كانت تفزعه كثيراً على حين لا يملك إلا إعلان سخطه على مشعليها، وثناءه على مخمديها، وقد عاصر فى حياته الشاعرية من آل بويه، بهاء الدولة، وصمصام الدولة، ومشرف الدولة، وجلال الدولة وكان نفوذ الديالمة قد أخذ يتقلص فى العراق وبخاصة فى بغداد بعد عهد بهاء الدولة، وزادت الحال سوءاً فى عهد جلال الدولة الذى استهان الترك بأمره وأخرجوه أحياناً من بغداد هارباً — ولم يمدح مهيار سواه من هؤلاء الملوك كما سنبين لك بعد — على أن الشاعر كان يعتقد الاعتقاد كله أن عزه معقود بعز بنى بويه، فكم كان يحزن إذا هان أمرهم، وكم كان يسر إذا استعادوا نفوذهم، وكانت أسارير نفسه وأفق آماله بين مد وجزر وبسط وقبض طوال حياته.

ورابع تلك الأحداث التى تعرض لها، قصف الردى ريحان أصدقائه الوفيين له الذين جاملوه وعاونوه، أو كانوا سبباً فى علو شأنه، وعلى رأسهم الشريف الذى أكن له تلميذه تقديراً خاصا، اعترافاً بفضله عليه وحمايته له.

وخامسها — وهو من الأهمية أولها — اعتناقه الإسلام (سنة ٣٩٤هـ) على ماذكره المؤرخون فأحدث إسلامه تغييراً ظاهراً لا فى عقيدته فحسب ولكن فى شخصيته وأدبه. فعف لفظه وشرف معنـــاه، وهدأت ثائرة شعوبيته كما أثرت الدراسات الشرعية فى شعره فبدأ يقسم بالبيت والطائفين به ويذكر رمى الجمار ومواضع جمع والمصلى ومنى وغيرها، وبدأ يجارى علماء الكلام فى الدفاع عن حق العلويين فى الخلافة — وما إلى ذلك مما ستشرحه الشواهد من شعره إن شاء الله.

وقد بلغ من اعتزاز مهيار بإسلامه أن أحس — فى زهو — بأنه حدث جديد يجب أن يطرب له المسلمون فانبرى يهنىء نفسه وبعض كبار الدولة بذلك كالقصيدة التى بعث بها إلى «الكافى الأوحد» أبى العباس أحمد بن ابراهيم الضبّيّ وزير «فخر الدولة» بعد الصاحب بن عباد، وقد يكون أول

ممدوحيه إذا استثنينا أهل البيت النبوى ، وقد نظمها سنة ٣٩٤ هـ وبعث بها إليه وفيها يقول[1] :

دواعى الهوى لك ألا تجيبا ... هجرنا تقى ماوصلنا ذنوبا
قفونا غرورك حتى انجلت ... أمورٌ أرين العيون العيوبا
فقل لمخوفنا أنْ يَحُولَ ... صباً هرماً ، وشبابٌ مَشيباً
وددنا لعفتنـا أنَّنا ... وُلدْنا ـ إذا كرهَ الشيبُ ـ شيبا

ومنها موجهاً الخطاب إلى الذين ظلوا فى ضلالة كفرهم يعمهون :

تبدلت من ناركم ربهـا ... وخبث مواقدها الخلد طيباً
أفيئوا فقد وعد الله فى ... ضلالة مثلكم أن يتوبا
والا هلموا أبا هيكمُ ... فمن قام والفخر قام المصيبا
أمثل محمد المُصطفى ... إذا الحكمُ وليتُمُوه لبيبا
بعدل مكان يكون القسيم ... وفصل مكان يكون الخطيبا
أبان لنـا الله نهج السبيل ... ببعثته وأرانا الغيوبا

ثم يعتد بنفسه أكثر من ذلك فيرى أنه بحكم الإسلام أصبح صاحب حق واجب له فى مال الممدوح حيث يختمها بقوله :

فوف فقد جعـل الله ما ... تَنَفَّلت فى الجود فرضاً وُجُوبا
وقد كنت عبْداً قصيًا وجدت ... فكيف وقد صرت خلا نسيبا ؟

* * *

ولا تظنن أن إسلام مهيار قد جاء مفاجأة لم تكن منتظرة فقد ظهرت بوادر هذا الميل منه فى القصيدة الشعوبية التى سبق أن أشرنا إليها والتى سنعرض لها فى الكلام على شعوبيته يمدح فيها خاتم المرسلين وآله الأطهار مدحا خالصا معبرا عن حب وتقدير عظيمين .

ومن المرجح أن الفضل فى إسلامه يرجع إلى الشريف الذى توسم فيه

---

(١) بالديوان ج ١ ص ١٢

استعداداً لنصرة التشيع — وكان لبيت « الرضى » زعامته — منذ نظمه تلك القصيدة سنة ٣٨٧ فما زال يوصيه بالإسلام حتى أسلم — وإنه لما يدهشنا أن مهيار لم يصرح فى أشعاره التى قالها فى أستاذه بما يؤيد هذا الفضل على حين نراه ينسبه صراحة إلى « الكافى الأوحد » أبى العباس الضبى حيث يقول من مدحته الدالية التى قالها فيه بعد تركه « الرى » مغضوباً عليه من أم « مجد الدولة » .

هو المنقذى من شرك قوى و باغتى   على الرشد أن أُضْفِى هـوَاى محمدا

وتاركُ بيتِ النار يبكى شَرَارُهُ   على دما إذ صارَ بيتى مسجدا

ذلك إلى جانب اختصاصه بتهنئته باسلامه يدلنا على أثر ذلك المدوح فى دفع الشاعر إلى اعتناق الشريعة السمحة .

والمطلع على ديوان شعر مهيار يجد أنه كان مقلا بادىء الأمر — وبخاصة فى الفترة التى كان متصلا فيها بالشريف (الذى أصبحت له نقابة الطالبين سنة ٣٩٦ هـ — على ماجاء بابن الأثير — وقد ظل الشاعر ملازمه إلى أن توفى سنة ٤٠٦ هـ) ويظهر أنه فى تلك الفترة التى تقرب من عشرين سنة من حياته الشعرية كان حريصا على إرضاء أستاذه فلم يقل الشعر إلا فى مناسبات خاصة كرثائه أهل البيت ومدحهم ومدح بعض العلويين ، ويكاد ممدوحوه فى تلك الفترة من واصليه بنوالهم يعدون على أصابع اليد الواحدة ، ولم تكن المادة دافعه الوحيد إلى امتداحهم فقد كانت لهم نباهة شأن أويد على الصالح العام للشعب — فوق معونتهم له — ومن هؤلاء الكافى الأوحد — وقد عرفت أياديه البيضاء على الشاعر — وأبو نصر سابور وزير بهاء الدولة وكان أديبا تجمعه بالشاعر العصبة الفارسية ، وفخر الملك وزير بهاء الدولة وسلطان الدولة — وسيأتى ذكره فى باب المدح — وقد مدحه الشريف الرضى أستاذه وسنوازن فى آخر هذا الكتاب بين مدحة للشريف وإحدى مدح مهيار فيه — وكان ذلك الممدوح متشيعا . كما رثى فى تلك الفترة عميد

الجيوش مع عدم سابق صلته به لا لشيء إلا لتشيعه ، وضربه على أيدى العابثين بالأمن ببغداد حتى استتب الوئام والسلام مما يغتبط له الشعراء أمثاله.

وبعد موت الشريف وابن نباته السعدى من قبله (سنة ٤٠٥) ابتدأ مهيار يشعر بأنه رئيس دولة الشعر فى بغداد فقويت نفسه ، وبعد أن كان مقلا قصير النفس نسبياً أخذ خياله يتسع، ومعانيه تغزر ، ومطولاته تتواتر واتصالاته بالوزراء والرؤساء والكتاب تقوى . حتى صار زعيم المداحين المتكسبين فى العراق أكثر من عشرين عاما وهى الفترة التى عاشها بعد أستاذه .

وأغراض شعر مهيار تدرجت — فى الغالب — من مقطوعات غزلية إلى قصائد فى الشعوبية والتشيع ثم أجاد المديح والرثاء ، وبرع فى العتاب والشكوى وبخاصة فى أواخر حياته كما أجاد وصف ما وقع تحت حسه — وأحسن الهجاء فى عفة لفظ وسنعرض لتفصيل ذلك عند الكلام على أغراض شعره .

ويجدر بنا هنا أن نطلعك على بعض آراء الأدباء والمؤرخين فى مهيار وشعره فى شىء من الإيجاز .

١ — اكتفى ابن الأثير[١] بذكر موته سنة ٤٢٨ ، والإشارة إلى أنه كان مجوسيا ، ثم أسلم على يد الشريف الرضى .

٢ — ذكره ابن خلكان فى الوفيات [٢] ويتلخص قوله فى أن الشريف الرضى يعتبر شيخه وعليه تخرج فى نظم الشعر ، وقد وازن كثيراً من قصائده وكان شاعراً جزل القول مقدما على أهل وقته، وله ديوان شعر كبير يدخل فى مجلدات أربعة ، وهو رقيق الحاشية ، طويل النفس فى قصائده ، وبعد أن ذكر بعض آراء غيره فيه استشهد ببعض أشعاره فى الغزل والقناعة والعتاب ثم قال ، وديوانه مشهور فلا حاجة إلى الأطالة فى إثبات محاسنه .

---

(١) ج ٩ ص ١٨٩ .

(٢) ج ٢ ص ٤٧ .

٣ — ذكره الباخرزى « فى دمية القصر » فقال « هو شاعر له فى مناسك الفضل مشاعر ، وكانت تجلى تحت كل كلمتين من كلماته كاعب ، وما فى قصيدة من قصائده بيت يتحكم فيه بلو وليت ، فهى مصبوبة فى القلوب ، وبمثلها يعتذر الزمان المذنب عن الذنوب[١] » .

٤ — وذكره أبو الفرج الجوزى فى كتابه « المنتظم فى تواريخ الملوك والأمم » تحت عنوان « أبو الحسن مهيار بن مرزويه ، الكاتب الفارسى » ويتلخص قوله فى أنه أسلم وصار رافضيا غالياً وأن فى شعره لطفا ، إلا أنه كان يذكر الصحابة بما لا يصلح ، وأشار كما أشار غيره إلى قول « أبى القاسم بن برهان » له يا مهيار انتقلت بإسلامك فى النار من زاوية إلى زاوية قال وكيف ذلك ؟ ، قال لأنك كنت مجوسيا فأسلمت فصرت تسب الصحابة . وأشار كذلك إلى قصة لو صحت لدلت على ضعف فى خلق « مهيار » وملخصها أن خادمته عثرت على كيس به ألفا دينار نسيه من كانوا قبله بالدار من الخراسانية الحاج ، فأخبرته به فادعاه لنفسه ، وعلم جلال الدولة فقبض عليه وسجنه ليلة ثم أطلقه — وقد عثرت فى شعر مهيار — من قصيدة لامية فى مدح جلال الدولة — على ما يشير إلى تلك القصة[٢] وقد جاء فى عنوانها بالديوان ما نصه (اتفق أن بعض الحسدة والسعاة وشى به فى أمر محال اتصل بحضرة الملك شاهنشاه جلال الدولة ركن الدين أبى طاهر بن بويه ، فاقتضى أن أستدعى إلى داره واعتقل ليلة على كشف الصوره اعتقالا مميزاً جميلا ، ثم انكشفت له البراءة مما حكاه الساعى به ، وقنع الملك بقوله ووثق بصحته ، وبالغ فى الإنعام بتميزه ، وأفرج عنه إفراجاً طيباً مجملا وكان فى عرض ذلك استبطأ منه خدمة مجلسه بالشعر ، واستنكر ما يستعمله مع خدمة أوليائه من المدح وما يخل من فروض خدمته ، فقال يشكر نعمته ،

(١) وتعرض الباخرزى لذكر الحسين بن مهيار الشاعر ونسب إليه خطأ قصيدة أبيه الحائية التى مطلعها :

بانسيم الريح من كاظمة ... شد ما هجت البكا والبرحا

(٢) ج ٣ ص ١٩٤ بالديوان .

ويذكر القصة ، ويعرض بالساعي ويمدحه ، وأنشدها بحضرته يوم عيد الفطر من سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة)

ولقد جاء بتلك القصيدة ، تلميحاً لهذه القصة :

أتعرف يا مولى الملوك كقصة ... بليت بها بالأمس والحر يُبتَلى
أبعد قنوعى بالثِّمادِ تعففاً ... وهجرى أبوابَ الملوك تَعزُّلا
وظُلْمى فَضلى واهتضامى تَوَحُّدى ... مخافة أن أذوى وأن أتبذلا
يسىء رعاع الناس عندك سمعتى ... ويُشعِر أنى حزت مالا مؤثَّلا
ويغرى بإفقارى وأنت الذى ترى ... لمثلىَ أن يَغنَى وأن يتَمَوَّلا
ولكنها ما غيرت لك شيمة ... كرُمَتْ بها إلا قليلا «كلا ولا»(١)
ولما سعى الساعى لجاءك كاذباً ... على بجُوْرِكُنْتَ أعلى وأعدلا
أتاك بزُور فاتحاً فمه به ... فألقمته بالرد تُرْباً وجندلا
تسرع فيها جالبا لك إثمها ... ولكن أراك الحقُّ أن تتمهلا
فلم تألنى كشفا لصدق براءتى ... ولا نظراً فى قصتى وتأمُّلا
وَزَنْتَ بذكر المال مجدك فى العلا ... فكان وزان المجد عندك أثقلا
وحكمت رأيا طاهريا وهمَّةً ... وبُوَيْهِيَّةً ، ما طَبَّقتْ كان مفْصَلاً
فأرضاك منى الصدق لما علمْتَهُ ... بِبَيِّنَةٍ لم أستعِرْها تَقَوُّلا
خَبِيئتُ ولكن كان حبساً مُشَرَّفاً ... أناف بذكرى واعتقالا مُجَمَّلا
ولم أر مثلى مستضاماً مُكَرَّماً ... ولا كاسبا للعز من حيث ذُلِّلا
لئن عد قوم نكبة حبس ليلة ... لقد كنت منكوباً من الناس مُقبِلا

ويستطرد الشاعر على تلك الوتيرة إلى آخر القصة ، وهى وإن لم تكن

---

(١) يضرب بها المثل فى القصر قال بعضهم :

وأسرع فى العين من لحظة ... وأقصر فى السمع من «لا ولا»

شيمتها ثابتة عليه إلا أنها ومن غير شك قد جرحت كبرياءه كشاعر أصبح على الأقل مظنة الاتهام — وتدل القصة على ما ذكرها مهيار — متهما — فى دفاعه على أن له أعداء يسعون جاهدين للنيل منه ، ويعملون على تشويه سيرته ، كما تدل على أن جلال الدولة لم يسجنه إلا لأحد أمرين أو لهما مجتمعين :

أولهما : غضبه عليه لمدحه الوزراء والكتاب والحجاب وغيرهم ممن يعتبرون خدام جلال الدولة من دونه .

وثانيهما : طمعه فى ابتزاز المال الذى قيل إن الشاعر ادعاه لنفسه بدون حق — وذلك يفهم من البيت (وزنت بذكر المال مجدك فى العلا .....)

ولا يستغرب ذلك فقد صادفت جلال الدولة محن مالية قاسية أشار إليها المؤرخون .

٥ — وجاء عن مهيار فى « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب »(١) وفى « الذخيرة لابن بسام » وفى تاريخ بغداد لأبى بكر الخطيب من الثناء مالا يخرج عما تقدم .

٦ — وقد تعرض له صاحب كتاب أعيان الشيعة (٢) عند الكلام على المتكلمين فقال ما نصه « ومهيار الديلمى الشاعر فى قصائده كثير من الاحتجاج والبراهين العلمية القوية » وجاء فيه عند الكلام على فضل الشيعة فى الأدب العربى(٣) « وتلميذ الرضى مهيار الديلمى الشاعر البارع الذى لا يبارى المكثر المطيل مع الاجادة ، الذى أبرز معانى العجم فى ألفاظ العرب ففاق »

هذا مجمل آراء الناس فى مهيار ، وسوف نكشف لك عن نواحى أخلاقه وشخصيته فى أثناء عرضنا لشعره فى أغراضه المختلفة .

وقبل أن نتناول تلك الأغراض ، سنتكلم عن الرجل باعتباره شاعراً للشعوبية ، وعنه باعتباره شاعراً للشيعة لأن ذلك سيعيننا كثيراً على تفهم مقاصد شعره .

---

(١) ج ٣ ص ٢٤٣ . (٢) ج ١ ص ٢٣٨ . (٣) ج ١ ص ٢٤٧ .

مهيار شاعر الشعوبية [1]

احتقار الشعوب الأعجمية وبخاصة الفرس للعرب أمر قديم، وآية ذلك ما رواه القصاص من أن كسرى قد أسرف فى الحط من شأن العرب أمام النعمان ، وأن سيد الحيرة قد رد على الملك الساسانى ناقضاً مطاعنه ، وأنه لم يكتف بذلك فأرسل إليه وفداً من وجوه سكان الجزيرة للكلام بين يديه بما يكشف عن مناقبهم .

ثم أتم الله بنور الإسلام على يدى نبيه الكريم لم أشتات العرب — فأوَوا بفضله إلى جناح دعوة اعتصموا بها ، وظل ألفة اعتمدوا على عزها، وتجمعت منهم قوة أسقطت كسرى عن إيوانه ، وردت قيصر عن أعز أوطانه — فنشأ من ذلك الحين عداء مستحكم فى نفوس الأعاجم لما أن سادهم بداة جفاة ، و . . .

ولكن ذلك العداء ظل مكبوتاً أمام بأس الخلافة ، وسلطان العرب القاهر منذ فتح المسلمون بلادهم فى عهد عمر إلى أخريات العصر الأموى ، وقد يكون نمو الشعوبية نتيجة لتعصب بنى أمية للعرب والعربية مع المبالغة فى تحقير العجم ، ثم تدرجت الشعوبية على النحو الآتى :

أولا — بدأ العرب يقولون بأفضليتهم على جميع شعوب الأرض — معتزين باستقلالهم حتى فى جاهليتهم بغض النظر عن فقر بلادهم الذى صرف عنها أعين الفاتحين ، وبما اختصوا به من صفات الكرم والوفاء ، والشجاعة وحفظ الأنساب ، وبأنهم شرفوا برسول الله وبالإسلام واعتبروا يداً لهم على العجم أن أخرجوهم بالفتح من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان .

ثانياً — ظهر جماعة آخرون من العرب يقولون بمبدأ السوية بين الشعوب

---

(١) الشعوبيون أو الشعبيون فى الأصل الذين يقولون بأن الشعوب سواء ثم انحرف مدلولها فأصبحت تطلق على الذين يقولون بأفضلية غير العرب على العرب .

وأنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، وهؤلاء استمدوا أكثر أدلتهم من الدين — وقد شاركهم كثرة من العجم فى رأيهم هذا لا قناعةً به، ولكن كنفذ يلجونه بعد إلى مأربهم من تفضيل عنصرهم — وسميت جماعة هذا المبدأ (أهل التسوية).

ثالثا — وبعد ضعف النعرة العربية بسقوط الدولة الأموية، وقيام العباسية بسواعد الفرس استطاع هؤلاء[1] أن يعلنوا فى صراحة أنهم أفضل من العرب وأسمى محتجين.

١ — بماضيهم المجيد فى عهد الأكاسرة حين كان العرب بمعزل عن المدنية منزوين بجزيرتهم الخالية من مظاهر الخصب والحضارة، فانحصر فخر العربى فى حماية جار أو إكرام ضيف، أو وفاء برهن مهما حقر المرهون كالذى يقول:

ونحن رهنا القوس ثم تخلصت　　بألف على ظهر الفزارى أقرعا[2]

إلى غير ذلك من الأمور التى عدها أعداء العرب - على عظمتها - تافهة.

٢ — كما احتجوا بأنهم من نسل اسحاق بن ابراهيم الخليل، والعرب من نسل اسماعيل، والأول ابن «سارة» الحرة، والثانى ابن «هاجر» الأمة فكأنهم تساووا مع العرب أبا وفضلوهم أمّا.

٣ — وادعوا أن الأنبياء جميعاً من غير العرب باستثناء أربعة هم هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله تعالى عليه — وليس لهذا الادعاء ولا لسابقة ما يؤيده.

٤ — واحتجوا كذلك بأن الإسلام الذى اعتز به العرب دينُ الناس كافة، وليس شريعة موقوفة عليهم، وإذا كانوا قد تعادلوا والعرب دينا، فهم «أى العجم» أفضل بسابقتهم فى الرقى والنظم الاجتماعية بدليل حاجة العرب الماسة إلى الموالى فى إدارة شئون الملك وتسيير دولاب الحكم.

---

(١) الفرس وغيرهم من العرب.

(٢) يشير الى أن سيار بن عمرو بن جابر الفزارى ضمن لبعض الملوك الف بعير دية ورهنه قوسه فقبلها منه على ذلك ثم ساقها إليه.

وإذا عرفنا أن الشعوبية صورة مكبرة للعصبية — أمكننا أن ندرك سر نموها فى ذلك العصر الذى تعصب فيه كل شعب لعنصريته وكل حزب لحزبيتـه ، وكل ذى مذهب لعقيدته ، حتى كان التعصب بين أبناء الجنس الواحد : الأمر الذى مكن الموالى من الإفادة به إذ استعانوا ببعض طوائف العرب على العرب فأخذوا من حزب الشيعة عضداً قويا ، واتخذوا التشيع ستاراً يخفون وراءه مآربهم الحقيقية من الزراية على العرب ، والطمع فى الاستقلال — وكان لهم ظهير من حكام هذا العهد وهم البويهيون الفارسيون المتشيعون . ولقد كان أشد الموالى عداوة للعرب وإشادة بمجد الفرس — السّفلة دون الأشراف ، جاء فى كتاب العرب لعبد الله بن مسلم بن قتيبة فى الرد على الشعوبية ما يأتى[١] :

« ولم أر من هذه الشعوبية أرسخ عداوة ، ولا أشد تعصبا للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط[٢] ، وأبناء أكرة القرى ، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة ، فيعرفون مالهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً ، وقال رجل منهم لرجل من العرب إن الشرف نسب ، والشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم — وإنما لهجت السفلة منهم بذم العرب ، لأن منهم قوماً تحلوا بحلية الأدب فجالسوا الأشراف ، وقوماً اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان ، فدخلتهم الأنفة لآدابهم والغضاضة لأقدارهم : من لؤم مغارسهم ، وخبث عناصرهم ، فنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم ، واعتزى إلى ملوكهم وأساورتهم ، ودخل فى باب فسيح لا حجاب عليه ، ونسب واسع لا مدافع عنه ، ومنهم من أقام على خساسة ينافح عن لؤمه ، ويدعى الشرف للعجم كلها ، ليكون من ذوى الشرف ويظهر بغض العرب يتنقصها ، ويستفرغ مجهوده فى مشاتمها ، وإظهار مثالبها ، وتحريف الكلم فى مناقبها : وبلسانها نطق ، وبهممها أنف ، وبآدابها تسلح

(١) رسائل البلغاء للأستاذ الجليل كرد على .
(٢) النَّبَط سكان البطائح بين العراقين .

عليها ، فإن هو عرف خيراً ستره، وإن ظهر حقره، وإن احتمل التأويلات صرفه إلى أقبحها ، وإن سمع سوءا نشره .. .... فهو كما قال القائل :

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا   شرا أذيع ، وإن لم يعلموا بهتوا

ويتعجب ابن قتيبة من ذلك فى موضع آخر حيث يقول :

وإنما يفخر بملك فارس أبناء ملوكها ، وأبناء عمالهم وكتابهم وحجابهم وأساورتهم ، فأما رجل من عرض العجم وعوامهم لا يعرف له نسب ولا يشهر له أب فما حظه من سرير كسرى وتاجه ، وحريره وديباجه ، وليس هو من ذلك فى مراح ولا مَغدَى ، ولا مظل ولا مأوى، فإن قال لأنى من العجم وكسرى من العجم فرحبا بالمثل المبتذل ابن جار النجار — ا ـ ﻫ ».

ولقد كان أنصار الشعوبية الذين بدءوا يعلنون آراءهم فى العصر العباسى الأول — كبشار وغيره — مُحتَشِمين بعض الشىء أما فى العصر الثانى فقد أماطوا عن وجوههم لثام الاحتشام، وممن يحتشمون أمن الملوك وهم فارسيون أما من الخلفاء وهم عاجزون ؟ — وإذا كان ذلك كذلك فهل تعجب إذا رأيت « مهيار » نصيراً للشعوبية قد أسف فى طعنه على العرب وأقذع ، وعيَّرهم بهنات ماضيهم فأوجع ؟ — وهو إنما فعل ذلك لعداوة موروثة فيه كفارسى الجنسية ، ولإيوائه من الحكام الديلميين إلى ركن شديد ، ولتستره بالتشيع فى عصر كثر ناصروه، وماذا يضيره . ما دام العلويون وعلى رأسهم الملوك والوزراء عنه راضين — إذا غضب بنو هاشم وأنصارهم ومن فوقهم الخلفاء — حتى ليخيل إلىّ أن ذلك الشاعر كان يرمى — غالبا — من وراء تنقصه العرب إلى إرضاء سادته من بنى جلدته — ليضمن رضاهم ، والحظوة لديهم — ولنستمع إلى قوله فى « أبى الوفاء كامل بن مهدى » الفارسى الأصل [١] :

فإلى بابك الحوائج تحدو   ولك العير فى العلا والنفير

---

(١) ج ٢ س ٦٠ من الديوان .

عادة من ورائها شافع النفـ ـس وأصل بفرعه منصور
واكتساب أعانه شرفُ الميـ ـراث والمجد أول وأخير
وبِمِنا لمن تمـــد بأعـرا قك فى الفخر أن يسود جدير
دوحة من ثمارها أنت والمغر س منها «بَهرَام» أو «أردشير»
خير ماتربة على الأرض لم يشعـ ـب على اللؤم طينها المفطور
طاب صلصال عيصها[1] وبريا ها ثرًى ماجد وماء طهور
قومك الغالبون عزا وهم قو مى على الأرض وهى ماء يمور[2]
ركبوا الدهر وهو بعد فتىً مجـذَعٌ وهو قارح مقرور[3]
مَلكوا الناس آمرين وما فى النـ ـاس إلا مُستعبدٌ مأمور
كل خوف بهم أمان ومهجو ر خراب بعد لهم معمور
أى مجد يضمُّنا ونِجارٍ يوم أنسابُنا إليه تصير
إن يفتنا الخطيب والمنبر المنصـ ـوب فالتاج حظنا والسرير
حسبنا أن تعلم الملك منا والسِّياسات فيــه والتدبيرُ

فهل ترى تمجيداً للفرس أشد سرفا من ذلك، وتعريضاً بالعرب واستهانة آلم من هذا؟ أنه قد رفع من محتد الممدوح وشرفه الموروث الذى يعتبر الشاعر نفسه شريكا فيـه ثم يبين أن ملوك الفرس السابقين أجداده خير دوحة مغرسها بهرام وأردشير، وأنهم أكرم تربة على الأرض نزهت عن اللؤم، وإذا كان بنو آدم قد خلقو من صلصال من حمأ مسنون، فقد كانت طينة هؤلاء الملوك أمجد ثرى وأطهر ماء — فقد عزُّوا وغلبوا قبل أن يستقر على الأرض آدمى، وقهروا الدهر وهو فى حالى فتوته وهرمه — ونشروا السلام فإذا الخوف أمن وعنوا بالمدنية فإذا الخراب معمور — ولا يفوت الشاعر

(١) العيص الأصل .

(٢) يمور : يموج ويضطرب .

(٣) الجذع الفتى ، والقارح المسن ، والمقرور الساكن الثابت .

أن يعرض بالعرب فى ثلاثة مواضع – يعرض بهم مستذلين مستعبدين والفرس سادة ، ويعرض بهم متواضعين فى فخرهم بمنابر الخطابة ، وملوك الفرس على سرر الملك تزين رءوسهم التيجان ، ويعرض بهم جاهلين بشئون السياسة وتدبير أمور الملك ، والفرس لهم فى ذلك أساتذة وموجهون .

ثم لنتساءل إلى أى غاية يقصد الشاعر بهذا التعصب للفرس ، والإطراء لقدامى ملوكهم الذين ألصق نفسه وممدوحه بهم إلصاقا ، وأى مرمى يرمى إليه من الزراية على العرب ؟ وسنجد الجواب واردا على لسان « مهيار » ذاته حيث يقول بعد ذلك :

فوفاء « أبا الوفاء » فلم تُقْـ ... ـضَ – إذا مالم تقض فى – النذورُ
كن غيوراً علىَّ من أن يلى غـ ... ـيرك نصرى ، إن الكريمَ غيور

* * *

ثم لننتقل إلى مثل آخر لشعوبية مهيار من قصيدة فى مدح جلال الدولة وتهنئته بالمهرجان مبينا أنه إنما ورث ملك أجداده الأكاسرة وأن كسرى قد أسلاه فى قبره عن زوال إيوانه جلوس هذا الملك على العرش الآن محكما فى العرب ، فيقول [1] :

وعاد المهرجان بخفض عيش ... يرف على ظلائله الصَّفاقِ [2]
هو اليوم ابتناه أبوك كسرى ... وشيد من قواعده الوِثاقِ
وشقَّ له من اسم الشمس وصفا ... يصول به صحيح الاشتقاق
ويقسم لو رآك جلست فيـه ... لجاءك قائماً لك فوق ساق
وأعجَبَهُ تنزُّلُهُ بعيداً ... وأنت على سرير الملك راق
وأسلاهُ عن الأيوان لقيْاً ... مقام العز فى هذا الرواق

وفى المثل الآتى يتجلى لنا أثر تشيع مهيار فى شعوبيته ، فقد اتخذ من

(١) ج ٢ س ٣٥٢ .
(٢) تصفق الريح الأشجار « تصطفق » بمعنى تضطرب .

حب آل البيت ستاراً يطعن العرب من خلفه ظنا منه أنه لا جناح عليه ـ ما دام فى طعنه يستثنى سيد المرسلين ، وآله المقربين ـ فى أن يجرح شعور العرب ، ويرغم أنوفهم ويهون من خطرهم — حتى إن تلك الميمية التى تعتبر أخطر شعره الشعوبى والتى قد تكون باكورة أشعاره (سنة ٢٨٧) وكانت قبل إسلامه بسنوات سبع — لتعتبر مزيجا من الشعوبية والتشيع ، بدأها الشاعر فاخراً بنفسه متعصباً لقومه منوها بعظيم شرفه بانتسابه لهم، مصرحاً بأنه لا يبالى فى سبيل ذلك لومة لائم أو حسد حاسد ، وذلك حيث يقول(١) :

أتعلمين يا ابنة الأعاجم كم لأخيك فى الهوى من لائم
يهب يلحاه بوجه طلقَ ينطق عن قلب حسود راغم
وهو مع المجد على سبيله ماض مضاء المشرفى الصارم
ممثلا ما سنه آباؤه إن الشبول شَبَهُ الضراغم
من أيكة مذ غرستها «فارس» مالان غمزاً فرعها لعاجمَ
لمن على الأرض وكانت غيضةً أبنيةٌ لا تبتغىَ لهادم ؟
من فرس الباطل بالحق ومن أرغم للمظلوم أنف الظالم ؟
إلا «بنو ساسان» أو جدودهم طرَّبخوا فيهم ، وبالقوادم
أيُّهُمُ أبكى دما ؟ فكلهم يحل عن دموعى السواجم
كم جذبت ذكراهمُ من جلدي جذب الفريق(٢) من فؤاد الهائم
لا غرو والدنيا بهم طابت إذا لم تحل يوماً بعدهم لطاعم
لا اختصمتنى فيهم قبيلة إلا وكنت غصة المخاصم
ولا نشرت فى يدى فضلهمُ إلا نثرتُ مِلءَ عِقدِ الناظم

ثم يعجب ممن يجرؤ — من العرب — على إنكار فضلهم مع أنهم أهل

---

(١) ج ٣ س ٣٣٤ .

(٢) الفريق أكثر من الفرقة وهى الطائفة من الناس ، وأرجح أنها الفراق .

لكل مكرمة ، وأس لكل مجد ، وعلى حين أن ما عليه هؤلاء المنكرون من الفضل منحول عن الفرس ، ثم يوازن بين الأمتين من حيث عظمة الملوك والحماية للجار ، والتغلب على عظائم الأمور ، والكرم الواسع وما إلى ذلك من فضائل يتضاءل أمامها فخر العرب بشجاعة عمرو وسخاء حاتم ، ويصب مهيار عجبه هذا فى تقريع قبيح ، وتجريح صريح حيث يقول :

إن يَجْحدَ الناسُ عُلاهم فبما ... أنكر رَوضٍ نعم الغمائم
أو قَلَّدَ الصارمَ غيرُ ربه ... فليس غيرُ كفه للقائم
أحق بالأرض إذا انصفتمُ ... عامرُها بشرفِ العزائم
ياناحلى مجدِهِمُ أنفسهم ... هبُّوا فللأضغاثِ عينُ الحالم
شتان رأسٌ يفخر التاج به ... وأرؤس تفخر بالعمائم
كم قصرت سيوفهم عن جارهم ... خطى الزمان قائماً بقائم
ودفعت حُماتُهم عن نوب ... عظائم تُكْشَفُ بالعظائم
وخولوا من نعم واغتنموا ... جل السماح عن يمين غارم
مناقب تَفتَقُ ما رقعتم ... من بأس «عمرو» وسماح «حاتم»

ثم يستثنى من تلك المطاعن — وفى لباقة — نبى الهدى الذى أنار لهم المحجة إلى الإسلام وقواهم من ضعف ، وأعزهم من هوان ، ونشر فيهم الفضائل بعد أن ظلوا فى ظلمات الشرك والشرور ، فلما اختاره الله إلى جواره — عادوا فنكثوا عهده ، واغتصبوا حقه ، وحرموه أهله وهم بخلافته أولى ، أما الفرس فقد عرفوا دعوته واعتنقوا شريعته ـ نصروا سنته وحموا عشيرته ، ويتخلل كل أولئك تشهير بالعرب لإيذائهم رسول ربهم ، وقتل سبط نبيهم ، ويتجلى ذلك فى قوله :

ما برحت مظلمة دنياكم ... حتى أضاء كوكب من هاشم
بنتم به وكنتمُ من قبله ... سراً يموت فى ضلوع كاتم
حللتمُ بهديه وبيُمنه ... بعد الوهاد ـ فى ذرى العواصم

وعاد هل من مالك مسامح تدعون هل من مالك مقاوم؟
تخفق راياتكم منصورة إذا ادرعتم باسمه فى جاحم[١]
عشر منكم فى أذى تفضحكم أخباره فى سير الملاحم
بين قتيل منكم محارب يكفر أو منافق مسالم
ثم قضى مسلماً من ريبة فلم يكن من غدركم بسالم

ه ه ه

نقضتم عهوده فى أهله وحلتم عن سنن المراسم
وقد شهدتم مقتل ابن عمه خير مصل بعده وصائم
وما استحل باغياً إمامكم «يزيد» بالطف من «ابن فاطم»[٢]
وها إلى اليوم الظبا خاضبة من دمه مناسر القشاعم

ه ه ه

«والفرس» لما علقوا بدينه لم تنل العروة كف فاصم
فمن إذن أجدر أن يملكها موقوفة على النعيم الدائم؟

وبعد ذلك يتهدد العرب بأن لعنصره الغلب، ويبين أن هزيمتهم كانت من عثرات الزمان لا يسلم منها قبيل، وذلك فى قوله:

لابد يوماً أن تقال عثرة من سابق أو هفوة من حازم
لو هبت الريح نسيماً أبداً لم يتعوذ من أذى السمائم
أو أمنت حسناء طول عمرها عيناً[٣] لما احتاجت إلى التمائم

ثم يوجه الكلام إلى حاسديه من العرب على محل قومه ومحله قائلا:

خذ يا حسودى بين جنبيك جوى يرمى إلى قلبك بالضرائم
واقنع — فقد فتك غير خامل — بالصغر، أن تقرع سن نادم

(١) الجاحم: الحرب وشدة القتل فيها.
(٢) المقصود الحسين والطف الموضع الذى قتل فيه.
(٣) العين: الحسد.

لازلت منحوس الجزاء قلقاً لوادع ، وسهراً لنائم

وهناك عامل آخر قد يكون ذا أثر فى كون الرجل شعوبياً ، وهذا العامل يدركه معى من قرأ الكثير من غزله : ذلك أنه فيما يظهر — شأنه شأن شباب عصره — قد أحب فى صباه وكانت محبوبته تعيره أنه ليس كفئاً لعربية مسلمة لحداثة فى عهده بالاسلام ، وأعجمية فى أصله ، وكان هو يحاول الدفاع عن نفسه ، فلا يجد فى شخصه أو بيته المفخرة التى يتطلبها هذا الدفاع فكان عليه — بطبيعة الحال — أن يلجأ إلى قصى النسب يستعصم به ، وإذا كانت العربيات قد فخرن — بلسان حالهن — عليه بارتفاع نسبهن إلى الذوائب من قريش أو فهر ، فهو كذلك يفخر بصعود نسبه إلى كسرى مثال العظمة والمجد التالد — وإذا كان العرب قد دوخوا الأكاسرة وغلبوهم على سلطانهم آخر الزمان فإن الفرس قد سادو العرب وغير العرب قبل ذلك فى عهد فتوة الدهر ، والفضل للمتقدم ، ثم يعقد موازنات يستخلص منها أن العرب تنحصر مفاخرهم فى الاسلام ، والانتماء إلى هؤلاء البداة الجفاة الذين أسندت لهم مفاخر ينوء بها كاهل تواضعهم ، أما هو فقد تساوى معهم دينا باعتناقه الإسلام ، وفاقهم نسباً بانتمائه إلى بنى ساسان واضعى أسس المدنية ومدعمى أركان الحضارة ، وسابق العالم فى مضمار السيادة والعمران ، وكل ذلك نفهمه من قول مهيار مخاطباً « أم سعد »[1]

لا تخالى نسباً يخفضنى ... أنا من يرضيك عند النسب
قومى استولوا على الدهر فتى ... ومَشَوْا فوق رءوس الحقب
عَمَّموا بالشمس هاماتهمُ ... وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى على إيوانه ... أينَ فى الناس أبٌ مثل أبى ؟
سَوْرَةُ الملك القدامى وعلى ... شرف الإسلام لى والأدب .
قد قبست المجد من خير أب ... وقبست الدين من خير نبى

(١) ج ١ ص ٦٤ .

وضممتُ الفخر من أطرافه سُوددالفرس،ودينالعرب

وسنسوق إلى القارىء أمثلة أخرى تؤيد هذا الدافع عند الكلام على الغزل فى شعر مهيار على أنه مما يجدر التنبيه إليه أن الإسلام قد خضد[١] من شرة شعوبية الشاعر فلم تعد سوى لون من ألوان الرياء للممدوحين من غير العرب مرضاة لهم واستغلالا لبرهم كقوله فى مدح أحد الكتاب فارسيّ الأصل[٢] :

نقل الرِّياسة كابراً عن كابرٍ قرمٌ[٣] إذا عثرَ العجولُ تمهَّلا
وإذا الملوك تدارست أنسابها ألفيته فيها المُعمَّ المخولاَ
فى ذروة الشرف التى لو حلها سعد الكواكب لم يرد متحولا
بيتاً عتيقاً فى السماء بناؤه قِدَماً ، ومجداً «كسرويا» أولا
جارى مساعيهم وجاء مبرزا فَرع أبر على الأصول وأفضلا

ثم ينتقل إلى بيت قصيده وهو طلب العطاء فيقول :

أنا من أسرَّك المودَّةَ قلبُهُ وطوى لذاك لسانه مُتجمّلا
وإذا ذكرت له تحفز قلبه طرباً إليك ومرَّ نحوك محفلاً
ورأى جنابك للمكارم روضة أُنُفاً ، ودارك للمكارم موئلا
وأظن إصرار الزمان قد ارعوى شيئاً ، ومُعرض وجهه قدأقبلا
وأبيت أعلَقُ من يديك مودة تأبى مرائر فتلها أن تُسحَلاَ[٤]

مهيار شاعر الشيعة

كلمة مجملة عن نشأة التشيع وتطوره :

انتقل رسول الله « صلى الله تعالى عليه » إلى الرفيق الأعلى . فوقع المسلمون بعده فى خبط وشماس ، وتلون واعتراض بسبب الخلاف على من يخلفه ، ثم كان ما كان من أمر يوم السقيفة الذى انتهى بانتخاب « أبى بكر » وكان « على » — كرم الله وجهه — يعتقد أنه الأهل لذلك

(١) خضد الشجر قطع شوكه (٢) ج ٣ ص ١٣٨ (٣) القرم السيد فى قومه
(٤) المرائر الحبال محكمة الفتل ، وتُسْحَل بمعنى تنقض .

المكان غير مدافع ، وأمسك عن البيعة لأبى بكر مدة اختلف المؤرخون فى تقديرها ، وقد التف أثناءها حوله خلق كثير .

ولكن السيد الإمام خوفاً من التفرقة وحرصاً على جمع الكلمة استجاب أخيراً لدعوة أبى بكر وعمر على يدى ، أبى عبيدة بن الجراح ، قائلا من كلام له طويل : « على أنى ما كنت أعلم أن التظاهر على واقع ، ولا عن الحق الذى سبق إلى دافع . وإذ قد أفعم الوادى بى ، وحشد النادى من أجلى ، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين . . . . وأنا غاد إلى جماعتكم ، ومبايع لصاحبكم ، وصابر على ما ساءنى وسركم ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، وكان الله على كل شىء شهيدا » .

قال أبو عبيدة « فلما كان صباح يومئذ وافى على نخرق الصفوف إلى أبى بكر فبايعه » .

بر « على » بوعده ، وظل مستشار الخلفاء الثلاثة ، ثم كانت هنات نسبت إلى الخليفة الثالث كبت به إلى مقتله ، وانتهت بتولية على رابع الخلفاء الراشدين ، إلا أن نسبة التراخى إليه فى البحث عن قتلة « عثمان » ، ومبادرته بعزل الولاة الذين كانوا فى عهد سلفه — ومن بينهم « معاوية » الذى لبث فى أهل الشام عشرين عاما جعلت له منهم عصبية يحسب حسابها — قد أديا إلى إنفضاض كثير من الصحابة من حوله ، فحاربهم — حين أجمعوا أمرهم على قتاله — وانتصر على عائشة فى « الجمل » ، وعلى معاوية فى « صفين » . ثم كانت خيانة التحكيم ، وصعب بعدها إخضاع معاوية .

ومع ذلك فقد استقر « على » أميراً للمؤمنين بالكوفة — فى العراق — الأعوام الباقية من حياته شاغلا نفسه بمحاربة الخوارج وإخماد الفتن ونشر العدل ، ولم يجرؤ « معاوية » على تسمية نفسه خليفة إلا بعد مقتل « الإمام » على يد « عبد الرحمن بن ملجم » الخارجى .

قامت بذلك الدولة الأموية — التى صيرت الخلافة ملكا عضوضا — على كره من المسلمين بوجه عام ومن العراقيين بوجه خاص ، لاعتقادهم

بنى أمية للخلافة مغتصبون ، ولأن إقامة « على » بالعراق مدة خلافته ـ مع ما نفح به الناس من خطبه المتأججة ـ قد تركت فى النفوس أثرها، ثم زاد الاستياء والسخط على الأمويين مقتل الحسين بن على ، فى عهد « يزيد » .

لم يكن عجبا أن تنكشف غبارة تلك الفتنة عن جماعة يتشيعون لعلى ـ كرم الله وجهه ـ وآله تشيعا أساسه الاعتقاد بأن عليا وذريته أحق الناس بالخلافة وأن الإمام كان أحق بها من الثلاثة الذين تقدموه ـ ثم يبالغون فيقولون بأن النبى « صلوات الله عليه » كان قد عهد بها من بعده لعلى ، وكل إمام يعهد بها لمن بعده ، وبما أن النبى قد عهد بها لعلى وعلى عهد بها لمن بعده فأبو بكر وعمر وعثمان غاصبون لذلك الحق ، والخلفاء جميعاً من أمويين ثم من عباسيين معتدون كذلك على هـذا الحق ، ومن رأيهم أن واجب الشيعة العمل على رد ذلك الحق المسلوب لأهله ، والجهاد سرا وجهرةً إلى أن يتولى هذا الأمر أصحابه الشرعيون .

وكان نواة التشيع إخلاص فريق من الصحابة « لعلى » على رأسهم « سلمان الفارسى » وأبو ذر الغفارى وغيرهما ، وقد زادت عدتهم فى عهد عثمان ، ثم ظهر ذلك المذهب وعظم خطره بعد مقتل على ـ وكان طبعيا أن يظهر لذلك الحزب وأنصاره وعقائده مخالفون يقولون فى الخلافة بوجوب ترك الأمر لاختيار المسلمين ، ثم ينقسمون إلى فريقين فريق يرى اختيار الخليفة من قريش ، وآخر يرى جواز الاختيار من غير قريش .

وللشيعة فرق متشعبة تختلف فى تكييف العقيدة التشيعية حسب أهوائها وأهمها :

الإمامية : وترى وجوب اختيار الإمام بالذات ، وتضفى عليه صفات من التقديس والعصمة ترفعه فوق مرتبة النبيين أحيانا ، فهو عندهم يتلقى علمه عن طريق الوحى من الله الذى يصطنع الامام على عينه ، ويُعده إعداداً خاصاً منذ كان نطفة ، ويورثه على الأنبياء والمرسلين ويطلعه على علم ما كان

وما سيكون ، ويرون أن النبي ــ عليه الصلاة ــ يعلم علما علمه الناس ، وعلما آخر خص به « عليا » ، وعلى آثر به وريثه وهكذا إلى الإمام الثانى عشر ، ويقولون بأن الإمام فوق الناس فى طبيعته وتصرفاته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وتتفرع الأمامية إلى الاثنى عشرية التى تجعل الأئمة اثنى عشر إماماً أولهم « على » وآخرهم « محمد المهدى » وعقيدة تلك الفرقة هى الرسمية الآن للدولة الإيرانية . والإسماعيلية وهى التى تقف بالأئمة عند «جعفر الصادق» ودرجات تعاليمهم تسع تبدأ بالتشكك فى الأسلام ، وتنتهى بهدمه[1] ، ولقد شوهوا الإسلام بتأويل تعاليمه وشطت آراؤهم فى النبوة والوحى والقرآن فقالوا بوجوب فهمه على التأويل والمجاز ، وأنه ليس هناك معنى للتمسك بحرفيتـه ، وأنه « أى القرآن » ظاهر وباطن والثانى يجب للوصول إليـه ، اختراق الحجب المادية ، ومن هنا سموا أيضاً الباطنية ــ ، ولا يزال أتباعها فى الشام والعجم ، والهند بزعامة أغا خان الآن .

والأمامية بقسميها تعتقد عودة إمام منتظر تختلف فى شخصه ، أهو جعفر الصادق ، أم محمد بن عبد الله بن الحسن بن على « كرم الله وجهه » أم محمد بن الحنيفة ، ومنتظرو هذا الآخر يسمون الكيسانيه نسبة إلى كيسان (وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى) مولى هـذا الامام المنتظر ، وقد راجت بالعراق دعوته .

الزيدية : وتتكون من أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسن بن الإمام على « رضى الله عنهم » وأصحابها أكثر اعتدالا من الأمامية ، فهم لا يؤمنون بالخرافات التى تلحق بالإمام صفات إلـهية .

الشيعة فى العصرين الأموى والعباسى الأول :

صرف خلفاء أمية جهدا جهداً فى مقاومة دعوة التشيع ، ولـكنه كان

(١) فجر الاسلام ص ٣٢٥

فاشلا ، لأن الرأى العام كان إلى جانب العلويين الذين تصورهم المسلمون مظلومين مغلوبين على حقهم ، وكان حب التشيع قائماً فى العصر الأموى على أحد عاملين أو عليهما مجتمعين وهما الحب الخالص « لعلى » وبغض الحكم الأموى .

ولقد لقى الشيعة عربهم ومواليهم فى ذلك العهد ألواناً من العنت والتنكيل، والتشريد والتقتيل على يد القساة من الولاة ، أمثال الحجاج بن يوسف ، وزياد بن أبيه ، وأسد القسرى ولم يكن التعذيب ليزيد المتشيعين بعقيدتهم إلا تمسكا ، فعظم أمرهم ، ونظموا دعوتهم التى أصبحت ذات صبغة سياسية وجعلوها سرية تهدف إلى تقويض العرش الأموى ، وجعلوا مركزها الكوفة وخراسان ، وابتدأت تلك الدعوة السرية فى عهد « عمر بن عبد العزيز » الذى عرف بالعدل والتسامح مع أهل البيت ، وأبطل ما كان عليه أسلافه من تشجيع سب « على » وآله على المنابر ، وفى ذلك يقول الشريف الرضى أستاذ « مهيار » .

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين فتى من « أمية » لبكيتك
غير أنى أقول إنك قد طبت وإن لم يطب ولم يزك بيتك
أنت نزهتنا عن السب والقذف فلو أمكن الجزاء جزيتك

أما السبب فى اختيار الكوفة مركزا من مراكز الدعوة فلما ورد فى « تاريخ الأمم الإسلامية [١] » من أنها مهد التشيع لأهل البيت من قديم فيمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم — ثم لقربها من الموالى الذين وجدت منهم إصغاء ومعاضدة .

وأما السبب فى اختيار خراسان ورواج تلك الدعوة عند الموالى فلنتركه لتعليل محقق المؤرخين .

١ — يقول المرحوم الخضرى بك : — وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على امرين :

(١) المرحوم الخضرى بك

الأول ، أن فكرة التشيع يفهمها الخراسانى من المسلمين بسهولة لأن مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبى « صلى الله عليه وسلم » صاحب الرسالة وسيد الأمة ، وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذى يتوارثه أهل بيته ، ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك إلا إن كان ذلك عن اختلاس .

والثانى : أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديم ، ولذلك فائدة كبيرة فى حياة النفوس ، وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد فكان العنصر العربى بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ، ولا يتولى من ليس منهم شيئاً من الولايات العامة فكان أهل « فارس » مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة ، وإخراج الخلافة إلى الدولة المستقبلة ، كى يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم فى دولة بنى أمية ا — هـ

٢ — ويرى « المقريزى » سبباً آخر يتلخص فى أن الفرس بعد جلال الخطر ، وسعة الملك ، والسيادة على جميع الأمم — امتحنوا بزوال الدولة على يد العرب — أحقر أمــة فى نظرهم — فتعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة ، فلم يفلحوا فعملوا على الكيد له بالحيلة فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت ، واستبشاع ظلم « على » ثم سلكوا مسالك شتى حتى أخرجوهم من طريق الهدى .

وجاء فى فجر الاسلام « والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته كالذى كان فى المغرب قبل انتقال الفاطميين إلى مصر ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستاراً يخفون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم ، فاليهودية ظهرت فى التشيع فى قول بعضهم إن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إليـه ، وقالوا إن اللاهوت اتحد بالناسوت فى الامام ،

وأن النبوة والرسالة لا تنقطع أبداً فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي – وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الإسلام ا – ه

٤ – ويقول « السير وليم موير » في أثناء عرض حوادث الثورات في عهد « المعتصم » بأن محاكمة « الافشين [1] » أضاءت أمام الخليفة وحاشيته الطريق وأظهرت له ما كان هؤلاء المجوس يضمرون للإسلام ، وأن غالبية الفرس كانت تعتنق هذا الدين ظاهريا ، وكانت ترقب الفرصة للرجوع إلى دينهم ، وماثورة « بابك » والمبرقع الخراساني وغيرهما إلا دليل واضح على هذا المثل » .

٥ – ويقول صاحب الملل والنحل [2] ، بأن غلاة الشيعة متفقون على التناسخ والحلول ، ولقد كان التناسخ مقالة لفرقة من كل أمة تلقوها من المجوس ، والمزدكية والهند البرهمية .

ويقول في موضع آخر « المجوس يقولون » إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ، ومعرفة أحكامه وأوامره وطاعته إلى متوسط ، وهو يشبه الإمام عند الشيعة .

وجاء فيه « يقول زرادشت بظهور رجل في آخر الزمان يملأ الدنيا عدلا » وهو عين مقالة الشيعة في المهدى المنتظر .

٦ – وجاء في كتاب « الفاطميين في مصر [3] » ما يأتي :

أما عن تعلق الفرس بأهداب عقائد المذهب الشيعي أو حزب « على » فقد أوضح لنا الأستاذ « براون » (Browne) السبب الذى استمالهم إلى

---

(١) هو حيدر بن كاوس أحد قواد المعتصم وكان شديد العداوة للعرب ، وقد خرج على المعتصم نكاية في « عبد الله بن طاهر » بالانضمام إلى « مازيار » أمير طبرستان الثائر على الخلافة .

(٢) جـ ٢ ص ١٢ .

(٣) للدكتور حسن ابراهيم بك .

ذلك معتمداً على ما ذكره « جوبينو » فى هذا الصدد حيث يقول « إننى أعتقد أن جوبينو قد أصاب فيما قاله ، إن نظرية الحق الإلهى وحصرها فى البيت الساسانى كان لها تأثير كبير فى تاريخ الفرس فى العصور التى تلتها ، ولقد كانت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب ، غير أنها لا يمكن أن تظهر فى نظر الفرس إلا بمظهر ثورى غير مطابق لطبائع الأشياء ، أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهية التى أضمرها هؤلاء الفرس « لعمر » ثانى الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الأمبراطورية الفارسية ، وإن هذه النزعة وإن تسترت بستار الدين فلن يفوت الباحث تفهم سرها ومراميها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن « الحسين وهو » أصغر ولدى فاطمة بنت النبى وعلى بن عمه قد قالوا إنه تزوج من « شهر بانوه » ابنة « يزدجرد الثالث » آخر ملوك آل ساسان ، ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه الأثنى عشرية والأسماعيلية لا يمثلون حق النبوة فقط ، بل يمثلون الملك أيضاً لأنهم من سلالة النبى محمد وآل ساسان — ومن هنا تولدت هذه النظرية السياسة التى يشير إليها « جوبينو » فى العبارة الآتية حيث يقول « كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهى أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج وذلك بصفتهم المزدوجة لكونهم وارثى آل ساسان من جهة أمهم « بيبى شهربانوه » ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس ، والأئمة رؤساء هذا الدين حقاً » ا . هـ .

ومن ذلك كله يظهر لنا وفى جلاء السر فى اختيار الكوفة وخراسان مركزاً لدعوة المتشيعة والسر فى رواج تلك الدعوة فى فارس رواجاً أدى إلى نجاحها آخر الأمر حين انضاف إليه الوهن الذى أصاب البيت الأموى من جراء انقسامه على نفسه ، واستهتار بعض خلفائه .

غير أن سوء الحظ الذى لازم العلويين جعل ثمار تلك الجهود تنضج ليجنيها أقاربهم من بنى العباس إذ مات أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنيفة

مسموماً كما قيل بإيعاز من « سليمان بن عبد الملك » وهو الذى حين شعر بدنو أجله انتقل إلى « الحميمة » ضيفاً على بنى عمه من العباسيين، وأوصى بحقه فى الخلافة إلى أحدهم، وهو « على بن عبد الله بن العباس » الذى أوصى بها إلى ابنه « محمد العباسى » ومن هذا انتقلت إلى ولده « إبراهيم الإمام» فأخيه « عبد الله أبي العباس » أول خلفاء الدولة العباسية .

ولم يزل بزوال الحكم الأموى ما فى قلب الشيعة من إحن، فبقيت العداوة وإن تغير العدو ، لأن أولئك الذين ناصروا الأئمة من صلب على لم يشف غلتهم أن تنتقل الخلافة إلى بنى العباس الذين قابلوا إحسانهم إليهم بشر الجزاء .

ولقد لعب الشيعة دوراً هاماً فى تاريخ الدولة العباسية فى الكوفة وخراسان ثم فى فارس كلها وفى جهات من الجزيرة العربية، وإفريقية والشام ومصر ، بل فى العراق نفسه غير أن « المنصور » كان صلبياً فى مكافحتهم ، وقسا خلفاؤه فى مطاردتهم كلما ظهر منهم زعيم فى أى ناحية من نواحى الدولة . فقضى المنصور على « محمد النفس الزكية » ابن عبد الله بن الحسن ، وأخيه « ابراهيم » حين خرجا عليه « بالمدينة » و « البصرة » .

وفى عهد الرشيد أخمدت ثورة يحيى بن عبد الله بالديلم على يد « الفضل ابن يحيى » الذى صالحه وحصل له على أمان من الخليفة الرشيد ، وحضر يحيى إلى بغداد فى احتفال عظيم وأطنب فى ذكر ذلك الحادث الشعراء منوهين بفضل « الفضل » لتوفيقه بين بنى هاشم .

كالذى يقول :

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذى بين « هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت بداك بخطة ... من الحزم باق ذكرها فى المواسم

وقول الآخر :

عصمت حكومته جماعة هاشم ... من أن يجرد بينها سيفان

تلك الحكومة لا التي عن لبسها « عظم الدنيا وتفرق » الحكمان ،

ثم إن الرشيد أوغر صدره على يحيى التفاف الناس به ، فنقض عهده وقبض عليه وسجنه تحت رقابة « جعفر ابن يحيى البرمكي » .

وفى عصر المأمون « خرج « محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن الحسن ابن الحسن » بالكوفةوبعد موته خلفه « أبو السرايا » العلوى الذى أقلق بال المأمون حتى تغلبت عليه قوات الفضل بن سهل ، وبعد مقتله أظهر الخليفة المأمون نبلا عظيما بالصفح عن ولد هذا الثائر ، وإدخاله حاشيته .

وأخذ يظهر على العلويين عطفاً عاماً كان من أكبر مظاهره جعل ولاية عهده لعلوى سنة ٢٠١ هـ هو « على الرضا بن موسى الكاظم » من الأئمة الاثنى عشرية ، ومصاهرته ، ويرجع ذلك العطف ، وما تبعه من تصرفات إلى أن المأمون تربى تحت رعاية « جعفر البرمكى » الفارسى الأصل وكان على ما يروى – علوياً فى الباطن . عباسياً فى الظاهر ، فنشأه على ما كان يدين هو به من حب أهل البيت ، وتفضيل « على » على الخلفاء الراشدين ، كما يرجع إلى أن أم المأمون « مراجل » فارسية ، فرضع من ثديها ميول الفرس وعقائدهم فيما رضع . ولأن نصره على أخيه « الأمين » قد كتبه له الفرس بيراع سيوفهم ، ومداد دمائهم . ولأن وزيره الموثوق به عنده وهو « الفضل بن سهل » كان متشيعاً . فكأن « المأمون » كان يرمى من وراء هذا العمل : إلى تحقيق رغبة شخصية له ، وإرضاء فرس هو مدين لهم ، ويعرف ميولهم إلى أن يكون الخليفة علوياً ، ووزير . . . ذى دلال عليه شيعى .

ولكن إرضاءه للعلويين وشيعتهم قد أغضب عليه بنى العباس إغضاباً لم يسكنه عنهم إلا موت « على الرضا » ، وبموته ضاعت أسنح فرصة للشيعيين دون أن يغتنموها وبالرغم من غضب المأمون على العلويين أخيراً بسبب ثورة أحدهم عليه باليمن سنة ٢٠٧ هـ « فقد أوصى عند موته بهم أخاه « المعتصم » خيرا من إحسان صحبتهم ، والعفو عن مسيئهم .

وفى عهد المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) — خرج عليه علويان أحدهما بالكوفة وقد أخمدت ثورته سنة ٢٥٠ هـ والثانى بطبرستان والديلم ، وهو « الحسين بن زيد بن محمد » الذى انجلت ثورته عن إنشاء الدولة الزيدية التى عاشت أكثر من مائة عام (٢٥٠ — ٣٥٥ هـ) .

وفى عهد « أحمد المعتمد على الله » (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) توفى إمام العلويين الحادى عشر وهو « حسن العسكرى بن على الهادى » سنة ٢٦٠ هـ وخلفه طفله الصغير « محمد العسكرى » الذى خرجَ من بين أحضان أمه ذات يوم للبحث عن أبيه فلم يعد ، فحزن الشيعة عليه كثيراً ، وسموه المنتظر ، لأنهم ينتظرون عودته — من سرداب يزعمون أنه اختفى فيه — ليملأ الدنيا عدلا كما ملئتْ جوْرا .

وفى أواخر عهد المعتمد وعهد المكتفى — ظهر جماعة مغالون من الشيعة الاسماعيلية : عرفوا بالقرامطة . وكان مذهبهم يميل إلى الهدم والفساد .

ولم يزل الشيعة فى حروب لا تقف رحاها مع العباسيين ، ولم يزالوا مطاردين أينما ثُقِفُوا ، إلى أن قوى نفوذ « بنى بويه » من الديلم ، وقبضوا على ناصية الحكم فى بغداد فأصبح الشيعه قوةً مرهوبة تستطيع لو بسطت يدها أن تقبض على زمام الخلافة ببغداد لولا خوف ملوك البويهيين من أن يكون الخليفة علوى محبوب لدى العرب والموالى نفوذ يتضاءل أمامه نفوذهم .

أدب الشيعة

عرف زعماء الشيعة وأئمتهم ، وقادة مؤيديهم باللسن وقوة الجدل ، كأنما أشربت نفوسهم فيما أشربت فصاحةَ السيد الإمام — كرم الله وجهه — فساروا على نهج بلاغته ولهم فى الخطابة مواقف مشهودة ، وفى الكتابة عبارات مأثورة لا يتسع البحث لذكر شىء منها .

وكان للمتشيعة شعراء كما كان لهم خطباء وكتاب ، إلا أن الشعراء كانوا قلة ولا يحتاج ذلك إلى تعليل ، فهم قبل كل شيء أصحاب دعوة يجاهدون — ما وسعهم الجهاد — في سبيل نشرها وإقناع الناس بصدقها ، ولسان ذلك الخطب والرسائل لاعتمادهما — في مثل تلك الأحوال — على المنطق وقوة الحجاج ، واقتباس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وضرب الأمثال ؛ مما لا يقوم بنصره خيال الشاعر ، ولا تتسع له أوزان الشعر .

ويختلف هذا الإنتاج الأدبي في العصر الأموي عنه في العباسي — ففي الأول شمل كل ما جادت به قرائح الهاشميين من العلويين ، والعباسيين المناصرين لهم إذ ذاك . أما في الثاني فأصبح مقصوراً على ما أنتجه العلويون ، ويختلف تبعاً لذلك الأدباء المناقضون للشيعة فكانوا في الأول بني أمية ومناصريهم وفي الثاني بني العباس ومؤيديهم .

على أنه وإن يكن التشيع وبالا على العرب ودولتهم : صدع وحدتهم ، وفرق كلمتهم وجعلهم أحزاباً أذهب تطاحنها ريح المسلمين حتى طفق يحكم فيهم من دان بالحكم لهم — فقد كان له فضل على الأدب العربي أجل من أن يوصف ، لأن أقطاب الأدب العربي التشيعي قد انبرى لهم معارضون يناصرون الأمويين أولا ، كالأخطل ، والعباسيين أخيراً ، كمروان بن أبي حفصة ، ، وعلي بن الجهم ، وكانت المساجلات بين الفريقين عاملا كبير الأثر في تجويد الشعر والجنوح به إلى ناحية الحجاج المنطقي .

ولقد كانت صبغة أدب الشيعة حزينة ، تلمح من خلالها دموع الأسى وزفرات الحسرة ، رقيقة تنم عن قلوب رققتها شغفتها المصائب ، ذات تأثير سحري حتى في أشد أعدائهم لددا .

« يروى أن المتوكل حين وشي له بأحد أئمتهم ، وهو أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا ، قبض عليه وجيء به من « المدينة ،

وأحضر إلى مجلسه وكان الخليفة ثملا ، وقبل أن يفتك به ظهرت له براءته فاستنشده شعرا . فأنشد ذلك الإمام الورع قصيدة ما سمعها حتى أطلقه بعد أن أجزل عطاءه ، منها :

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم   غُلبُ الرجال فما أغنتهم القلل
واستُنزلوا بعد عز من معاقلهم   فأودعوا حُفراً يابئسما نزلوا
أضحت منازلهم قفرا معطّلةً   وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

وما ظنك أيها القارىء بأدب قوم ينظرون إلى أئمتهم وزعمائهم ممن تعلقت أرواحهم بحبهم وقد تحطمت أجسادهم على صفاة الاضطهاد الأموى والعباسى ، ويرنون إلى حقهم المقدس فى يد خليفة غاصب مستبد كما يرنو المسلوب إلى السَّلب ، لا يطمئنون إلى قرار ، وإن كثرت من حولهم الأنصار ، وإنها لعوامل مثيرات للخواطر ، مُحرّكات للعواطف — ما ظنك بهذا الأدب إلا أن تفيض عباراته بالدمع والشكوى والاستنجاد وذكرى الآلام ، يمتزجُ بكل أولئك نفحٌ من الاعتداد بالنفس ، والاعتزاز بالكرامة ، ولكنه اعتداد متهدج النبرات ، وديع النغمات . ومتى ارتفع صوت ضعيف مغلوب على حقه فى وجه غالبه المستبد بهذا الحق

ولقد كان الأدب الشيعى فى العصرين الأموى ، والعباسى الأول أدباً خائفاً كثيراً ما تستتر معانيه فى ظل من التعريض والتلميح ، لخوف أصحابه بطش الحكام ، ولهم فيما فُعلَ بأشياعهم عبرة .

ولا يخالج مفكراً قليل شك فى أن كثيراً من ذلك الأدب قد طُمرَ تحت أتربة العسف والإرهاب ولم يظهر منه زمن الأمويين والقرنين الأولين من حكم العباسيين إلا قليله من أمثال ما روى من شعر « الكميت » و « الفرزدق » فى العهد الأموى ، و « دعبل الخزاعى » فى العصر العباسى ، و « السيد الحميرى ممن شهدوا العصرين .

فلما أصبح الأمر بيد « بنى بويه » الديلميين المتشيعين (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ)

تحرر ذلك الأدب من قيوده ، وأمن من خوف ، فصرح بعد تعريض ، وكثر بعد قلة ، وكان حظ الشعر الشيعى من ذلك موفوراً فظهرت له مدرسة جديدة فى بغداد فى الرُّبع الأخير من القرن الرابع الهجرى وأستاذ تلك المدرسة هو الشريف الرضى الموسوى الشيعى إمام الطالبيين ، وأنجب طلاَّبها — غير مُنازَع — « أبو الحسن مهيار بن مرزوية الديلمى » موضوع هذا البحث .

كيف أصبح مهيار متشيعاً

إذا عرفت أن « مهيار » فارسىُّ العنصر ، أرستقراطى النزعة ، وأنه من أسرة ديلمية الأصل ، وأن بلاد الديلم قد اعتنق أهلها الإسلام على يد الحسن بن زيد ثم الحسن الأطروش ، وكلاهما زَيدىٌّ من غلاة الشيعة ، فتلقوا العقيدة الإسلامية ، وفى طياتها مبادىء التّشيع وتعاليمه فكانوا وإياها كما قال القائل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

لذلك رسخت الدعوة الشيعية ، وتغلغلت فى نفوس الديالمة إلى مدى عميق ، لاسيما وبلادهم قد أصبحت ملاذ بعض زعماء الشيعة أمثال « يحيى ابن عبد الله العلوى » الذى أشرنا إلى ثورته فى عهد الرشيد .

إذا عرفت ذلك ، ثم عرفت أنه ولد حوالى سنة ٣٦٥ هـ فى الوقت الذى سيطر فيه الديالمة المتشيعون من « بنى بويه » على مقاليد الأمور وسلطة الخلافة « ببغداد » .

وإنه كان مجوسىَّ العقيدة قبل اعتناقه الإسلام .

وأنه تلقى مبادىء تلك العقيدة السمحة على يد أستاذه « الشريف الرضى » زعيم العلويين ونقيبهم بعد أن درس بإرشاده فنون الشعر .

وأنه شاعر — قبل كل شىء ، يريد أن يستغل موهبته الشاعرة لدى

أولى الأمر من الأمراء والرؤساء والوزراء والكتاب والحجاب ، وهم فى جملتهم شيعة .

إذا عرفت كل أولئك أدركت — وفى غير عناء — السبب واضحاً فى اعتناق « مهيار » مذهب التشيع .

التشيع سبيله للاسلام :

قد تعجب إذا علمت أن الإسلام لم يكن سلم ذلك الرجل إلى التشيع ، وإنما كان تشيُّعُه مرقاته إلى إسلامه فقد مدح أمير المؤمنين وابنه الحسين ورثاهما قبل إسلامه بعامين سنة ٣٩٢ هـ بفائيته المشهورة التى مطلعها [١] :

يُزَوَّرُ عن «حسناء» زَوْرَةَ خائف ... تَعَرُّضُ طيفٍ آخر الليل طائفِ

ومنها :

جوى كلما استخفى ليخمد هاجه ... سنا بارق من أرض «كوفان» خاطف

يذكّرنى مثوى «على» كأننى ... سمعت بذاك الرزء صيحةَ هاتف

ركبتُ القوافى ردف شوقٍ مطيّةً ... تخبُّ بجارى دمعى المترادفِ

إلى غاية من مدحِه لو بلغتها ... هزأت بأذيال الرياح العواصف

وما أنا من تلك المفازة مدركٌ ... بنفسى ولو عرّضتُها للمتالف

ولكن تؤدّى الشُّهدَ إصبعُ ذائق ... وتعلق ريحَ المسك راحةُ دائف [٢]

بنفسى من كانت مع الله نفسه ... إذا قلّ يوم الحق من لم يجازف

ومنها فى مناقب على وبيان أحقيته بالخلافة :—

كفى يومُ «بدر» شاهداً و «هوازن» ... لمستأخرين عنهما ومزاحفِ

و «خيبرُ» ذاتُ [٣] الباب وهى ثقيلة المـ ... رام على أيدى الخُطُوب الخفائف

---

(١) بالديوان ج ٢ ص ٢٥٩ .

(٢) الدائف : خالط المسك بغيره من الطيب .

(٣) يشير إلى الباب الذى اتخذه «على» ترساً فى تلك الغزوة حين سقط ترسه ، فلما ألقاه بعد انتصاره عجز ثمانية من أصحابه عن قلب هذا الباب .

أبا حسن إن أنكروا الحق واضحاً … على أنه والله إنكار عارف
فإلا سعىَ للبَيْن أخمَصُ بازل … وإلا سمت للنعل إصبع خاصف
وإلا كما كنت ابن عم ووالياً … وصهراً وصنواً كان من لم يقارف[1]
أخَصَّك بالتفضيل إلا لعلمه … بعجزهم عن بعض تلك المواقف
نوى الغدر أقوام فخانوك بعده … وما آنف فى الغدر إلا كسالف
وهبهم سَفَاهاً صحفوا فيك قوله … فهل دفعوا ما عنده فى المصاحف ؟
سلام على الإسلام بعدك إنهم … يسومونه بالغدر خطة عاسف

ومنها فى مقتل الحسين بن على عليهما السلام :—

وجددها بالطف بابنك عصبة … أباحوا لذاك القرف[2] حكة قارف
يعز على « محمد » بابن بنته … صبيبُ دمٍ من بين جنبيك واكف
أجازوك حقاً فى الخلافة غادروا … جوامع[3] منه فى رقاب الخلائف
أيا عاطشاً فى موقف لو شهدته … سقيتك فيه من دموعى الذوارف
سقى غلتى بحر بقبرك إننى … على غير إلمام به غيرُ آسف
وأهدى إليه الزائرون تحيتى … لأشرُف إن عينى له لم تشارف
وعادو فذروا بين جنبىّ تربه … شفائى مما استحقبوا فى المخاوف
أسر لمن والاك حبٌّ موافق … وأبدى لمن عاداك سبٌّ مخالف

ويختمها بقوله :—

وما نسبٌ ما بين جنبىّ تالدٌ … بغالب ود بين جنبىّ طارف
وكم حاسد لى ود لو لم أعش ولم … أنابلْه فى تأبينكم وأسايف[4]
تصرفت فى مدحيكمو فتركته … يعض على الكف عض الصوارف[5]

---

(١) يقارف : يقارب ويدانى .
(٢) القَرْف : البغى .
(٣) الجوامع : الأغلال .
(٤) المنابلة : الرمى بالنبال ، والمسايفة : المجالدة بالسيوف .
(٥) جمع صارف وهو الناب .

— هواكم هو الدنيا ، وأعــلم أنه   يبيض يوم الحشر سود الصحائف

مناقشه تلك القصيدة :—

عرفنا أن مهيار قبل إسلامه بسبع سنين (سنة ٣٨٧) نظم قصيدته الميمية فى مدح الفرس وتعرضنا لتلك المدحة فى الكلام على شعوبيته ، ولمسنا فيها — حين جرح العرب — كيف استثنى السيد «المصطفى» ومدحه ، ومدح آل بيته الأخيار ،

قد يكون مهيار مداجيا فى تلك الميمية ، غير صادق فى مدح النبى وآله ولنا العذر إذا اتهمناه بالنفاق فقد يكون قصده بمدح نبىّ الدعوة تقوية حجته فيما نسبه إلى العرب من مطاعن ببيان غدرهم وإيذائهم له واعتدائهم على حقوق آله وقتلهم سبطه ليكون ذلك أبلغ فى تنقصهم .

وقد يكون مراده من هذا المدح المجاملة للشريف الرضى وهو صاحب أياد عليه ، أو إرضاء غيره «كالكافى الأوحد» . وقد يكون لمراعاة شعور المسلمين وفيهم أولوا الأمر من الديالمة يد فى ذلك المدح .

أما مالا نستطيع أن نتهم الشاعر بالنفاق فيه فهو تلك الفائية المتقدمة لاعتبارات عدة .

وأهم تلك الاعتبارات يستخلص من القصيدة نفسها ، إذ يبدو الرجل فيها ناضج فكرة التشيع ، معلنا رأيه فى صراحة لا تشوبها المواربة — فأسلوبها واضح ، والكلمة الواضحة بنت الفكرة الواضحة — كما يقول النفسيون . كما يبدو فيها «صادقَ العاطفة» ، «وصادق الحب يملى صادق الكلم» .

إن تلك القصيدة تفيض بالعطف على «الامام على» وذريته والألم لهضمهم حقهم فى الخلافة مع إظهار ناظمها غيظاً يميزه وحقداً يغلى فى صدره على الصّحابة لتفضيلهم العمرين وعثمان عليه ويعتبر ذلك غدْراً مُبَيَّتاً بَنَوْهُ — فى نظر الشاعر — على تبديلهم الأحاديث النبوية فى

تزكية على وبيان أنه وارث ولاية الأمر عن رسول الله ، وأنه باب مدينة العلم ، وأنه مولى من كان الرسول مولاه [١] ، وفاتهم أنهم إن حرفوا الأحاديث الشريفة ، ، فاهم بمستطيعي دفع ماورد عن الميراث فى التنزيل مما يثبت أن الإمام وارث الملك [٢] .

ثم يحزن « مهيار » على شهيد كربلاء حزن من فقدت واحدها ، مظهراً دهشه من جرأة القوم على قتله ، وأن خطبه يعز على جده — صلوات الله عليه — ويتمنى الشاعر أن لو شهد مصرعه ظامئاً ، فبل بدموعه الذوارف أوامه ، ثم يتشوق إلى قبر الشهيد الكريم مبيناً أنه لا يأسف على شىء إلا أن يحرم زيارته ، متمنيا التبرك به : أما بورود حوضه ، أو ... ترابه على جسده يأخذه من زوار القبر الذين كانوا يدخرون فى حقائبهم بعضه والذين كان « مهيار » يحملهم أمانة السلام إلى ساكن هذا الجدث الطاهر الذى نفحت بركاته ذلك التراب قدرة على شفاء الشاعر فى المخاوف .

ويخيل إلى أن مهيار قد أحس وهو ينظم تلك القصيدة بأنها ستفتح لخصومه عن مغامز فيه من تعصبه لفارسيته ، وعدم إسلامه ، فرد على ذلك — كأن قد — فى الأبيات الأربعة الأخيرة مبينا أن فارسية نسبه العتيق لا تعارض طارف هواه لأهل البيت ، وأنه بهذا الحب قد غاظ حساده الذين نابلهم وسايفهم وتركهم يعضون أيديهم ندما لعدم وقوفه فى صفهم ، وفى البيت الأخير ترى من الشاعر استعداداً لقبول دعوة الاسلام ، هو أشبه بالاستسلام ، إذ اعتبر حب النبى العزيز وأهل بيته خير ما يفخر به فى الدنيا ، وخير مايدخره لتبييض صحائف أعماله فى الآخرة .

---

(١) هذه الأحاديث وضعها الشيعة افتعالا لتأييد دعوتهم والتأثير على الموالى .

(٢) راجع ما قدمنا لك من بيان عقيدة الفرس فى الملك فى مقدمة هذا الباب .

ومن تلك الاعتبارات التى تبرىء تلك القصيدة من وصمة الرياء ، استقلالها بغرضها من مدح أهل البيت دون أى غرض آخر من تلك الأغراض التى تتطلب الملق ، أو التحيز .

كما أن الشاعر حقق صدق هذا الميل بإسلامه بعدها بمدة لا تتجاوز العامين

وهاتان المنظومتان « الفائية والميمية » ليستا وحدهما الدليل على أن « مهيار » هو مصباح هدايته إلى الإسلام ولكنّ هناك شَوَاهد أخرى أهمها قوله (١) فى رثاء أهل البيت وبيان ما أصاب من بركة بولائهم :—

لهف نفسى ياآل طه عليكم   لهفة كسبها جوى وخبالُ
وقليل لكم ضلوعى تهتزّ (م) مع الوجد أو دموعى تذالُ
كان هذا كذا ، وودى لكم حسـ   ـب ومالى فى الدين بعد اتصال
وطروى سود فكيف بى الآ   ن ومنكم بياضها والصقال
حبكم كان فكّ أسرى من الشر   ك وفى منكبى له أغلال
كم تزملت بالمذلة حتى   قمت فى ثوب عزكم أختال
بركات لكم محت من فؤادى   ما أمل الضلال عم وخال
ولقد كنت عالماً أن إقبا   لى بمدحى عليكمُ إقبال
لَكُمُ من ثناى مَاساعدَ العُمـ   ـر فمنه الإبطاء والإعجال
وعليكم فى الحشر رجحان ميزا   نى بخير لو يُحصَرُ المثقال
ويقينى أن سوف تصدق آما   لى بكم يوم تكذب الآمال

ألا ترى أن الشّاعر ينسُب كل ما أفاد من بركة ، وهداية ، وعزة ، وإقبال ، وطمأنينة يوم الحساب : إلى تعلقه بحب هؤلاء الكرام ، ويشير إلى أن حبه لهم وتفجعه عليهم كان قبل أن يربطه بالدين أى اتصال ، لا بل يعترف اعترافاً أخطر من كل ذلك فيقول بأن هذا الحب كان فكّ أسره من الشّرك بعد أن كان به مغلولا .

---

(١) ص ١٧ ج ٣ .

قد يعجب القارىء من تشيع الشاعر قبل إسلامه لما فى ذلك من مخالفة لمألوف السنن ، ولكن ظروف « مهيار » بالذات تبرره ، فالفرس بعامة والديالمة بخاصة كانوا — للأسباب التى أسلفناها — يحبون أهل البيت ، ولا يبعد أن تؤثر أكثريتهم المسلمة ، فى الأقلية التى لم تكن قد أسلمت بعد .

والصحبة الطويلة للشريف وحكاية مهيار له فى أدبه وسلوكه من شأنها أن تحبب إلى الشاعر أهل أستاذه ، ومجاراة أولى الأمر من البويهيين وغيرهم فى تشيعهم مما لا يستبعد من شاعر يعتمد على هؤلاء فى كسبه — على أن الأخطل فى العصر الاموى تشيع لبنى أمية وغالى فى مدحهم مع بقائه على نصرانيته .

كما أن التشيع مبدأ سياسى أكثر منه عقيدة إسلامية ولا سيما فى نظر الموالى ، فما كان من الشذوذ أبداً ، أن يتشيع « مهيار » لان رأيه أن يتولى أمر المسلمين بعد الرسول أهل بيته ، جرياً وراء النزعة الارستقراطية الفارسية — وأن يبقى مع ذلك على مجوسيته .

ومع كل ما احتملناه أو عللنا له يجب أن نلاحظ أن إقدام هذا الرجل على التشيع يعتبر خطوة طبيعية ، لما بين غلاة الشيعة ، والمجوسيين من تشابه فى العقيدة ذكرناه فى موضعه ، فاذا ما تلا ذلك خطوة أخرى للإسلام كان انتقالا متوقعاً لأن الشيعة مسلمون قبل كل شىء ، بل أن أمثال الكافى الأوحد ممن كانوا يعنون بأمره لم يفاتحوه فى اعتناق الإسلام إلا بعد أن لمسوا فيه ميلا إليه ، وإقبالا طَبَعِيًّا عليه .

أمثلة أخرى من شعر مهيار فى التشيع

عرفت مما سلف أن تشيع « مهيار » لم يجىء طفرة ، ولكنه كان نتيجة اختلاط وصحبة ، ووراثة ونشأة ، وجرياً على مذهب أهل عصره ، ومبدأ بنى جنسه ، ومن ربطتهم به أواصر الجنسية والوطنية ، ودراسة الآداب العربية .

والظاهر أن تشيعه قد شب معه، وأخذ ينمو إلى جانب نموه، فكان كلما تقدمت به السن — زاد به التعلق بأهل البيت، وبقدر هذا الحب لهم كان البغض لغيرهم ممن استأثروا بالخلافة دونهم، وكما مدح الأولين هجا الآخرين، وسنسوق إليك أمثلة مختلفة لنوقفك على مدى تغلغل تلك العقيدة فى نفسه.

فمن ذلك ماجاء فى إحدى مراثيه لآل «على» من قوله (١)

بآل «على» صروف الزمان ... بسطن لسانى لذم الصروف
مصابى — على بُعد دارى — بهم ... مصاب الأليف بفقد الأليف
وليس صديقى غير الحزين ... ليوم «الحسين» وغير الأسوف
هو الغصنُ كان كميناً فهب ... لدى «كربلاء» بريح عصوف
قتيل به ثار غل النفوس ... كما نغر الجرح حك القروف (٢)
بكل يد أمس قد بايعته ... وساقت له اليوم أيدى الحتوف
يعز على ارتقاء المنون ... إلى جبل منك عال منيف
ووجهك ذاك الأغر التريب ... يشهَّر وهو على الشمس موفى

ومنها يخاطب «الحسين» معدداً مناقب أبيه الإمام:

وأنت وإن دافعوك الإمام ... وكان أبوك برغم الأنوف
لمن آية الباب يوم اليهود ... ومن صاحب الجن يوم الخسيف (٣)
ومن جمع الدين فى يوم بدر ... وأحد بتفريق تلك الصفوف
وهدم فى الله أصنامهم ... بمرأىً عيون عليها عكوف
أغيرُ أبيك إمام الهدى ... ضياء الندى هزبر العزيف (٤)

---

(١) بالديوان جـ ٢ ص ٢٦٣.

(٢) نَغَرَ الجرح: أسال دمه، والقروف: القشور تعلو الجرح.

(٣) يشير فى الشطر الأول إلى ما أظهره «على» من الشجاعة فى فتح باب حصن خيبر. وفى الثانى إلى ذلك اليوم الذى ظمىء فيه جنود رسول الله يوم الحديبية، ويعتقد الشيعة أن عليا حصل لهم على الماء من بئر ذات العلم بعد أن حارب الجن على حين عجز غيره، ومعنى الخسيف البئر تحفر فى صخر فلا ينقطع ماؤها لكثرته.

(٤) العزيف: صوت الرمال تسفوها الرياح.

أمرَّ بفيَّ عليكَ الزلال ... وآلمَ جلدىَ وقعُ الشفوف
أتحمل فقدك ذاك العظيم ... جوارحُ جسمىَ هذا الضعيف
كأنَّ ضريحك زهر الربيع (م) ... هبَّت عليه نسيم الخريف
أحبُّكم ما سعى طائفٌ ... وحنَّت مطوقةٌ فى الهتوف
وإن كنت من فارس فالشريـ ... ـف معتلق حبه بالشريف

° ° °

ولعل أجودِ علويات ، مهيار ، عَينيَّته التى مطلعها : (١)

هل بعد مفترق الأظعان مجتَمع ... أم هَل زمانٌ بهم قدفات يُسترجع

ومنها :

فداء وافين تمشى الوافيات بهم ... دَمعٌ دم ، ومَحشاً فى إثرهم قِطع
الليل بَعدَهمو كالهجر متصل ... ما شاء ، والنوم مثل الوصل ممتنع

° ° °

وعاذل لج أعصيه ويأمرنى ... فيهم وأهرب منه وهو يتبع
يقول نفسكَ ، فاحفظها فإن لها ... حقاً وإن علاقات الهوى خدع
روح حشاك ببرد اليأس تسل به ... ما قيل فى الحب إلا أنه طمع
والدهر لونان والدنيا مقلبة ... الآن يعلم قلبٌ كيف يرتدع

° ° °

هذى قضايا رسول الله مهملة ... غدراً وشمل رسول الله منصدع
والناس للعهد مالاقوا وما قربوا ... وللخيانة ما غابوا وما شسعوا
وآله وهُمُو آل الإله وهم ... رُعاة ذا الدين ضيموا بعده ورُعوا
ميثاقه فيهم ملق وأمَّـته ... مَعْ من بغاهم وعاداهم به شِيَع

ومنها فى بيان أحقية على بالخلافة من سابقيه الذين يصفهم الشاعر بالغدر :

---

(١) الديوان جـ ٢ س ١٨١ .

وقائل لى « على » كان وارثه　　بالنص فيه فهل أعطوه أم منعوا ؟
فقلت كانت هَنَات لست أذكرها　　يجزى بها الله أقواماً بما صنعوا
أطاع أولُهم فى الغدر ثانيَهُم　　وجاء ثالثُهم يقفو ويتبع

يشير بذلك إلى ما جاء فى إحدى خطب على بنهج البلاغة، وفيها ينسب إليه أنه صرح بأن أبا بكر قد تقمص الخلافة وهو يعلم أن محل الأمام منها محل القطب من الرَّحَى ، ثم أدلى بها إلى عمر من بعده ، ثم جعلها عمر فى ستة زعمه واحدا منهم ، فمال بعضهم لضغنه ، ومال الآخر لصهره ، إلى أن قام ثالث القوم « يريد عثمان » نافجا حِضْنيه بين نثيله ومعتلفة(١) والخطبة مفتعلة لأن فيها تجريحا صريحاً للصحابة تنزه عنه « ابن أبى طالب » .

وبعد ذلك يتعرض « مهيار » للشورى فيصفها بالبطلان لغيبة « على » « وابن عباس » ، وغيرهما عن حضور مجلسها ، فى أسلوب حجاجى طريف :

قفوا على نظر فى الحق نفرضه　　والعقل يفصل والمحجوج ينقطع
بأى حُكْم بنوه يَتْبَعُونَكُمُو　　وفخركم أنكم صحب له تبع
وكيف ضاقت على الأهلين تربته　　وللأجانب من جنبيه مضطجع
وفيم صَيَّرتمُ الإجماع حُجَّتَكُمْ　　والناس ما اتفقوا طوعاً ولا اجتمعوا
أمر « على » بعيد عن مشورته　　مستكره فيه ، والعباس يمتنع
وتدعيه « قريش » بالقرابة والأ (م)　　نصار لا رُفع فيه ولا وُضع(٢)
فأى خلف كخلف كان بينكم　　لولا تلفق أخبار، وتصطنع

ثم يعرض لمن قالوا بأحقية على بالخلافة بعد رسول الله، ثم عادوا فانحازوا إلى جانب أبى بكر :

إنكارهم يا أمير المؤمنين لها　　بعد اعترافهم عارٌ به ادَّرَعُوا

---

(١) نهج البلاغة بتصرف .

(٢) يشير إلى البيتين الآتيين — وينسبان خطأ إلى على ، وهما موجهان إلى أبى بكر :

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم　　فكيف بهذا والمشيرون غُيَّبُ ؟
وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم　　فغيرك أولى بالنبى وأقرب

نكثتهم بك ميلا عن وصيته شرع لعمرك ثان بعده شرعوا
تركت أمرا ولو طالبته لدرت معاطس راغمته كيف تجتدع
صبرت تحفظ أمر الله ما اطرحوا ذبا عن الدين فاستيقظت إذ هجعوا

والشاعر في البيتين الأخرين يستمد معناهما من رد «على» على أبي عبيدة حين جاءه برسالتي أبي بكر وعمر يدعوانه إلى البيعة للصديق ، وفي هذا الرد يقول الإمام ، فقد عكفت على عهد الله[1] أنظر فيه وأجمع ما تفرق منه رجاء ثواب معد لمن أخلص عمله وسلم لعلمه ومشيئة ربه ..... وفي النفس كلام لو لا سابق قول ، وسالف عهد ، لشفيت غيظي بخنصري وبنصري ، وخضت لجته بأخمصي ومفرقي ، لكنني ملجم إلى أن ألقى ربي «عز وجل» وعنده أحتسب ما نزل بي .) ا — ه .

وبعد ذلك يبين « مهيار » في الأبيات الآتية أنه إن فاته المجالدة بالسيف دفاعاً عن حق أمير المؤمنين ، لتأخر الزمان به ، فما فاته المجاهدة بالقول ، ذبا عن ذلك الحق ، وتشهيراً بغاصبيه مبينا أن اللسان انفذ من السنان ، ثم يفخر في الختام على عادته بأنه فارسي الأصل ، عربي الدين ، وبأنه يفع على حب «على» حتى أنار له ذلك الحب المحجة إلى الإسلام بعد أن محا ظلمات شكوكه ، وبأنه من الجنس الذي أنجب «سلمان الفارسي» الذي كان في الصف الأول من المناصرين لأمير المؤمنين الرابع ، وفي هذا شفاعة للشاعر مما بدر منه من فرطات قبل إسلامه .

جاهدت فيك بقولي يوم تختصم الأ (م) بطال إذ فات سيفي يوم تمتصع[2]
إن اللسان لوصال إلى طرق في القلب لا تهتديها الذبل الشرع
آباي في فارس والدين دينكم حقاً لقد طاب لي أس ومرتبع
لازلت مذ يفعت سني ألوذ بكم حتى محا حقكم شكي — وأنتجع

(١) عهد الله : يقصد به القرآن الكريم .
(٢) تمتصع : تتجالد بالسيف .

وقد مضت فرطات إن كفلت بها فرقت عن صحفى الباس الذى جمعوا
«سلمان» فيها شفيعى وهو منك إذا الآ (م) باء عندك فى أبنائهم شفعوا

ثم يستنجد بالسيد الإمام لينقذه من هول مطلعه فى الحشر جزاء ما قدم من أمداح وما احتمى به من شفيع ، معتقداً أنه لابد منتفع بمذخوره من حب الإمام ، أما الأمل فى الانتفاع بحب سواه فخداع للنفس .

فكن بها منقذاً من هول مطلعى غداً وأنت من «الأعراف» مطلع (١)
سولت نفسى غروراً إن ضمنت لها أنى بذخر سوى حبك أنتفع

وقبل أن ننتقل إلى مثال جديد من شعره التشيعى ، يحسن أن نعرض للمطاعن التى تذرع بها المعارضون «لمهيار» ، وأكثرهم من أهل السنة ، وكان فيهم الخطباء والشعراء ، وكما عرف مهيار بأنه شاعر الشيعة ، فقد عرف «على ابن عيسى السكرى» بأنه شاعر السنة ، ويعلل لتلك التسمية «ابن الأثير» بكثرة مدحه الصحابة ، ومناقضاته شعراء الشيعة ، وورد عنه «فى تاريخ بغداد» أنه ولد سنة ٣٥٧ هـ وتوفى سنة ٤١٣ هـ ، وأنه من علماء الكلام ، والمتفننين فى الأدب ، وأن له ديوان شعر كبيراً فى مدح الصحابة والرد على الرافضة وغيرهم من الشيعة ، وقد عمر السكرى سبع سنين بعد وفاة «الشريف الرضى» ، ومعنى ذلك أنه عاصر مهيار فترة طويلة .

وكانت مطاعن خصومه عليه تحوم — زيادة على ما أسلفنا من نسبه غير العربى ، وأصل دينه المجوسى — حول اتهامه بالكفر بسبب ذمه الصحابة ، ومبالغته فى وصف أهل البيت بما يرفعهم أحياناً عن مستوى البشرية ؟ وبأنه مداح فى مدحه إياهم .

وقد اضطر الرجل أن يدفع عن نفسه تلك التهم بأنه فارسى الأصل مجيد الماضى ، وبأنه قد شرف بالاسلام الذى لولاه لبقيت لقومه السيادة على العرب وبذلك يمزج تشيعه بشعوبيته . وأنه بحبه آل البيت لم يخرج عن أسس الإسلام فلم يبدل فى كلمات الله ، ولم يحابه رسله ، فاتهام معارضيه له محض اختلاق .

---

(١) الاعراف : سور بين الجنة والنار

وكثير من تلك التهم والرد عليها يبدو فى قوله من قصيدة يمدح بها كمال الملك — ومنها :

قسا فأصبح للواشــين بى أذناً | تليق ما اختلقوا عنى وما اجتلبوا
لو قيل إنى سرقت السمع أو صرفوا | إلىّ تبــديل دين الله أو نسبوا
لما امترى أن رسل الله بى جبهوا | بالرد، أو حرفت عن أمرى الكتب

. . .

وترى رده على تلك الاتهامات أوضح فى قصيدته اليائيـة فى مدح أهل البيت ، وقد قالها حين بلغه أن بعض حاسديه ينكر مدحه إياهم ، ويدعى عليه أنه بما يظهر من المخالفة فى الأصول لا يجوز أن يخلص فى مدحهم ، وقد بدأها الشاعر بالغزل فى أولها ، ثم ذكر مناقب «على» ومواقفه: يوم الغدير واحد وحنين وخيبر ، وتغلبه على عمرو بن العاص وذِكْر حرب «صفين» وبيان أن عليا أحق بالتميز عند النبي لأنه فوق صلاته به قَبلَ — بنومه على فراشه ليلة هجرته — أن يكون فداءه ، ثم يتمنى «مهيار» أن يفدى بنفسه من أبناء على القمرين (الحسن والحسين) وبعد ذلك كله يقول تأييدا لما سقناه فى الرد على أولئك الطاعنين :

هـل يبلغنك يا أبا الحسن الذى | جوزيت فيك وكان ضدٌ جزائيا
من معشر لما مدحتك غيظتُهم | فتنا وشواعرضى وشنأُوا شانيا
اسمع — ليُنصفنى انتقامك إنهم | بالجور راضونى بحبك شاكيا
لما رأوا ما غاظ منى شـنعوا | حاشاك أنى قلت فيك مداجيا
لا كان إلا ميتـاً ميثاقه | من سره أن كان بعـدك باقيا
والله ينصب لعنـه وعذابه | من قال فيك ومن يقول مرائيا
والحق لم أطلب بمدحك شـكرهم | فيسومنى أن يجعـلوه مرائيا

° ° °

بالقرب منك يهون عندى منهم | من كان بى برا فأصبح جافيا

وبعد ذلك يؤكد الشاعر أنه سيستمر فى أمداحه تلك برغم أنف الطاعنين وسيجعل معانيها فى قوة الجبال ، وقوافيها فى جلاء النجوم ، لأنه يرى ذلك الثناء لقاء فضل أهل البيت على بلاد الديالمة الفارسية فهم الذين نشروا فيها هدى الإسلام ، ويصرح الشاعر بأن هذا الثناء يقتضيه المحبة والتعصب لعلى وآله :

وبرغمهم لأسيرنها شرَّداً ... ولأتبعن منها بديئا تاليا
غرا ، أقد من الجبال معانيا ... فيها وألتقط النجوم قوافيا
شكر الصنعك عنده فارس، أسرتى ... وبما سلمت تفاؤلا وأياديا
وتعصبا ومودة لك صيرا ... فى حبك الشيعى من إخوانيا

° ° °

على أن مهيار لم يعبأ باتهام القوم له بالإلحاد بسب الصحابة ، والمبالغة فى مدح أهل البيت ، وغير ذلك مما أخذوه عليه . وإنما رد تلك التهم إلى أصحابها متبعا نفس أسلوبهم ، ولم يكن فى ردوده عليهم مغالطا وإنما كان يرد عن عقيدة ثابتة بأنه على الحق وخصومه على الباطل موقنا أن فى إخلاص حبه لآل النبى مرضاة لله ورسوله ، فوق مرضاة ضميره .

والرجل معذور فى ذلك ، لأن أحقية آل بيت الرسول بالخلافة — دون سواهم — يعتبر أبسط الحقوق الواجبة لهم حتى عند الشيعى المعتدل .

ولأنه أسلم بعد أن نضجت مبادىء التشيع ، واستقرت تعاليمه مستندة إلى النقل فى التدليل ، وأكثره من الحديث الشريف — بعد أن عبثت بما استشهد به منه يد الافتعال والتأويل ، والاضافة والتبديل ، فآمن صاحبنا كما آمن غيره بصحته متهما بالكذب كل ما عداه .

ولا أود أن أطيل — والمقام هنا ضيق — فى سرد الشواهد الطوال من شعره فى التشيع مكتفيا بما تمس الحاجة إليه :—

كقوله من إحدى لامياته فى أهل البيت وذكر مناقب على، والتعريض بيوم «السقيفة»، وبنى أمية [١] :ـــ

سل المتحدى بهم فى الفخا ... ر أين سمت شرفات العلا ؟
بمن باهل الله أعـداءه ... فكان الرسول بهم أبهلا ؟
وهذا الكتاب وإعجازه ... على من وفى بيت من نزلا ؟
«وبدر» وبدر به الدين تم (م) ... من كان فيه جميل البلا ؟
ومن نام قوم سواه وقام ... ومن كان أفقه أو أعدلا ؟
مساع أطيل بتفصيلها ... كفى معجزاً ذكرها مجملا ؟
أألله ياقوم يقضى النبى ... مطاعا فيعصى وما غسلا
ويوصى فنخرص دعوى عليه (م) ... فى تركه دينه مهملا
ويجتمعون على زعمهم ... وينبيك «سعد» بما أشكلا [٢]
فيعقب إجماعهم أن يبيت (م) ... مفضولهم يقدم الأفضلا
وأن ينزع الأمر من أهله ... لأن «عليا» له أهلا
أضاليل ساقت مصاب الحسين ... وما قبل ذاك وما قد تلا
أمية لا بسة عارها ... وإن خفى الثأر أو حصلا
فيوم السقيفة ياابن النبى ... طرق يومك فى كربلا
وغصب أبيك على حقه ... وأمك حسن أن تقتلا [٣]

وفى آخر القصيدة يتجه الشاعر إلى أهل البيت معلناً ولاءه الدائم ومستنصرا بهم فى الآخرة ـ بعد أن يبين أنهم أصحاب الفضل فى إسلامه، وأنه عدو من عاداهم :ـــ

---

(١) جـ ٣ ص ٤٩ .
(٢) هو سعد بن عبادة .
(٣) يقصد بغصب أمه حقها الى الاشارة الى أن « أبا بكر » حرمها حقها من ميرات النبي عليه السلام فى فدك وغيرها محتجا بقول الرسول « نحن معاشر الأنبياء لانورث، ما تركناه صدقة » .

لكم آل ياسين مدحى صفا ... وودى حلا ، وفؤادى خلا
وعندى لأعدائكم نافذات (م) قولى ما صاحب المعقولا
وهلا ونهج طريق النجاة ... بكم لاح لى بعد ما أشكلا
وفك من الشرك أسرى وكا ... ن غلا على منكبى مقفلا
عليكم ما جرت مزنة ... وما اصطخب الرعد أو جلجلا
وأبرأ ممن يعاديكم ... فإن البراءة أصل الولا
ومولاكم لا يخاف العقاب ... فكونوا له فى غد موئلا

وكقوله من لاميته المشهورة التى مطلها : (إن كنت ممن يلج الوادى فسل) وهى طويلة تبلغ مائة وأحد عشر بيتاً ، وهى حافلة بالمعانى فى شتى الأغراض وسنشير إلى أهمها ، ولقد كان نظمه إياها بعد أن أدركه المشيب فتحسر فى أولها على شبابه ، ونصب من نفسه لنفسه واعظاً ثم أخذ يصف أهل البيت ، ويعرض الحوادث التاريخية التى وقعت فى عهد الخلفاء الثلاثة وهنا نراه يصرح باتهام الصحابة بالكفر والنفاق لأنهم جاملوا علياً واعترفوا بفضله فى عهد رسول الله حتى إذا انتقل إلى الرفيق الأعلى — دافعوه عن حقة ، وفى ذلك الاتهام يقول [1] :—

وما القوم نافقوا محمداً ... عمر الحياة وبغوا فيه الغيل
وتابعوه بقلوب نزل الفرقان فيها ناطقا بما نزل
مات فلم تنعق على صاحبه ... ناعقة منهم ولم يرغ جمل
ولا شكا القائم فى مكانه ... منهم ولا عنفهم ولا عذل
ما ذاك إلا أن نياتهم ... فى الكفر كانت تلتوى وتعتدل

ثم يلوم « أبا بكر » و « عثمان » و « عائشة » ومن أغروها بالخروج لحرب « على » ويعد ذلك كشفاً لستر النبى المنسدل عليها [2] — ويؤنب

---

(١) بالديوان ج ٣ ص ١١٣ .

(٢) أخذ ذلك المعنى من خطاب « أم سلمه » الذى أرسلت به لعائشة تنصحها بلزوم قبة بيتها وذلك قبيل واقعة الجمل .

من بايعوا عليا ثم تخلو عنه من أمثال « طلحة والزبير » ثم يذكر ما كان من أمر « معاوية » و « يزيد » وأنهما سلكا سبيل من تقدمهما من الخلفاء فى الاعتداء على حقوق « على » وآله غيرة وحسداً ، وفى يزيد وأبيه يصرح بالسباب إذ يقول :

وما الخبيثان « ابن هند وابنه ... وإن طغى خطبهما بعد وجل
بمبدعين فى الذى جاءا به ... وإنما تقفيا تلك السبل
إن يحسدوك فلفرط عجزهم ... فى المشكلات ولما فيك كمل
الصنو أنت والوصى دونهم ... ووارث العلم ، وصاحب الرسل
ورجعة الشمس عليك نبأ ... تشعب الألباب فيه وتضل

وفى آخر تلك اللامية يجرى « مهيار » على عادته فى بيان ولائه الذى لاحد له لأهل البيت ويعرض بأن ذلك أكثر من خصومه الذين لم يعبأ بهم مادام قد كسب رضا ممدوحيه الأخيار ، ثم يبين أنه باعتباره فارسيا قديم العلاقة بعلى وأبنائه فى شخص « سلمان الفارسى » فله الفخر بأن يرتبط بهم من جهتين : المودة القديمة ، والدين الجديد ، وإن تعجب فعجب من أن ذلك الشاعر الشعوبى المتعصب يحمله تمكن التشيع من نفسه على أن يرى أنه قد فضل آباءه الأكاسرة بفضل انتمائه إلى آل بيت النبى ، فهو لذلك ينظم القصائد فى إطرائهم وكأنها قد صيغت — من حديد — سيوفا ونبالا يرمى بها أعداءهم فلا يخطىء الرمية ، وهذا كله يكشف لنا عنه قوله :

عاديت فيك الناس لم أحفل بهم ... حتى رمونى عن يد إلا الأقل
تفرغوا يعترقون غيبة ... لحمى وفى مدحك عنهم لى شغل
عدلت أن ترضى بأن يسخط من ... تقله الأرض على فاعتدل
ولو يشق البحر ثم يلتق ... فلقاه فوقى فى هواك لم أبل
علاقة بى لكم سابقة ... لجد « سلمان » إليكم تتصل
تضمنى من طرفى فى حبكم ... مودة شاخت ودين مقتبل

فضلت آبائى الملوك بكم ... فضيلة الإسلام أسلاف الملل
لذاكم أرسلها نوافذا ... لأم من لم يتقيهن الهبل
يمرقن زرقا من يدى حدائداً ... تنحى أعاديكم بها وتنتبل
صوائباً إما رميت عنكم ... وربما أخطأ رام من ثعل [١]

وقصيدة أخرى لمهيار فى التشيع وهى دالية من «المتقارب» نتمثل للقارىء بشىء منها لأهميته فى تأييد ما استنبطناه ·

فمنها فى مدح رسول الله — صلواته تعالى عليه — وآله :

لئن نام دهرى دون المنى ... وأصبح عن نيلها مقعدى
ولم أك أحمد أفعاله ... فلى أسوة ببنى أحمد
بخير الورى ، وبنى خيرهم ... إذا ولد الخير لم يولد
وأكرم حى على الأرض قام ... وميت توسد فى ملحد

° ° °

ألا سل قريشاً ولم منهم ... من استوجب اللوم أو فند
وقل مالكم بعد طول الضلال (م) ... لم تشكروا نعمة المرشد ؟
أتاكم على فترة فاستقام ... بكم جائرين عن المقصد
وولى حميداً إلى ربه ... ومن سن ما سنه يحمد

° ° °

وقد جعل الأمر من بعده ... «لحيدر» بالخبر المسند
وسماه مولى بإقرار من ... لو اتبع الحق لم يجحد

فأنت تراه فى ذلك مؤمناً الإيمان كله بأن النبى — عليه الصلوات — قد أوصى بالخلافة لعلى مستنداً إلى أحاديث نبوية لا يشك فى صحة سندها، وإن كان أكثرها — فى الحق — موضوعاً لمناصرة عقيدة الشيعة ، ثم تراه فى البيتين الآتيين .

---

(١) ثعل : قبيلة مشهورة بالرماية .

فلتم بها — حسد الفضل — عنه ومن يك خير الورى يحسد
وقلتم بذاك قضى الاجتماع ألا إنما الحق للمفرد

لا يحترم إجماع المسلمين على انتخاب خليفة غير « على » ، ويعتبر ما حدث ميلا عن الصواب أدى اليه حسدهم للامام.

ثم يستطرد فى هذا الغرض مبينا أن حق الخلافة ميراث أصحابه الشرعيون أبناء على الذين أصبحوا مطاردين مضطهدين مما ترتب عليه ضعف الدين واعتلاله فيقول :

وأرث علـــى لأولاده إذا آية الإرث لم تفسد
فمن قاعد منهم خائف ومن ثائر قام لم يسعد
تسلط بغياً أكف النفاق منهم على سيد سيد
أبوهم وأمهم من علمت فانقص مفاخرهم أو زد
أرى الدين من بعد يوم الحسين عليلا له الموت بالمرصد

ثم يتمنى أن لو كان دمه فداء لدم الحسين مع الفارق بين الدمين :

فداؤك نفسى ومن لى بذاك (م) لو أن مولى بعبد فدى
وليت دمى ما سقى الأرض منك يقوت الردى وأكون الردى
وليت سبقت فكنت الشهيد أمامك يا صاحب المشهد

ثم يظهر الشماتة فى « بنى أمية » بما أصابهم من زوال الملك عنهم إلى بنى العباس ، وإن كان ذلك لم يشف غلة الشاعر الذى لا يرضيه إلا أن تكون الخلافة للعلويين :

عسى الدهر يشفى غدا من عدا ك قلب مغيظ بهم مكمد
عسى سطوة الحق تعلو المحال عسى يغلب النقص بالسؤدد
وقد فعــل الله لكننى أرى كبدى بعد لم تبرد

وفى آخرها يكرر « مهيار » اعترافه بفضل تشيعه فى إسلامه ، وإعلاء شأنه إذ يقول :

وفيكم ودادى ودينى معاً وإن كان فى « فارس » مولدى
خصمت ضلالى بكم فاهتديت ولولا كمُ لم أكن أهتدى
وجردتمونى ، وقد كنت فى يد الشرك كالصارم المغمد

° ° °

ويظهر أن مهيار كان متأثراً بما يقال من أن « الحسين » قد تزوج من « شهربانوه » ابنة يزدجرد وإن لم يشر إلى ذلك فى شعره ، لأن خير شعره التشيعى ما جاء فى رثاء الحسين بن على ومن أرقى ما قاله فى حادث مقتله وأبكاه :

ربع همى عليهم طلل با ق ، وتبلى الهموم والأطلال
وشهيد « بالطف » أبكى السموا ت وكادت له تزول الجبال
يا غليلى له وقد حرم الما ء عليه ، وهو الشراب الحلال
قطعت وصلة النبى بأن تقطـع من آل بيته الأوصال
لم ينج الكهول سن ولا الشبـان زهد ، ولا نجا الأطفال

وقد يكون لشناعة الحادث وموت سبط النبى ظمآن ، وما صحب الحادث من تنكيل بالشيوخ وطواهر النساء ، وتقتيل الأطفال أثر فى إكثار الشعراء — ومنهم مهيار — فى وصفه واستبشاعه .

أثر التشيع فى عقيدة مهيار وشعره

مما قدمناه لك من أمثلة يتبين أن « مهيار » كان شيعياً متطرفاً متعصباً ، وأنه كان متأثراً بتعاليم الشيعة التى راجت فى فارس وبلاد الديلم بخاصة على يد الحسن بن زيد والأطروش .

وأنه كان يعتقد أن هذا الولاء منه لأهل البيت منجاة له من النار وشفيعه يوم القيامة ، وأنه بالرغم من إسلامه بقى هدفاً لطعنات خصومه وأكثرهم من أهل السنة لكثرة ما هجا به الصحابة حتى رأى « ابن برهان » أنه بإسلامه قد انتقل فى النار من زاوية إلى زاوية .

على أن ذلك السباب لصحابة رسول الله — مما عرضنا عليك أمثلة منه — لا يمكن أن يقر الشاعر عليه الشرع الإسلامى الحنيف، ولا أهل البيت الذين احتمى بهم.

كما يؤخذ على الشاعر عدم احترامه للإجماع.

أما أثر التشيع فى شعره فيتلخص فى:

١ — أنه صبغ أشعاره بصبغة الحنين والشكوى والعتاب، فكثرت شكايته من الزمان والإخوان.

٢ — جعله مكثراً فى المدح ليحتمى بممدوحيه من خصومه، ويقرب هذا إلى الذهن أن جميع ممدوحيه يكادون يكونون من الشيعة، ومن جد النادر مدحه غيرهم.

٣ — ساعد تشيعه على أن يكون شاعراً هجاء، ولكن فى عفة لفظ، أما هجاؤه فراجع إلى ماجره إليه التشيع من أعداء عمدوا إلى تجريحه واتهامه بالإلحاد والكفر، فاضطر إلى الرد على هؤلاء بنافذات من لسانه كان وقعها على قلوب الخصوم أشد من السهام فى غلس الظلام، وأما عفة أهاجيه — على الرغم من قوتها — فراجعة إلى طول صحبته للشريف الرضى، قطب الشيعة فى زمنه، وهو من عرف بالهيبة والورع، وعفة اللفظ حتى فى مواطن الهجو.

٤ — وسع التشيع أفق مهيار العلمى لأن مجادلته أهل السنة، وتعلقه بعقيدته حملاه على الدرس والاطلاع والإلمام بكثير من العلوم الشرعية واللسانية والتاريخية بدت بصورة واضحة فى شعره، وكان لها أكبر الأثر فى طول نفسه، واتساع محيط خياله.

٥ — وفوق ذلك كان التشيع عاملا مقويا لشعوبيته، لأنه تحت ستار التشيع أمكنه — مع استثناء النبى وأهل بيته — أن يحقر من شأن العرب — فى غير حرج، وأن يرفع من شأن الفرس فى غير حياء ولا قصد.

المديح والتهنئة

المدح موجود منذ خلق الله المكرمات وليس يخلو جيل من المداحين إلا إذا خلا من السماح والمروءة والشجاعة والمعونة وما إليها من حميد الخصال وطيب الفعال — أما ما يصح أن يكون موضع أخذ ورد، وجزر ومد، وعدم ووجود، فهو اتخاذ المدح للكسب وسيلة فالأمة الغنية بمواردها . المغمورة بثروتها والتي لا تعرف البطالة سبيلا إلى أبنائها يندر أن تجد فيها متكسبا بأدبه معتمدا على لسانه فى جلب طعامه .

وللحكومات القائمة فى الأمة أثرها فى ذلك فقد تشجع حكومة ما على إحياء المدح التكسبي بكثرة البذل تقريبا للأدباء لغرامها بالثناء، وتعطيف الرأى العام نحوها كما فعل بنو أمية .

والعصر الذى نحن بصدد دراسة شاعره كثر فيه التكسب بالشعر للعاملين المتقدمين مجتمعين فبنو بويه أغرموا بتشجيع الأدب والأدباء لا بالعطاء فحسب ولكن ببذل ما هو أسمى وذلك بإسناد المراتب الكبرى فى دولتهم إلى عشاق الأدب فنال الكتاب والشعراء حظوة لم تكن لأضرابهم فيما تقدم من العصور .

والفقر فى ذلك العهد كان أوضح مظاهره ، وبخاصة فى بغداد وبعض مدن العراق نتيجة الفتن والثورات والحروب والسلب والنهب فقلما خلت مدته من سنة مسنتة ، أومجاعات متلاحقة اضطرت الناس إلى تناول مالم يحل لحمه من الحيوان ، والهجرة بحثاً عما يقيم الأود من مواضع الزاد .

لم يكن بعد ذلك موضع العجب أن تروج فى ذلك العصر سوق الأدب ، وأن يكثر الاندماج فى سلك تلك الصناعة ، وأن نجد الشاعر تهتز عاطفته لأبسط العوامل « فالسلامى » الشاعر « أبو الحسن محمد بن عبد الله المولود سنة ٣٣٦ هـ » يخرج من داره فيسقط عليه المطر ، ويراه الشريف الرضى

فيعطيه كساء يستره من برد الشتاء ، فيستوجب ذلك نظم قصيدة طويلة منه في مدح الشريف منها :

ودعت دارك والسماء تجودني ... بيد الغمام فلا أرى بك ما بي
مازلت أركض في الوحول مبارياً ... فيها الخيول لواحق الأقراب
فجريت والعكاز أخصر شكتي[1] ... قصرا ولكنى أعز ركاب
ورأيت غالية الطريق ومسكه ... طيباً معداً لي على الأثواب
وحمى كساؤك لا عدمت معيره ... درّاعتي وعمامتي وجبابي
فوليت يا بحر السماحة كسوتي ... وولي أخوك الغيث بل ثيابي
غيثان هذا ابن الذي من أجله ... خلق السحاب وذا سليل سحاب
فوصلت أشكو ذا وأشكر ذا وبا(م) ... غيثين ما بهما من التسكاب

ونرى ابن نباته السعدى تحركه شهوته للشراب ويطلب بعضاً منه من صاعد بن ثابت ، فيجعل مدح المسئول بقصيدة عامرة ثمناً لمطلوبه وفيها يقول :

يا جواداً أرواحنا من عطايا ... ه وأفهامنا مع الألباب
إن هذى الهموم تقدح فينا ... قدح كفيك في السِّلام[2] الصلاب
فاسقنا صيب المدام سقاك الله ... صوب الآمال والآداب
خندريساً كأنها تتقى المز ... ج بدرع مسرودة من حباب
تهب المال للفقير وتغزو ... شربها في عساكر الأطراب
سرقت حسن خلقها من سجايا(م) ... ك وأخلاقك الكرام الرغاب

ومهما يكن اعتذارنا لهذين الشاعرين وأمثالهما بأن القصد من مدحهما الدعابة فلسنا بمستطيعي إنكار ما أصاب كبرياء الشعر في ذلك العصر من تنكس بسبب الضنك والحاجة . والحاجة مذلة للنفوس والمضطر يستوطىء ركوب الصعب .

(١) الشكة بكسر الشين السلاح ، وخشبة عريضة يضيق بها خرت الفأس .
(٢) الحجارة .

عد تلك التقدمة ننتقل إلى مهيار كشاعر مداح فنتكلم عن هذا الغرض من شعره فى شىء من البسط.

وقد يعن للقارىء هنا سؤالان وهما — لماذا آثر الكاتب البدء بغرض المدح؟ ولماذا جمع بين المدح والتهنئة؟ — والجواب عن السؤال الاول هو أن المديح قد شمل معظم شعر مهيار كمقصد فى المحل الأول لغاية فى المحل الاول — على أن كثيراً من الأغراض الأخرى جاء فى تضاعيف قصيدة المدح كعناصر لا بد منها — فالغزل أكثره جاء للمدائح توطئة، كما اشتملت الأمداح على الوصف والعتاب وشكوى الزمان والخلان والفخر والحكمة.

وعن السؤال الثانى هو أن أكثر الأمداح جاءت فى مناسبات التهنئة بأعياد النيروز والمهرجان والفطر والأضحى، أو بما أصاب الممدوحون من خلع أو رتب.

كيف أصبح مهيار مداحاً متكسباً بشعره:

عرفنا عند الكلام على نشأة مهيار أنه نشأ فقيراً وأن أباه قد اتجه به لدراسة العربية وعلومها لتكون سبيله إلى العيش وأنه خدم فى الكتابة بديوان الخلافة ببغداد — ثم صدف عنها لأسباب قد تكون خارجة عن إرادته — فكان لا بد من أن يبحث عن مورد جديد للرزق، فآثر الاتجار بشعره فى سوق الرياء الأدبى الرابحة إذ ذاك، ولكنه كان يخجل أول الأمر لوجود «ابن نباتة السعدى» «والشريف الرضى»، وبضاعة شعرهما أجود، ومحلهما عند الملوك والأمراء أقرب، فكانت أمداحه قليلة حتى مات الشاعران المذكوران، الأول سنة ٤٠٥ ﻫ والثانى سنة ٤٠٦ ﻫ. وكان يعتقد أنه ثالث الثلاثة — بدأ يعتد بنفسه وبشعره، وأحس بشجاعة تدفعه لمدح الرؤساء والوزراء والكتاب، اثنين وعشرين عاماً، فى إسراف بالغ، ومن مظاهر هذا الاعتداد قصيدته التى نظمها فى فخر الملك. ويرجح أنها كانت سنة ٤٠٧ﻫ عقب وفاة الشريف وفيها يعتذر الشاعر من تركه

خدمة الممدوح لسبب عاقه ، ويعاتبه على تركه النظر إليه ، ويصف شدته ، ويعرض بفقد صنعة الشعر بعد موت « الشريف » أستاذه « وابن نباته » وأنه لم يبق إلا ما يسمع منه ، ومطلعها :—

لكل هوى من رائد الحزم رادع ... وحبكم ما لم يزع عنه وازع

ومنها :

وأنى بعنق من يد المن مفلت ... وما المن فى الأعناق إلا جوامع
وفى الأرض أموال ولكن عوائق ... من اللؤم قامت دونها وموانع
حماها رتاج من صدور شحيحة ... وأيد خبيثات عليها طوابع
بأى جمام [1] الماء أرجو عذوبة ... إذا أملحت طعم الشفاه الوقائع
وما خلتنى أمشى على البحر ظامئا ... وخمس فمى منه بما بل قانع
لعل لفخر الملك آنف نظرة ... يعود بها الحق البطىء يسارع
برغم ملوك الأرض أن ظهورهم ... من العجز عما تستحق طوالع

ومنها :—

أأنطق منى بالفصاحة يجتبى ... وأمدح أن لفت عليك المجامع ؟
أبى الله والفضل الذى أنت حاكم ... به لى لو قاضى إليك منازع
وما الشعر إلا النشر بعداً وصورة ... فلو شاء يطمع يداً فيه رافع
وقد أفل « النجان » منه فلا يضع ... على غير سير [2] — ثالث فيه طالع
بقيت لكم وحدى وإن قال معشر ... فنى القول ما تنهاك عنه المسامع
ولو شئت بى أخنى زهير ثناءه ... على هرم أيام تجزى الصنائع
وما شاع عن حسان فى آل جفنة ... من السائرات اليوم ما هو شائع
وكان غبينا من أمية من شرى ... مديح « غياث » وهو مُغْلٍ فبائع
على كل حال أنت معط وكلهم ... على سعة الأحوال معط ومانع
وقد وهبوا مثل الذى أنت واهب ... فما سمعوا بعض الذى أنت سامع

---

(١) الجمام : المياه الكثيرة — جمع جم — والوقائع نقر يستنقع فيها الماء فى سهل أو جبل
(٢) سير بالياء — جاءت كذلك بالديوان والأوفق أنها سبر بالباء .

وهذه القصيدة طويلة تبلغ تسعة وسبعين بيتاً — وهى عظيمة الأهمية من نواحي مختلفة : —

١ — فهى تدل لأول مرة على ثقته بشعره ، إذ يعتبر نفسه أشعر الأحياء بعد موت « النجمين » الرضى وابن نباته ، ثم يزداد به الغرور فيقارن نفسه بأمثال « حسان وزهير والأخطل » .

٢ — وعلى أنه يبالغ فى مدح الوزراء غير عابىء بإغضاب سادتهم من أمراء « بنى بويه » سلطان الدولة إذ ذاك » — وذلك فى قوله — برغم ملوك الأرض — البيت .

٣ — كما تدلنا على أن مهيار كان إلى ذلك الحين يتظاهر بالعفة ويأنف من المن ، وكان ذلك دستوره أو عهده بالشعر ثم عدل عنه كما سنرى بعد .

٤ — وأن الذوق كان يخونه كثيرا ، فالبيتان الأخيران مما استشهدنا به — يدل أولها على أن فخر الملك يعطى ولا يمنع سائلا ،والممدوحون غيره على غناهم — قد يبخلون ، والثانى ينقضه من طرف خفى ، لأن مهيار جعل عطاءهم كعطاء ممدوحه ، وشعره فوق شعر المادحين، وكان الأليق أن يقول :

فما وهبوا مثل الذى أنت واهب ولا سمعوا بعض الذى أنت سامع

على أن مهيار قد أصلح هذا الخطأ أكثر من مرة فى شعره كقوله[1] :

بقيت وليس لى فيها ضريب ولا لك فى الجزاء بها ضريب

وقوله :

ولقد مدحت فكنت أصدق قائل وفعلت أنت فكنت أكرم فاعل[2]

وكقوله فى موضع آخر :

فضلتم سؤددا وفضلت قولا فكل فى مداه بغير ند
بكم ختم الندى وبى القوافى بقيتم وحدكم وبقيت وحدى[3]

---

(١) فى مدح مؤيد الملك ج ١ ص ٧٢ .

(٢) فى مدح كامل بن مهدى ج ٣ ص ١٨٧ .

(٣) فى أبى سعد بن عبد الرحيم ج ١ ص ٢٦٦ .

ممدوحو مهيار

عرفنا أن مهيار قال الشعر فى المدح وسيلة للقوت وسببا للعيش، فاتصل لهذا الغرض بكثير من الأمراء والأدباء، وغشى الأوساط التى غشيها أستاذه وأحس من قادة عصره تقديراً لشعره، فاندفع فى ذلك المضمار بكل ما أوتى من عزم حتى صاغ مطولاته الجياد، مسجلا مفاخرهم مدونا فضائلهم، ومستدراً حلب عطاياهم.

ولا بد لنا هنا من وقفة نعرض عليك فيها بعض تلك الشخصيات التى حظيت بمدائح مهيار، وحظى هو بنوالها.

من أعظم تلك الشخصيات وأولها حدباً عليه، واتصالا به «الكافى الأوحد»، وهو أبو العباس أحمد بن ابراهيم الضبى وزير «فخر الدولة» بعد الصاحب بن عباد، ثم وزر لابنه «مجد الدولة» الذى تولى بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٧ هـ وهو فى الرابعة من عمره، فأشرفت أمه على الأمور بمعاونة «الكافى الذى» استبد بالسلطة، ثم غضبت عليه أم «مجد الدولة» فهرب من «الرى» إلى بدر بن حَسْنَوَيْه الكردى، وقد كان للأدب متذوقا.

وليس من شك فى أن ذلك الممدوح كان عظيم السرور باعتناق مهيار الإسلام بدليل أنه اختصه بتهنئته التى أشرنا إليها وكان ذلك سنة ٣٩٤ هـ ومطلعها «دواعى الهوى لك ألا تجيبا»، وقد بلغ من دلال مهيار عليه أنه تأخرت عليه مرة عطية الممدوح التى جرت العادة بها، فكتب إليه يعاتبه بقصيدته التى منها:

شفى الله نفسا لا تذل لمطلب ... وصبراً متى يسمع به الدهر يعجب
وصدراً إذا ضاقت صدور رحيبه ... لخطب تلقاه بأهل ومرحب

ومنها:

تمرن بأخلاقى فى الحى إن تكن ... رفيقا فإما عاذرى أو مؤنبى

تبَغّـض إذا كنت الفقير وإن تكن ... غنيا فطامن للغنى وتحبب
إذا لم تجد من يعظمونك رغبة ... ورمتهم أن ينصفوك فأرهب
فإنك ما لم ترج أو تخش فيهم ... وتقعد مع الوسطى تدسك فتعطب

. . .

أفق يا زمانى ربما أنا سائر ... إلى سهل ما أرجو بفرط تصعبى
أغرك فى ثوب العفاف تزملى ... وأخذى مكان الآمل المترقب
إذا أنا طالت وقفتى فتوقنى ... فان لها لابد وثبة منجب
ويا صاحبى والذل للرزق مورد ... أضن بنفسى عنه وهى تجود بى
خذ النفس عنى والمطامع إنها ... قد استوطأت من ظهرها غير مركبى
حرام وإن أمحضت أطيب مطعم ... علىّ إذا أداه أخبث مكسب
أأنت على هجر اللئام معنفى ؟ ... نعم أنا آثم . فارض عنى أو اغضب
أألقى البخيل اجتديه بمدحة ... خصيمان فيها شاهدى ومغيّبى
وأكذب عنه فى عبارة صادق ... كثير إذاً فى حيث أصدق مُكْذِبى
تعودته خلقا ثنائى لمحسن ... أقول بما فيه ، وذمى لمذنب
فما ضرنى فى الحق أنى مع العدا ... ولا عاب أنى فى المحال على أبى[1]

فنى الأبيات المتقدمة يخاطب الشاعر الزمان فى إباء مصبوب فى قالب من الرقة طالباً توقيه ، ثم يبين منهجه فى حياته :

من أنه يضن بنفسه على المذلة ، والحاجة تدفعها إلى الطلب ، ويتمنى أن تقضى تلك النفس مع مطامعها فهو عليه أهون ، وأنه قد آثر هجر اللئام الباخلين ، وحرم عليهم ثناءه إذ لم يتعود وصف أحد بما ليس فيه فخلقه يحتم عليه أن يمدح المحسن لاحسانه ، وأن يذم المسيء لأساءته لأن ذلك هو الحق ، وقد تعود نصر الحق ولو كان فى ذلك إلى جانب عدوه ودحر الباطل ولو كان فى هذا ضد أبيه .

وبعد ذلك يقول :

---

(١) فى الديوان « سرنى » ج ١ ص ١٧ .

وحاجة نفسى دبر الحزم صدرها   فأبت بها محمودة فى المغيب
أريد بها «الكافى» بقلب معذب   مراد ابن حجر قبلها «أم جندب»

وبعد أن يذكر ماتجشم من الصعاب وما اجتاب من وعر المسالك وراء العيش يقول :—

إرادة حظ أتعبتنى ومن تكن   له حاجة فى ذمة الشمس يتعب

° ° °

أحن إذا الوفد استقلوا لقصدكم   حنين الفتى العذرى مر بربرب
وما صاحبى قلب بظن مرجم   إلى غيركم فى العالمين مقلب
إذا أطرب الأبل الحداء فإننى   إليكم متى غنيت فالجود مطربى
ونفسى لكم تلك التى لودادها   ولو أغضبت فى واجب ألف موجب
أأمدح منها ما اختبرتم وإنما   يظن بعتق السيف مالم يجرب ؟
هجرت لك الأقوام حبا فوفنى   يمن بى إلى جدوى يديك تحزبى
لئن عتبوا أنى تفردت دونهم   بمدحك فاشهد أننى غير معتب

وفى تلك الأبيات ترى مهيار وقد انتقل إلى مدح الكافى يبين أنه على عهده من اختصاص الممدوح بشعره ولكنه يخطىء فى التشبيه البليغ الذى ساقه إذ يجعل مراده بحاجته الممدوح كمراد امرىء القيس «أم جندب» وشتان بين المرادين .

وفى التشبيه الضمنى (إرادة حظ) لأن الشمس مع علوها فى المكان لا يصح أن يشبه بها من علق الشاعر حظه به ، لأن ذلك يحكم على هذا الحظ باستحالة المنال ، وأين ذلك من تشبيه أبى الطيب :—

أعاذك الله من سهامهم   ومخطىء من رميه القمر

والقصيدة فى باقى الأبيات ملؤها ثناء جميل فى عتاب أجمل وهى خالية من كل مغمز فلنتركها لتدبر القارىء . ولننتقل بك إلى مدحة أخرى قالها

الشاعر فى الكافى بعد تركه الوزارة بالرى ويعتبر ذلك تنزها منه ، ثم يذكر عجز من خلفه عليها ومنها [١] : —

فتى لم أجد لى غيره فأقول ما … أعم عطاء من فلان وأجودا
أنال وفى الأيام لين وأيبست … فلم ينتقص ذاك النوال المعودا
إذا بلغ الزوار بابك ألقيت … رحال ذليل عز أو حائر هدى

ومنها فى بيان ضعف الوزارة على يد خلفه : —

وخلفتها قاعاً يغـــر سرابها … يدى حافر لم يبق منها سوى الكدا [٢]
قليل اطلاع فى العواقب لو درى … مشقة ما فى مصدر ما توردا
تلبسها جهلا بأنك لم تكن … لتنزعها لو كنت تنزع سؤددا

° ° °

ومن تلك الشخصيات التى ظفرت بمدح مهيار : —

محمد بن خلف وهو ، أبو غالب ، الملقب بفخر الملك : — وقد جاء فى ابن خلكان [٣] وغيره ما ملخصه أنه ولد سنة ٣٥٤ هـ وتوفى حوالى سنة ٤٠٧ ، وأنه واسطى الأصل ، واسع النعمة ، جم الفضائل ، جزيل العطايا ، قصده الشعراء ، ومدحه الشريف الرضى ، وابن نباته ، ومهيار ، وغيرهم ، وقد وزر «لبهاء الدولة» بالعراق ثم لابنه «سلطان الدولة» ، ويعتبر أعظم وزراء بنى بويه ، بعد ابن العميد والصاحب بن عباد وكان ناصراً للعلم والعلماء مكرماً للأدب والأدباء إلى أن غضب عليه سلطان الدولة وقتله سنة ٤٠٧ هـ فكثر راثوه ، وقد ذكرنا فى أول هذا الباب بعضاً من إحدى مدائح مهيار له ، وهناك مدح أخرى من أروعها لاميته التى مطلعها : —

أروم الوفاء الصعب بالمطلب السهل … وأرتاد جود الحب فى منبت البخل

ويروى أن فخر الملك كان قد أرسل إلى الشاعر عطية من دنانير أغار

(١) ج ١ ص ٢٣١ .
(٢) الكدا : الصخور تعوق الحافر عن مواصلة الحفر .
(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٧٨ (٣) — ج ٣ ص ٣٨ من الديوان .

عليها وسيطه فانتهت إلى مهيار ضئيلة فاستقلها وردها — ولما كانت ليلة عرفه دخل « مهيار » على ممدوحه فى باب الشعير فأنشده تلك اللامية فخلع عليه خلعة نفيسة وأتحفه ببعض ما فى مجلسه من التحايا والألطاف.

ومنها اللامية الأخرى التى مطلعها [١] : —

عجلتَ بحظك فيها الرحالا أثرها أمنْت عليك الكلالا

وقد نظمها حوالى سنة ٣٩٩ هـ لمناسبة خوض الممدوح حرباً ضد « هلال ابن بدر بن حسنويه » الذى خرج على أبيه واستولى على أملاكه جهة « شيراز » وأصفهان والدينور وقرميسين وتحصن فى قلعة « سابور خواست » فاستنصر « بدر » بهاء الدولة الذى عهد إلى الممدوح بالأمر فحارب هلالا وانتصر عليه وجاء به أسيراً بعد سقوط قلعة « خواست » وتسليمها إلى بدر أبيه وكان بها غنائم لا تحصى وقد أشار مهيار إلى ذلك الحادث فى تلك القصيدة حيث يقول [٢] : —

فظنوك تعيا بحمل العراق كأن لم يروك حملت الجبالا
ولو لم تكن فى العلو السماء لما كان غنمك منها « هلالا »
سريت إليه فكنت السرار له ولبدر أبيه كمالا

ومن مخريات مهيار رائيته التى نظمها بمناسبة وصول فخر الملك إلى حضرة الخليفة القادر مستخرجاً خلعة ولواء للملك سلطان الدولة — فقدم وأكرم وميز على نظرائه ونوه باسمه فى الخطاب واللقب وقلد سيفاً مذهباً وأولها : [٣]

فكاكك أيها القلب الأسير غداً ، لو قال حادى الركب سيروا

ومنها :

أرى كبدى وقد بردت قليلا أمات الهم أم عاش السرور ؟
أم الأيام خافتنى لأنى بفخر الملك منها أستجير

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٩ (٢) الديوان ج ١ ص ٣٥٧ .
(٣) ج ٣ ص ٣٨ من الديوان

وبعد أن يبالغ طويلا فى الثناء على ممدوحه يقول :

إذا الأسماء ألزمت المعانى فأنت الحق والوزراء زور
رأيناهم وكلهم شكول مصليهم لسابقهم نظير
بك انتصر الملوك فكنت فيها دعوك لنصره نعم النصير

ويشير إلى إهداء القادر إياه السيف المذهب بقوله :

وقلد سيفه بيديه سيفا طويل نجاده عنه قصير
حساماً كان للمنصور حصناً ولم يك للمدينة بعد سور
وما كفء له لولاك كفئاً ولكن الذكور لها الذكور
أمير المؤمنين يقول خذه فإنك فى تقلده الأمير

وقد يطول بنا الكلام إذا قصدنا إلى استيعاب مدائح مهيار فى فخر الملك فليرجع إليها من شاء بديوانه .

ولننتقل إلى شخصية ثالثة من تلك الشخصيات وصاحبها هو :

أبو القاسم الحسين بن على المغربى ويروى أنه ابن ابن أخت هارون ابن عبد العزيز ممدوح المتنبى بالقصيدة التى مطلعها :

« أمن ازديارك فى الدجى الرقباء »

وهو مغربى الأصل على أصح الروايات فر من مصر على أثر قتل الحاكم بأمر الله الفاطمى أباه وعمه وأخويه — وعمل على الانتقام منه بتأليب كل من « حسان بن مفرج » صاحب الرملة وأبى الفتوح الحسن بن جعفر العلوى « حاكم الحجاز ضده — ولما لم يفلح قصد العراق واتصل بفخر الملك الذى رفع أمره إلى الخليفة القادر ولكن الخليفة خشى أن يفسد فى دولته كما أفسد فى دولة حاكم مصر وطلب إبعاده ولكن « فخر الملك » احتضنه واستصحبه معه إلى واسط ولما قتل « فخر الملك » ولم يبق للمغربى من سند عمل على كسب عطف القادر فنجح بعض الشىء ثم رحل إلى الموصل فخدم ديوان كتابة معتمد الدولة أبى المنيع قرواش . أمير بنى عقيل بالموصل —

ثم سعى فى الوزارة لمشرف الدولة البويهى بالعراق بعد القبض على مؤيد الملك فوفق ولما حلت الكارثة بمشرف الدولة عقب فتنة ببغداد طلب المغربى من مخدومه أن يعفيه فأجابه إلى رغبته — وعاد إلى أبى المنيع الذى استغنى عنه بإيعاز من الخليفة القادر فتوجه إلى ديار بكر ووزر لسلطانها نصر الدولة أحمد بن مروان وظل وزيره إلى أن توفى سنة ٤١٨ ﻫ على الأرجح وأوصى أن يدفن بالكوفة بجوار مشهد الإمام على . وقد كان أبو القاسم أديباً فذاً فى الكتابة ، والشعر وله فيه ديوان ، ومن مؤلفاته مختصر إصلاح المنطق ، وكتاب الإيناس ، وكتاب أدب الخواص والمأثور فى ملح الخدور

ولمهيار فى الوزير المغربى مدحتان غاية فى الجودة والطول أولاهما البائية التى مطلعها :

هل عند عينيك على « غرب » غرامة بالعارض الخلب

وقد نظمها سنة ٤١٤ ﻫ عند تقلد الممدوح الوزارة لمشرف الدولة وتقع فى مائة وثمانية وثلاثين بيتاً وسنعرض لجميع الأغراض التى اشتملت عليها لتكون نموذجاً للمدحة الكاملة فى شعر « مهيار » ، وهى على الترتيب :

١ — الغزل من مثل قوله :

ياسائق الأظعان لا صاغرا عج عوجة ثم استقم واذهب
دع المطايا تلتفت إنها تلوب من جفنى على مشرب
لا والذى إن شاء لم أعتذر فى حبه من حيث لم أذنب
ما حدرت ريح الصبا بعده لثامها عن نفس طيب
ولا حلا البذل ولا المنع لى مذ هو لم يرض ولم يغضب
يا ماطلى بالدين ماسامنى إليك ترديد المواعيد بى
إن كنت تقضى ثم لا نلتقى فدم على المطل وعد واكذب
سال دمى يوم الحمى من يد لولا دم العشاق لم تخضب

(١) الديوان ج ١ ص ٧٥ .

نبل رماة الحى مطرورة (١) أرفق بى من أعين الربرب

٢ — شكوى المشيب :

قد سد شيبى ثغرى فى الهوى فكيف قصى أثر المهرب
أفلح إلا قانص غادة مد بحبل الشعر الأشيب
ما لبنات العشر والعشر فى جد بنى الخمسين من مأرب
شيات أفراس الهوى كلها تحمد فيهن سوى الأشهب

٣ — ندب الحظ :

أمفزعى أنت بفوت الغنى تلك يد الطالى على الأجرب
دع ماءِ وجهى ما حوضه وكل سميناً نشبى واشرب
إن أغلبَ الحظّ فلى عَزْفة بالنفس لم تُقمَر ولم تُغلب (٢)
ذم الأحاظى طالب لم يجد فكيف وجدانى ولم أطلب
آه على المال وما يجتنى منه لو ان المال لم يوهب
راخ (٣) على الدنيا إذا عاسرت وإن أتت سمحة فاجذب
ولا تَعسَّف كد أخلافها (٤) فربما درت ولم تعصب
وربما طالع وجه المنى من شرف اليأس ولم يحسب

وبعد أن ينعى حظه على نحو ما رأيت من الظرف والرقة وبعد إيضاحه المنهج الذى يجب أن يلتزمه من مسايرة الدنيا على خيرها وشرها ووجوب الصبر عليها تدر بعد إخلاف وتوسر بعد إعسار يوجه نظر المعوزين إلى الممدوح فى أروع ما يكون أسلوباً وحسن تخلص إلى الممدوح فيقول :

٤ —

قل لذوى الحاجات مطرودة وابن السبيل الضيق المذهب
وقاعد يأكل من لحمه تنزهاً عن خبث المكسب

---

(١) محدودة (٢) العزفة : الانصراف عن الشىء والزهد فيه ، وتقمر بمعنى تقهر
(٣) راخ بمعنى أرخ (٤) الأخلاف جمع خلف وهو الضرع .

قد رفعت فى «بابل» راية للمجد من يلق بها يغلب
يصبح راعى النصر من تحتها يا خيل محيي الحسنات اركبي
جاء بها الله على فترة بآية من يرها يعجب
لم تألف الأبصار من قبلها أن تطلع الشمس من المغرب
فارتبعوا بعد مطال الحيا وروضوا بعد الثرى المجدب

ثم يمثل الممدوح بأجواد العرب المعدودين وشجعانهم البارزين بما يدل على سعة اطلاع بتاريخ قدماهم.

قد عاد فى طيء ندى «حاتم» وقام «كعب» سيد الأكعب (١)
وعاش فى غالب «عمر والعلا(٢)» يهشم فى عامهم المُلزِب(٣)
وارتجعت «قحطان» ما بزها من «ذى الكلاع»الدهر أو «حوشب»(٤)

٥ — وبعد ذلك يصف الناقة فى إسهاب ودقة سنشير إليهما عند الكلام على الوصف فى شعره. ثم يعرج على الممدوح فيعرض لبيان علاه ومجد عشيرته فيقول:

أتعبه تغليسه(٥) فى العلا من طلب الراحة فليتعب
من معشر لم يهتبل(٦) عزهم بغلط الحظ ولم يجلب
ولا علا ابن منهم طالعا من شرف إلا وراء الأب
قوم إذا أخلف عام الحيا لم تختزلهم حيرة المسغب
أو بسط الله ربيعاً لهم لم يبطروا فى سعة المخصب
سموا وأصبحت سماء لهم يطلع منها شرف المنسب
زدت وما انحطوا ولكنها إضاءه البدر على الكوكب

---

(١) حاتم وكعب كريمان من العرب معروفان.
(٢) هو هاشم بن عبد مناف.
(٣) الملزب الشديد القحط.
(٤) ذو الكلاع عظيم تجمعت على يديه حمير وحوشب مخلاف باليمن.
(٥) التغليس السير فى الغلس.
(٦) يهتبل بمعنى يغتنم.

وهذا الضرب فى المديح يحتاج إلى كياسة وحسن ذوق وكثيراً ما يخطىء المادحون فيمجدون الفرع تمجيداً يغض من شرف الأصل أما « مهيار » فكان فى مثل تلك المواقف بارعاً كيساً كقوله فى مدح زعيم الملك أبى الحسن ابن عبد الرحيم[1]:

وفيت لآباء تكلفت عنهم ... فضائلهم ماسنُّوا الفخار وسيروا
كرام طواهم ما طوى الناس قبلهم ... وأنت من ذاك الطى منشر
مضوا سلفاً واستخلفوك لذكرهم ... خلوداً فلم يخز القديم المؤخر
وأبقوا حديثاً طيباً منك بعدهم ... وقد علموا أن الأحاديث تؤثر
وزناهم بالناس بيتا وأنفسا ... فزلت موازين وزادوا وثمروا
وجئت بمعنى زائد فكأنهم ... وما قصروا عن غاية المجد ـ قصروا
وإن أبا أبقاك ذخراً لعقبه ... وإن عبطته ميتة لمعمر

ولقد أسرف مهيار فى بيان مناقب أبى القاسم إسرافاً بالغاً ، وذكر أخص ما عرف من صفاته الممتازة وكان الممدوح معروفاً بالكفاية والدهاء ـ وفى ذلك يقول :

خلقت فى الدنيا بلا مشبه ... أغرب من عنقائها المغرب
ورب طاو غــلة بائت ... من جانب الشر على مرقب
راعته من كيدك تحت الدجى ... دبابة أدهى من العقرب

٦ — ثم يسدى مهيار لممدوحه متحول نصحه ، ويقف منه موقف المشير المخلص فينبهه إلى خطر منصب الوزارة وإلى ما يجب أن يكون عليه هذا الوزير من حكمة ولباقة فى تدبير شئونها — بما يشهد للشاعر بسداد الرأى ، والإلمام بشئون السياسة فى عصرة وفى ذلك يقول :

وزارة قلبهــا شوقها ... منك إلى حولها القُلَّب
قمت بمعناها وكم جالس ... تكفيه منها سمة المنصب

---

(١) بالديوان ج ٢ ص ١٠٠ .

وهى التى إن لم يُقَد رأسها ... بمُحْصَدات الصبر لم تُصْحِب[١]
مَزْلَقَة راكب سيسائها[٢] ... راكب ظهر الأسد الأغلب
فاضرب عليها بيت ثاو بها ... قبلك لم يُعْمَد ولم يُطْنَب[٣]
واستخدم الأقدار فى ضبطها ... واستشر الإقبال واستصحب

٧ — ثم يذكر حاجته مستدرا عطف الممدوح بما يلين أقسى القلوب إذ يقول :

واسمع لمغلوب على حظه ... لو أنك الناصر لم يغلب
أقصاه عند الناس أدلاؤه ... من فضله بالنسب الأقرب
ما زلت أرجوك ومن آيتى ... أن رجائى فيك لم يكذب
لم يبق لى بعدك عتب على ... حظ ولا فقر إلى مطلب

٨ — ثم يختم تلك القصيدة باطراء أشعاره الذى قل أن تخلو منه مدحة فيبين رقتها ، وبعدها عن التعسف والتكلف ، وأنها مبتكرة المعانى لم يسرقها من أشعار غيره ، وأنها تستحق الطرب لسماعها ، وأنها جمعت بين السهولة والصعوبة حسب المقام ، وأنها أفصح ماقيل وقد أهديت إلى فصيح يقدرها ، تلمح كل ذلك فى قوله :

ولدنة الأعطاف لم تعتسف ... بالكلم المر ، ولم تتعب
من الحلال العفو لم تستلب ... بغارة الشعر ، ولم تنهب
دم الكرى المهراق فيها على ... سامعها إن هو لم يطرب
جاءك معناها وألفاظها ... فى الحسن بالأسهل والأصعب
أفصح ما قيل ولكنها ... فصاحة تهدى إلى « يعرب »

وما أظننا بحاجة — بعد بسط أغراض تلك المدحة — إلى ذكر شىء

(١) تصحب : تنقاد وتذل .
(٢) السيساء منتظم فقار الظهر .
(٣) أى لم يكن له عمد ولا أطناب .

من لامية الشاعر فى المغربى التى تعتبر أطول قصائد مهيار على الإطلاق والتى مطلعها : [١]

عسى معرض وجهه مقبل   فيوهب للآخر الأول

والتى قالها مهنئا له بالمهرجان وشاكراً له جميلا أولاه إياه ، فمن شاء فليرجع اليها بديوانه ويخيل لى أنه لولا قصر مدة المغربى فى الوزارة ، لانضاف إلى شعر « مهيار » فى تلك الشخصية سيل من الأمداح لما يبدو من وثيق صلته به .

أما الممدوح الرابع : فهو مؤيد الملك أبو الحسين بن الحسن الرُّخَّجِي ، ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٤١٣ هـ ما يأتى : وفيها فى شهر رمضان استوزر مشرف الدولة أبا الحسين بن الحسن الرخجي ولقبه مؤيد الملك ، وامتدحه مهيار وغيره من الشعراء . وبنى مارستاناً بواسط وأكثر فيه من الأدوية والأشربة . ورتب له الخزان والأطباء ووقف عليه الوقوف الكثيرة ، وكان يعرض عليه الوزارة فيأباها ، فلما قتل « أبو غالب » ألزمه بها مشرف الدولة ، فلم يقدر على الامتناع ، اهـ

وكان أديباً بارعاً ، ومن أجود مدائح مهيار فيه تلك البائية التى مطلعها: [٢]

أجدك بعد أن ضم « الكثيب »   هل الأطلال إن سئلت تجيب ؟

وقد نظمها الشاعر حوالى سنة ٤١٤ هـ وهى طويلة تقع فى مائة وستة وعشرين بيتاً — بدأها الشاعر بالغزل فى نحو أربعين بيتاً شكا خلالها من الزمان والمشيب ، ثم وصف الصحراء وصفاً جميلا تعرضنا له فى الكلام على شعره الوصفى ، ثم انتقل إلى الممدوح فرفع من قدره وهنأ الوزارة به ، وبين أنه كفء قد جمع بين الأدب والكرم من مثل قوله :

هَنَا أم الوزارة أن أتاها   على الأعقام منك ابن نجيب

---

(١) الديوان ج ٣ ص ١٢٤ .
(٢) بالديوان ج ١ ص ٦٥ .

ولو أتت السماء بمثلك ابنا   لما كانت طوالعها تغيب
لك اليومان تكتب أو تشب الـ   ـوغى وكلاهما يوم عصيب
فيومك جالساً قلم خطيب   ويومك راكبا سيف خضيب
جمعت كفاية بهما وفتكا   ومجمع ذين فى رجل عجيب

والجديد فى تلك القصيدة أن فيها إشعاراً بنزول الشاعر عن كبريائه بإظهاره خضوعاً غير معهود منه قبل حيث يقول: —

يميل إليك بشرك لحظ عينى   ويحبس عنك مجلسك المهيب
أبيت فما أجيب سؤال داع   ولكنى دعاءكم أجيب
فإن يكن انقباضى أمس ذنباً   فمنذ اليوم أقلع أو أتوب
وتحضر تائبات عن لسانى   فواقر ربها عبـد منيب

فأنت ترى «مهيار» فى هذه الأبيات يعتذر ضمناً عن تأخره فى إطراء الممدوح مع مدحه غيره، ويتعهد بالتوبة والإقلاع عن ذلك، ويعلن أنه أصبح عبداً منيباً، فأى صغار وذلة بعد ذلك؟ ولكنه حب المال قاتل الله المال فكم قتل من إباء، وأهان من عزة.

وفى ختام القصيدة يمزج الشاعر بين تعظيم الممدوح وإطراء شعره على مألوف عادته.

وأقوى من تلك القصيدة وأروع بائية أخرى فى الممدوح نفسه بمناسبة تقلده الوزارة بعد امتناعه عن الدخول فيها، وتتضمن شكر مؤيد الملك على أنعمه وعلى تقريظه الشاعر، مع بيان أثر الوزير فى الوزارة بعد نكول سالفيه من الوزراء وتقع فى مائة وسبعة أبيات ومطلعها [١]: —

إذا عم صحراء «الغمير» جدوبُها   كفى دار «هند» أن جفنى يَصوبُها

ومنها فى شكوى الشيب والزمان والناس: —

وتعجب أن حُصّت قوادم مفرقى   وأكثر أفعال الزمان عجيبها [٢]

---

(١) ج ١ ص ٤٥.
(٢) حصت: الرجل الأحص: قليل شعر الرأس.

ومن لم تغيره الليالى بعده طوال سنيها غيرته خطوبها
يقولون دار الناس ترطب أكفهم ومن ذا يدارى صخرة ويذيبها ؟
وما أطمعتنى أوجه بابتسامها فيؤيسنى مما لديها قطوبها
عذيرى من باغ يود لنفسه نزاهـــة أخلاق ويمسى يعيبها

ومنها فى بيان هيبة الممدوح وعنايته بإصلاح حال الرعية بحكيم أساليبه من الإعذار بالإنذار قبل البطش :

وغيرانُ لا يرضيه إصلاح جسمه بدار إذا كان الفساد يشوبها
وقاها من الأطماع حتى لو انه جرى الدم فوق الأرض ما شم ذيبها
ومد عليها حاميا يد مشـــبل له عصبة بعـــد النذير وثوبها

وفى بيان إعراضه عن الوزارة وعجز الولاة قبله :

تسربل بأثواب الوزارة إنها لك انتُصِحَتْ أردانها(١) وجيوبها
وقد طالما منيتها الوصل معرضا وباعدتها من حيث أنت قريبها
بلطفك فى التدبير شاب غلامها على السيرة المثلى وشب ربيبها
وقد ضامها قبل الولاة وقصرت قبائلها عن نصرها وشعوبها

وبعد أن يعرض بسوء سيرة الوزراء قبله وبيان عجز بعضهم ، ولهو آخرين ، وقسوة الباقين ينصح لممدوحه باتقاء حساده ، ولا يفوته فى النهاية إطراء شعره .

ولمهيار فى مؤيد الملك قصائد أخرى منها الرائية التى مطلعها (٢) :

تغرب فبالدار الحبيبة دار وفكّ المطايا فالمناخ إسار

والميمية التى أولها : (٣)

ما المجد إلا بالعزيمة فاعزم من لم يغامر لم يفز بالمغنم

فليرجع إليها من شاء بالديوان .

(١) انتصحت : خيطت .
(٢) ج ١ ص ٣٨٢ .
(٣) بالديوان ج ٣ ص ٢٣٢ .

والممدوح الخامس هو تاج الملك أبو غالب ذو السعادتين الحسن بن منصور . وقد ولد « بسيراف » سنة ٣٥٢ هـ وأخذ يرقى حتى صار وزير سلطان الدولة بن بهاء الدولة بالعراق سنة ٤٠٩ هـ بعد القبض على أبي جعفر بن محمد بن فسانجس ، ولما ترك سلطان الدولة الحكم فى بغداد لمشرف الدولة أخيه ، وسار هو إلى الأهواز واستوزر بن سهلان مخالفاً اتفاقه مع أخيه قام الخلاف بينهما ، وسار ابن سهلان بقصد إخراج مشرف الدولة من العراق ، فانضم تاج الملك الحسن إلى مشرف الدولة وانتصر بعد معارك على « ابن سهلان » ، وأسره بعد أن حصره بواسط — ثم وزر لمشرف الدولة سنة ٤١٠ هـ إلى أن تآمر عليه جند الديالمة وقتلوه فى طريقه إلى « الأهواز » سنة ٤١٢ بعد أن مكث فى وزارة مشرف الدولة ثمانية عشر شهرا ، وهو غير تاج الملك أبو نصر بهرام الذى كان وزيرا لشمس الدولة ابن فخر الدولة « بهمذان » .

وللشاعر فى تاج الملك قصيدة بائية رائعة مطلعها :

قضى دين « سعدى » طيفها المتأوب وَنَوَّلَ إلا ما أبى المتحوِّب(١)

ولهذه المدحة قيمة كبرى من حيث دلالتها على أن الشاعر كان حريصا الحرص كله على تتبع الأحداث فى عصره فيشير إليها فى شعره بما يعين التاريخ على تصوير هذا العصر تصويرا واضحا وقد ورد بالديوان أن تلك المدحة نظمها الشاعر بعد ظفر الممدوح بمحمد بن سهلان وزير سلطان الدولة وقائده ، وأن إرسالها كان سنة ٤١٣ هـ وذلك محل تشكيك لأن الممدوح على ما ذكره ابن الأثير وغيره قد قتل سنة ٤١٢ هـ وتغلبه على « ابن سهلان » ، كان بلا ريب قبل ذلك .

والقصيدة قوية السبك رقيقة المعانى ناصعة العبارة ، بدأها مهيار بستة عشر بيتا فى الغزل ، ثم نعى الحظ وتخلص من نعيه إلى الممدوح فى لباقة غاية فى البراعة إذ يقول :

---

(١) المتأوب : الطارق أول الليل ، والمتحوب : المتعبد .

ولائمة فى الحظ تحسب أنه بفضل احتيال المرء والسعى يجلب
رأت شعثاً غطى عليه تصونى وعيشاً بغيضا وهو عندى محبب
وقد كنت ذا مال مع الليل سارح على لو ان المال بالفضل يكسب
ولكنه بالعرض يشرى خياره وينمى على قدر السؤال ويخصب
وما ماء وجهى لى إذا ما تركته يراق على ذل السؤال وينضب
وإنك لا تدرين واليوم حاضر بحال اختلالى ما غداً لى مغيب
لعل بعيداً ما طلبت دونه المنى سيحكم « تاج الملك » فيه فيقرب

ثم يشير الشاعر إلى أن اتصاله بالممدوح جاء متأخرا ففاته الكثير من فيضه ، وينحى على نفسه باللائمة إذ ترك نواله لغيره وحرمه وحده فيقول :

وإن فاتنى من جوده واصطفائه إلى اليوم ما تسنى يداه ويوهب
وأيبس ربعى وحده من سحابة تبيت لمثلى من عطاياه تسكب
فرجلى كانت دون ذاك قصيرة وحظى فيما جازنى منه مذنب
ولا لوم إن لم يأتنى البحر إنما على قدر ما أسعى إلى البحر أشرب

ومنها بعد الإطالة فى إطراء الممدوح — يصف معركة « واسط » التى كانت بينه وبين « ابن سهلان » ، ويشير إلى أخرى بالأنبار بقوله :—

ويوم بلون المشرفية أبيض ولكنه مما يفجر أصهب[١]
إذا أسفرت ساعاته تحت نقعه عن الموت ظلت شمسه تتنقب
صبرت له نفساً حبيباً بقاؤها إلى المجد حتى جئت بالنصر يجنب
« كواسط » و« الأنبار » أمس « كواسط » ومن أيما يوميك لا أتعجب
وكم دولة شاخت وأنت لها أخ وأخرى تربيها وأنت لها أب
نهيت الذى جاراك راكب بغيه إلى حينه — والبغى للحين مركب

ثم يعود بعد ذلك الشاعر معرضاً بحاجته ، ممنياً ممدوحه بأنه سيبذ المطرين لدى الممدوح ، وفى البيت الأخير يمدح نفسه بأنه شاعر وكاتب فمن ذلك :—

(١) أصهب : أحمر .

لعل خفياً كامنا من محاسنى تبوح به نعماك عنى وتعرب
ومن لى لو أنى على العجز ماثل بناديك يصغى المفحمون وأخطب
فتشهد أنى ما عدمت فضيلة إلى مثلكم مثلى بها يتقرب
وتعلم منى كيف أمدح ناظماً فانك تدرى ناثراً كيف أكتب .

والممدوح السادس هو أبو نصر « سابور بن أردشير » : — وزير بهاء الدولة ، وكان قد ترك الوزارة وخلفه أبو القاسم على ابن أحمد الذى هرب على أثر ثورة الديلم ، وعاد « سابور » إلى الوزارة وتولى منصب نائب السلطان ببغداد سنة ٣٩١ هـ ، قال ابن الأثير فى ذكر حوادث سنة ٤١٦ هـ ، « وفيها توفى سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة ، وكان كاتباً سديداً ، وعمل دار الكتب ببغداد سنة ٣٨١ هـ وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد ، وبقيت إلى أن احترقت عند مجىء « طغرل بك » إلى بغداد سنة ٤٥٠ هـ » ا — هـ . وجاء عنه فى ظهر الإسلام(١) أثناء الكلام على أدباء البويهيين مانصه « وسابور بن أردشير كان وزيراً لبهاء الدولة، بن عضد الدولة فكان هو نفسه أديباً شاعراً ، وقصده الشعراء أمثال « أبى الفرج الببغاء » ، « وأبى اسحاق الصابى » ، وقد أنشأ ببغداد دار كتب قيمة قال فيها ياقوت : لم يكن فى الدنيا أحسن كتبا منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولها المحررة وهذه الدار هى التى أشار إليها أبو العلاء المعرى بقوله فى قصيدته :

وغنت لنا فى دار سابور قينة من الورق مطراب الأصائل مهياب

ومن مدائح مهيار فى أبى نصر سابور تلك العينية التى مطلعها(٢) : —

لأية لبسة خلع الخلاعة وكان عصى العذول فلم أطاعه

وقد عنت لنا ملاحظات على تلك القصيدة أهمها : —

أن الشاعر لم يوفق فى مطلعها ولم يراع مقام الممدوح وهو كما قدمنا

---

(١) ص ١٢٥٦ ج ١ .
(٢) الديوان ج ٢ ص ١٧٧ .

— فوق كونه وزيرا خطيراً — أديب شاعر ، فالابتداء ينقصه الروعة المعهودة من مهيار فى مدائحة ، وأنه بعد أربعة أبيات من بدء القصيدة قد تعرض لمدح الفرس فى شخص ممدوحه حيث يقول :—

نزلنا فى بنى ساسان دوراً   بها تسلى بيوتك فى « قضاعه »

وأنه ينسب إليه أنه الجامع لشمل ملك بنى بويه غير عابىء بغضب هؤلاء الملوك فيقول :—

أقول لسائلى بك وهو نام   كأن لم يرض من خبر سماعه
أمامك ملك « آل بوية » فاسأل   بذاك الشمل من ولى اجتماعه

وأنه عند استجداء الممدوح يشكو من غمط حقه ونكران فضله مع أنه شاعر كاتب وليس له موهبة غيرهما يعتمد عليها فى رزقه وذلك حيث يقول :—

لعلك ناظر فى حال عبد   بعين الرأى كيف ترى اصطناعه
أعر لسنى سماعك كيف أشكو   ـو ظلم ذاكـ من حظى ضياعه(١)

. . .

يؤخرنى القريض لدى أناس   ركبت إلى مدائحهم شراعه
قصائد لو سبقت بهن حتى   أصيرهن فى سـفر بضاعه
شريت جمال يوسف وهو راض   بهن ، وعدت فاستثنيت صاعه
وكم أغمدتها وسللت أخرى   برعت بها فلم تجد البراعة
بخست كتابة ، وحرمت شعراً   فهل من ثالث لى من صناعه؟

ولهذه الملاحظات رجحت أن تكون تلك القصيدة من بواكير شعر الشاعر ، يشهد بذلك قلة متانتها ، وقصر نفسه فيها إذا قيست بما قاله فى بنى عبد الرحيم وغيرهم من فارسيِ الأصل « كامل بن مهدى » ، وشكواه من بخسه كتابة إذ يشير ذلك إلى أنه كان بتركها حديث عهد .

---

(١) فى الأصل — وظلم ذاك — وأصلحت بالديوان وأظلم ذاك — والأصح — وظلم ذاك .

أما الممدوح السابع فهو الوزير أبو القاسم « هبه الله بن على بن ما كولا » ولد سنه ٣٦٥ هـ من أسرة معروفة فى الرياسة والقضاء ، وكان فاضلا جليلا عرضت عليه الوزارة فاعتـــذر ، فلما شغب الأتراك على جلال الدولة سنة ٤٢٣ هـ خرج من بغداد ليلا إلى « عكبرا » حيث كان يقيم أبو القاسم فاستضاء برأيه فأشار بما أعاد القضب إلى أجفانها وأرغم له أنوف الترك مع إبعادهم من كانوا سبب الشغب ، ثم عاد ركن الدين جلال الدولة إلى بغداد ، واستوزر أبا القاسم ، وخلع عليه ثم ترك الوزارة ، وخلفه أبو سعد ابن عبد الرحيم سنة ٤٢٥ هـ ثم عاد ابن ما كولا فى نفس السنة وبعد ذلك هرب أمام كثرة مطالب الجند بعد شهرين ، وهكذا ظلت الوزارة متعاورة بين الرجلين .

وكان ابن ما كولا وزيراً مكروهاً لميله إلى جمع المال بطرق غير مشروعة وكانت له أياد على الشاعر فأكثر من مدحه — وقد توفى سنة ٤٣٠ هـ .

ومن مدائح مهيار فيه تلك الرائيه التى قالها مشيرا إلى التجاء جلال الدولة إليه واستعانته به فى إخماد ثورة الترك ، وجاء بالديوان أنها كانت سنة ٤٢٨ هـ وإن صح ذلك فقد تكون آخر مدائحة [١] . ومطلعها :

فاق بها من أطول سكرته الدهر وفكت أمان فيك ماطلها الأسر

ويلاحظ أن مهيار لم يمهد لتلك المدحة بالغزل مخالفاً عادته الغالبة على مديحه .

وأنها تدل على تتبع الشاعر للأحداث السياسية فى عهده وعلى شجاعته فى التصريح برأيه فى شعره فقد ندد بالترك وخطرهم على الدولة وعد ذلك عقوقاً منهم ، على حين كانوا قوة مرهوبة فى بغداد كقوله فى حال الدولة بهم .

مزعزعة أيدى سبا بين معشر همو غمطو النعمى وغمطهم كفر

---

(١) ليس فى ذلك تناقض فكون الفتنة سنة ٤٢٣ هـ لا يمنع الشاعر أن يتعرض لها سنة ٤٢٨ حين يمتدح بطل إخمادها .

ولم أر كالعبد المؤمَّم آمنــاً يُرَوَّعُ منه ربُّه الملك الحر

ثم ينتقل إلى ذكر حادث فرار جلال الدولة قائلا وموجها الخطاب للممدوح :

ولمـا نبت بالملك دار قراره وماج عليه منهم الفــاجر الغر
وسرح من مكنونه الخوف حائما عليه وأبدى من نواجذه الشر
وكوشف حتى لم تحصنه رقبـة ولم يبق باب للحيـاء ولا ستر
أتتك به الظلمـاء يركب ظهرها على ثقة من غيـه أنك الفجر
دعاك لها ياواحداً وهو واحد فأصرخه من نصحك الجحفل المجر (١)
وما كان إلا أن وفيت بعهده وأسميت حتى مات من خوفك الغدر
فكنت عصا موسى هوت فتلقفت بآيتـك البيضاء ما أفك السحر
وكم مثلها من غمة قد فرجتم ومن دولة هيضت ، وأنتم لها جبر

وبعد أن يطيل فى سرد مناقب الممدوح يعود إلى مألوفه من الاستجداء وبيان فضله وشعره من مثل قوله :

وهل ضائع حق ومجدك شاهد بفضلى وسلطانى على مالك الشعر
أعد نظرة تشجى الزمان بريقه يراش بها المحصوص أو يجبر الكسر (٢)

ومن مطولاته فى أبى القاسم رائيته التى مطلعها (٣) :

أدمعـــك أم عارض ممطر أم النفس ذائبـــة تقطر

وتقع فى مائة وثلاثة عشر بيتا وقد نظمها سنة ٤٢٦ .

واللامية التى أولها (٤) :

مالى شرقت بماء « ذى الأثل » هل كدره الوراد من قبلى ؟

---

(١) المجر : الجيش العظيم .
(٢) ديوان ج ٢ ص ١٢٤ .
(٣) ج ٢ ص ٣٣
(٤) ج ٣ ص ٢٠٦

والنونية التى ابتداؤها [١] :

أدرك ما شاء غلام فطنا   إذا نبت به بلاد ظعنا

والحائية التى استهلالها [٢] :

من الغادى تحط به وتعلو   نجائب من أزمتها الرياح

والرائية التى استفتاحها [٣] :

بالغور ماشاء المطايا والمطر   بقل نخين ونمير منهمر

والديوان مرجع فيها لمن أراد .

. . .

ومن هؤلاء الممدوحين آل « الصاحب أبي القاسم بن عبد الرحيم » ، وكان نقيب النقباء على جيوش الأتراك فى جميع أنحاء الدولة ، وهو مركز له خطره ويظهر أنه هو وآل بيته — وهم فارسيو الأصل — كانوا من أكثر الناس عطفا على مهيار كما كان مهيار مخلصا فى مديحهم ، ولست بمغال إذا قلت بأن أجود مدح مهيار الطوال كانت فيهم ، فمدح عميدهم أبا القاسم بنحو من ثلاثين قصيدة ، ثم مدح من آله زعيم الدين الحسن ، وكمال الملك أبا المعالى ذا الرياستين وزعيم الملك أبا الحسن ، وعميد الدولة أبا سعد [٤] الذى وزر ست مرات متفرقة لجلال الدولة ، مما يدلك على جاه بيت بنى عبد الرحيم الذى خص مهيار عمداءه بالكثير من مدحه ، وقد زاد من حبه لهم أنهم فوق عطفهم عليه كانوا شيعة — وقد لاحظنا أنه كان حريصا — إذا مدح أحدهم — على التعرض لمدح آله مدحا يدل على عميق الحب وصادق الوفاء كقوله من لاميته فى مدح كمال الملك أبي المعالى [٥]

---

(١) ج ٤ ص ٨٤٠ .
(٢) ج ١ ص ٢٠٥ .
(٣) ج ١ ص ٤١١ .
(٤) ومن ألقابه شرف الدين ، وعميد الكفاة .
(٥) ج ٣ ص ١٠٩ .

جَرَوْا فمن سابِق مجلٍّ ولاحقٍ الأيطَلَين(١) تالى
يَنظمونَ العُلا اتِّصالاً نَظمَ الأنابيبِ فى العوالى

ونطقت « بالحسين » منهم شهادة فى « أبى المعالى »

ومن أخرى فى عميد الدولة أبى سعد(٢) :

ببنى « عبد الرحيم » انفسحت طرق حاجاتى على ضيق السُّبُلْ
تهت فى الناس بهم وجه آمالى فيمَّمتُ القِبَلْ
كرماءٌ حيثما كشّفتهم سادة المكثرِ إخوانُ المقلّ
نقلوا السُّوددَ فى أظهُرِهم كلُّ ظهر مثلما طاب نَسَلْ
كابراً عن كابرٍ يبتدر الـمَجدَ منهم مقبل بعد مُوَلْ

وحدث أن أقصى عاهلهم الصاحب أبو القاسم عن منصبه ، وشغل بغيره ، ثم ردت إليه النقابة ، ونوه باسمه ، وزيد فى محله ، وخلع عليه فنظم الشاعر قصيدة رائعة يهنئه بها مطلعها(٣) :

حسبوا العلا خفا وكن ثقالا فتكلفوها ظالعين(٤) هزالا

ومنها :

دل الملوكَ عليكَ كونكَ رِشدةً لهم وكون العالمين ضلالاً
قد جربوا فرأوك أثقب منهمُ زنداً وأرجحَ فيهمُ مثقالا
وإذا همو وجدوا السيوف قصيرة فى موطن وجدوا خطاك طِوالا

ومن جيد ما مدح به زعيم الملك أبا الحسن رائيته المشهورة(٥) :

وفى لى بك الحظ الذى كان يغدر وصح لى الدهر الذى يتغير

---

(١) الأيطل : الخاصرة .
(٢) ج ٣ ص ٧٣ .
(٣) ج ٣ ص ٥٨ .
(٤) الظالع الذى فى مشيه غمز كالعرج .
(٥) ج ٢ ص ٩٩ .

وسالمنى صرف القضاء وبيننا فلول المواضى والقنا المتكسر
وحسنت ظنى بالزمان وأهله فأصبحت أرجو وصل ما كنت أحذر

ومنها فى ذكر صفات الممدوح :

غلام إذا ما عُدّ أعداد سنه ويوم قضاء الحزم شَيْخٌ موقّر
تمرن طِفلاً بالسيادة مُرضَعاً يدر عليه خِلفُهَا ويُوفر
له من مقامات الملوك صدورها يقــدّم فيها إذنه ويؤخر
له من سرايا رأيه ولسانه إذا نازل الأقران جيش مظفر

وفى ختام القصيدة يعلن مهيار فى صراحة أنه متجر بأشعاره ، معتمد عليها فى الكسب وذلك حيث يقول .

ولا عدم المدح الموفى أجوره بكم وهو فى قوم سواكم مسخر
مواسم فى أبياتكم بعراصها تحط ، وعنها فى الثناء تُسَيّر
إذا زارك النيروز عطلا فإنه يُطَوّقُ من أبياتها ويسَوّرُ
وغاليتُ فى أثمانها فشريتها ربيحا فظن الغمرُ أنك تخسرُ
إذا المرء أعطانى كرائم مالِه ليأخذ شعرى فهو مِنى أشعرُ

وسترى فى مناسبات مختلفة العجب العاجب من ثناء الشاعر على آل عبد الرحيم .

وممن ظفر « مهيار » بعطاياهم ، وظفروا بدر ثنائه — عميد الرؤساء أبو طالب محمد بن أيوب الذى استوزره الخليفة القادر بالله من (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) ومن بعده وزر لابنه الخليفة القائم بأمر الله ، فأظهر فى خدمة الخليفتين كفاية وإخلاصاً ، وإلى ذلك يشير مهيار فى رائيته التى يهنىء بها أباطالب بالمهرجان والتى مطلعها « نفَّرَهَا عن وِرْدِهَا بحاجر »[1] حيث يقول موجها قوله إلى ذلك الممدوح :

---

(١) ج ٢ ص ٦٣ .

لم تسد الناس بحظ غالط ... متسفق ولا بحكم جائر
ولا وزرت الخلفاء عرضا ... بل عن يقين من عليم خابر
ماهزك « القائم » حتى اختبرت ... بالجس حدثيك « بين « القادر »
خليفتان اصطفياك بعد ما ... تنخلا سريرة الضمائر

ومنها فى ذم أسلافه من وزراء الخلفاء :

وجربا قبلك كل ناكل ... فعرفا فضل الجراز الباتر [١]
بأكل مال الله غير حرج الـ ... ـصدر بما جر من الجرائر
فانعم بما أعطيت من رأيهما ... وكاثر المجد به وفاخر

ولمهيار فى عميد الرؤساء نحو خمس وأربعين قصيدة ما بين مدح وعتاب وتهنئة بعيد أوحج . . . حتى ليعتبر ابن أيوب بحق أوفى ممدوحيه نصيباً من أشعاره .

وله فيه رائية رقيقة مرحة بدأها بذم خلق الزمان . فى جملة أبيات تعرضنا لها فى باب الشكوى .

وبعد ذلك يسأل الله أن ينصفه من أولئك الذين لايثيبونه على مدحه بقوله[٢] : —

الله لى منتصف من أخ ... يكيلنى بالعرف إنكاره
يحمى لسانى أبداً عرضه ... ويبتغى فى عرضى الغاره
فليته صان مكانى كما ... صان عن البذلة ديناره

ثم يخلص من ذلك إلى مدح العميد وآله فيقول : —

لولا بنو أيوب لولاهم ... ماوجد المظلوم أنصاره
قوم إذا استنجدتهم لم أخف ... سهماولو ناضلنى « القاره » [٣]
وبت فيهم حيث لايؤكل الجـــار ولا تنتهـــك الجاره
البيت لاينكر طراقه ... والليل لا يعدم سماره

(١) الناكل الجبان الضعيف ، والجراز الباتر السيف القاطع .
(٢) ج ٢ ص ٨٤ .
(٣) قبيلة مشهورة بالرماية .

والجفنات الغر يسنى(١) لها　　كل غضوب الغلى هدّاره
ترى الجزور العبل(٢) فى قلبها　　أعشاره تلعن جزاره

ومنها فى أبي طالب من بيان مجده وإخلاصه للخلافة بصيانه أموالها وحفظ أسرارها وغيرة على الدين :—

أبلج ود البدر لو صُيّرت　　لوجهه عمته داره
موله المجد فلم يكترث　　إقلاله المال وإكثاره
سالمه واحذر صافياً ماءه　　وهجه واحذر صاليا ناره

° ° °

قام بأمر الله مستخلف　　كنت لجرح الدين مسباره
أرهف من نصحك صمصامة　　بيضاء مثل البدر نيّاره
أخرست الفتنة عن ملكه　　بالأمس والفتنة نعاره
وزارة حصنت أمواله　　فيها كما حصنت أسراره

وفى الختام يبين أن قصائده تقنع بأن تنصف ، ثم تطلب المزيد ، وأنها لصدقها فى الممدوح الذى قدرها حق قدرها تعتبر بمثابة الكفارة مما قاله فى غيره كذبا ولعله يقصد بكذبه أنه وصف سوى الممدوح بالكرم وليس فيهم لأنهم لم يدفعوا ثمن مدحه وذلك يستخلص من قوله فى تقريظ أشعاره

يقنعها الإنصاف لو أنصفت　　وتطلب المال وإكثاره
وإن صدق فيك أعتده　　من كذبي فى الناس كفاره(٣)

° ° °

ومن هؤلاء الممدوحين :—

الرئيس أبو الحسن محمد بن الحسن الهمانى ، وكان واليا على البصرة

---

(١) يسنى : يرفع
(٢) العبل الضخم .
(٣) يشبه ذلك قول ابن الرومى مخاطبا ممدوحه بعد أن يئس من ثوابه :
فابعث إذن ثمن الطرس الذى كتبت　　فيه الصحيفة أو كفارة الكذب

والنهروان ، مقاطعة جنوبي بغداد ، جاء فى ابن الأثير [١] فى ذكر من توفوا سنة ٤٠٨ ه‍ ، وأبو الحسن الهمانى وكان متولى البصرة وغيرها وهو الذى مدحه مهيار بقوله :—

« أستنجد الصبر فيكم وهو مغلوب » ١ — ه‍ — وكانت بين مهيار وبينه صلات متينة ، وصداقة قديمة ، فمدحه بقصائد كثيرة منها الميمية التى مطلعها « عجبت لحر النفس كيف يضام » [٢] .

ومنها فى فضل الممدوح :—

أبا حسن أمطرت منى دوحة تطول وتنمى والغمام جهام[٣]
وأسمنت أيامى فعدن بدائنا وهن جلود من ضنى وعظام

ممدوحون آخرون :—

وهناك ممدوحون آخرون يضيق عنهم الحصر نذكر منهم على سبيل الإجمال ، سعد الملك أبا الحسن بن حاجب النعمان ، وقد ورد ذكره فى تاريخ بغداد واسمه على بن عبد العزيز بن ابراهيم ، ولد سنة ٣٤٠ ه‍ وتوفى سنة ٤٢١ ه‍ ، وأيد ابن الأثير ذلك وزاد عليه قوله [٤] « وكان خصيصا بالقادر بالله ، حاكما فى دولته كلها وكتب له وللطائع أربعين سنة » ١ — ه‍ — وكان لسنا بليغا ومن مدائح مهيار فيه البائية التى مطلعها :

لعلها واليأس منها أغلب * إن نأت اليوم غداً تستقرب

ومنها فى الدلالة على ان نيل العطاء ليس أقصى منى المشاعر فالمودة من أسمى معانيه : —

---

(١) ج ٩ ص ١٢٧ .
(٢) الديوان ج ٣ ص ٣٥٤ .
(٣) الجهام السحاب لا مطر فيه .
* الديوان ج ١ ص ٨٨ .
(٤) ج ٩ ص ١٧١ ابن الأثير .

أرضيتني عن الزمان بعدما حرق أضلاعي عليه الغضب
أغنيتني قبل اللهى مودة والود عندي خير مال يوهب

ومنهم بنو مزيد حكام جهة الحلة والنيل ومن أشهرهم ، سند الدولة أبو الحسن على بن مزيد ، ومن أبنائه أبو قوام ثابت بن مزيد [١] ، ونور الدولة أبو الأغرديس بن على بن مزيد ، وأبو الذوّاد المفرج بن على بن مزيد .

ومنهم من الكتاب أبو الحسين أحمد بن عمر النهرواني [٢] ، وأبو منصور ابن على بن المزرع [٣] ، وأبو الحسن المختار بن عبد الله الذهبي [٤] .

ومنهم أبو الحلات شبيب بن حماد من أمراء الجند ، وأبو طاهر بن حماد ، وأبو المعمر الموفق على ابن اسماعيل

ومنهم بنو دبيس حكام الجزيرة الدبيسية بجهة خوزستان ، وأشهرهم شهاب الدولة منصور بن الحسين بن على بن دبيس .

ومنهم أبو محمد بن مكرم حاكم عمان من قبل بهاء الدولة ، وأبو القاسم ابن مكرم ، وأبو الوفاء كامل بن مهدى ، إلى غير هؤلاء من الرؤساء والوزراء ، والفقهاء والوجهاء والكتاب والولاة ممن يضيق المجال عن الإفاضة فى ذكرهم .

ممدوحه ملك :

والملكُ الوحيد من بني بويه الذى مدحه ، مهيار ، وتقرب منه هو ركن الدين شاهنشاه جلال الدولة بن بهاء الدولة الذى تولى العراق بعد أخويه سلطان الدولة ومشرف الدولة وتمت الخطبة له ببغداد سنة ٤١٨هـ فى أواخر

(١) الديوان ص ١٦٦ ج ١ .
(٢) الديوان ج ١ ص ١٨٤ .
(٣) ج ١ ص ١٣٠ .
(٤) ص ١٦١ ج ١ .

أيام الخليفة القادر ، وظل هذا الملك إلى سنة ٤٣٥ ﻫ ومع ضعف « جلال الدولة » واختلال أمور الدولة فى عهده ، فقد كان ميالا للأبهة أجبر الخليفة « القائم بأمر الله » على أن يلقبه ملك الملوك — وبعد تردد أجابه إلى طلبه مجبراً ، وتم ذلك سنة ٤٢٩ ﻫ [١] أى بعد موت مهيار ، ومع ذلك فقد ورد هذا اللقب فى شعره .

وكثيراً ما ثار الأتراك على هذا الملك وأقصوه عن داره ، وأخرجوه من بغداد أكثر من مرة — روى أبو الفداء المؤرخ المشهور ما ملخصه : أن شغباً أحدثه الأتراك ببغداد ضد جلال الدولة سنة ٤٢٣ ﻫ ونهب الجند داره فخرج من بغداد إلى عكبرا ، واستدعوا « أبا كاليجار » ، وهو ابن أخيه سلطان الدولة وصاحب فارس والأهواز ، ولكن تم الاتفاق وعاد إلى بغداد بفضل جهود أبي القاسم هبة الله المعروف بابن ماكولا — وجاء فى ابن الأثير فى أخبار[٢] سنة ٤٢٠ ﻫ ما يفيد أن أبا كاليجار احتل « واسط » بعد « البصرة » ، وأن جلال الدولة سار إليها واسترجعها ودخل الأهواز ونهبها ثم عاد إلى بغداد بعد الاستيلاء على واسط سنة ٤٢١ ﻫ ومدحه المرتضى ومهيار وغيرهما وهنئوه بالظفر ، — وجاء فيه أيضا فى أخبار سنة ٤٢٨ ﻫ[٣] ما يفيد أن « بارسطغان » حاجب الحجاب دبر مؤامرة ببغداد ضد جلال الدولة وعمل على الخطبة لأبي كاليجار ولكن المؤامرة فشلت لتخلى الديالمة عن نصرة الحاجب فعاد جلال الدولة إلى بغداد بعد هربه إلى (أوانا) .

وقد كان شعر مهيار فى الملك ركن الدين يدور حول هـذه الأحداث — وقد تقدم أن أشرنا إلى قصة حبس جلال الدولة له ليلة عند الكلام على

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٩١ .
(٢) ج ٩ ص ١٥٥ .
(٣) الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٨٨ .

نشأته ، ثم إطلاق سراحه ، ومدح الشاعر للملك وإشارته إلى تلك القصة التى أطنب فى بيان افتعالها ، على أنى أرجح ترجيحاً أقرب إلى اليقين أن تلك اللامية(١) كانت باكورة امداح الشاعر لشاهنشاه وذلك بدليل ما ذكر فى عنوانها « من أن جلال الدولة كان قد استبطأ منه خدمة مجلسه بالشعر واستنكر ما يستعمله مع خدمة أوليائه من المدح وما يخل به من فروض خدمته » .

وهناك غيرهما أمداح أخرى أهمها تلك القافية التى نظمها بمناسبة المهرجان ويشير إلى الفتنة التى كانت سنة ٤٢٨ والتى وقف فيها أبو كاليجار موقف العقل والحزم فلم يستغل مناداة حاجب الحجاب باسمه فى بغداد ويعرض الشاعر لهزيمة سنة ٤٢١ التى كانت درسا واعظا لابن الأخ فى عدم مجابهة العم وهى قافية يغلب أنها كانت آخر مدائحه بدليل إشارتها إلى حوادث السنة التى مات فيها ومطلعها (٢) :—

إذا لم أحظ منك على التلاقى ... فما بالى أروع بالفراق

ومنها يمدح نفسه ويدل على صاحبته بفضله وأدبه حتى يتخلص إلى الممدوح ، ثم يفخر بأن يكون من مادحيه :

أنا الجارى إذا الحلبات طالت ... مراكضها على الخيل العتاق
نفضت طريقها شوطا فشوطا ... وسلم لى بها قصب السباق
فمن ذا يبتغى فى الفضل سبقى ... وقد يئس السوابق من لحاقى
وحسبك ما بدالى من نفاذى ... إلى ملك « الملوك » ومن نفاقى
بركن الدين سالمنى زمانى ... وأطلقت الحوادث من وثاقى
فهما أبق يسمع سائرات ... مطبقة من الكلم البواقى
تكون له مطارب فى غدايا الصبو (م) ح وفى عشايا الاغتباق

---

(١) بالديوان ج ٣ ص ١٩٤ .
(٢) ج ٢ ص ٣٤٩ .

حمى الدنيــــا فثبت جانبيها صليب لا يروع بالصفاق[١]

ومنها فى الممدوح مع الإشارة إلى حادثة خوف «أبي كاليجار» من العودة إلى الحرب :

ألا أبلغ ملوك الأرض أنا على «الزوراء» فى العيش الوفاق
وكم ملك جليل ند عنا فطاح على ذوابلنا الدقاق
عسفناه وآخر قد ملكنا مقادته بلطف وارتفاق
وأبصر رشده ابن أخ شقيق[٢] فطاوع أمرنا بعد الشقاق
رأى طعم العقوق بنا مريراً فبر ودله صـــدق المذاق
تذكرها على «الأهواز» شعثا نزائع بين خرق[٣] أو مراق
وناشد بالقرابه فانعطفنا له عطف الغصون على الوراق
فنصرا يامليك الأرض نصراً على رغم المحايد والملاق

وبعد ذلك يذكر المهرجان وانه يوم كسرى الذى اشتق له اسما من اسم الشمس ثم يعتز بفارسيته ويعتبر الممدوح محييا عظمة الأكاسرة مرضيا لهم فى ثراهم — ويختمها بعد ذلك بالدعاء للمدوح بطول العمر فى مبالغة بالغة : —

تدرج فى السنين تعد ألفا وترجع بعد فى أولى المراقى
إلى أن تصبح الخضراء ماء ويفنى النيران وأنت باق

ومن مدائحه فيه أيضا قصيدة عينية مطلعها[٤] : —

فى كل دار عدو لى أقاذعه وعاذل أتقيه أو أصانعه

ومنها فى شغب الترك ضد ملكهم وكفرانهم أنعمه مع أنهم عبيده أولاهم عطفه وأضفى عليهم اينه وفيضه : —

---

(١) الاضطراب .
(٢) هو أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة .
(٣) الخرق : الفلاة .
(٤) ج ٢ ص ٢٥٠ .

أما ترى ملك الأملاك خاونه　　عبيده وعنت كفرا صنائعه
ثعالب تتعاوى ساقها وعل　　لضيغم لم تزعزعه زعازعـه
رأوا ولاءك وسما فى جباههم　　فذلهم لك إن عزوا طوابعه
وكيف تعصى رقاب أنت مالكها　　ملاك اليمين وسيف أنت طابعه

وبعد أن يطنب فى هذا التقريع يبين للممدوح أن هذه ليست أول ثورة للترك وليس شغبهم هذا أول الأحداث التى صادفته - فقدمنى بالكثير من أمثاله ثم نجّاه من تلك المكايد رب يرعاه وسعة صدر تحليه :—

راموك والله رام دون ماطلبوا　　وهل يفرق شمل وهو جامعه
كم قبل ذلك من فتق منيت به　　والله من حيث يخفى عنك - راقعه
ضاقت جوانبه واشتد مخرجه　　وأنت فيه رحيب الصدر واسعه

ثم يطلب عفو ملك الملوك عن الأتراك متوسلا بسابق خدمتهم كأنه يترضاهم فيشير إلى أنهم أقرب إلى الفرس من العرب مودة :—

فهب عبيدك للمعطيك طاعتهم　　فأنت فى العفو عن عاصيك طائعه
واعطف عليهم فهم أنصار دولتكم　　بيأسهم كل خصم أنت قامعه

ومنها فى بيان ثبات الملك فى بيت ركن الدين بن بهاء الدولة بن عضد الدولة ابن ركن الدولة :—

وهل يقوض بيت من رجالكم　　عماده وبأيديكم مجامعه
وركن دولتكم، بالأمس أوله　　وأنت ياركن دين الله رابعه

ثم يصفه بالكرم والشجاعة فيقول :—

كأن مالك شخص أنت مبغضه　　فأنت مقصيه بالجدوى وقاطعه
آثار جودك فيمن أنت منهضه　　آثار بطشك فيمن أنت صارعه

ومما مدح به مهيار جلال الدولة الرائية المشورة وهى آية فى الرقة ومطلعها :—

بطرفك والمسحور يُقسم بالسحر　　أعمدا رمانى أم أصاب ولا يدرى؟

فليرجع إليها من شاء [١] .

تعليق على أمداح « مهيار »

بينا لك أيها القارىء أن مهيار قال الشعر مادحا مجاريا شعراء عصره ، ونظم القوافى وسار بها متكسباً — شأنه شأن غيره — ثم ألقينا لك ضوءاً على تلك الشخصيات التى استدر بأمداحه عطفها ومعذرة إذا أفضنا فى ذلك فما قصدنا إلا أن نقنعك بما اقتنعنا به حتى تؤيدنا فيما أمكننا استخلاصه من ملاحظات على مدح مهيار نُجملها لك فيما يلى : —

أولا — وضع « مهيار » لنفسه دستوراً فى شعره ومدحه يفصله هولك فى قوله من قصيدة يمدح بها « كمال الملك أبا المعالى بن عبد الرحيم [٢] » : —

والشعر صنه فالشعر يحتسب الله — إذا لم يُصَنْ على الشاعر (٥)
لا تمتهنه فى كل سوق فقد — تربح حيناً ويبعك الخاسر
أنظر إلى من ؟ وفى مدائح من — أنت — وقد بات نائماً — ساهر
غال به واستَمّ [٣] المهور الثقيلات — وصاهر أكفاءها صاهر
واحن عليه فإنه ولد — أبوه قلب وأمه خاطر
صَرِّفه فيما يرضى العلاءُ به — ويَعْمُرُ العرض بيته العامر
إما لفخر يصدّق النسب الحر (م) — ويحيى ذكر الأب الدائر
أو لأخ يشفع الوداد بما — يرضيه منه بالفذ والنادرْ

---

(١) الديوان ج ٢ ص ٧٥
(٢) ج ٢ ص ٩٥
* ومثل ذلك قوله فى كامل بن مهدى مشيرا إلى صيانة شعره (ج ٣ ص ١٨٧)
والشعر عندك من أقل ذرائعى — فيما أروم ومن أدق وسائلى
ولقد ذعَرْتُ عن الرجال سوامه — ورفعته عن كل بيت نازل
ومنعته منع الغيور بناته — من أن أدنس صونه بمباذل
(٣) استام البائع السلعة بمعنى عرضها وذكر ثمنها .

أو ملك رُحت منه فى نعم أنت لها لامحالة شاكر

فهيار فى هذه الأبيات يبين نهجا نكب عن سلوكه إلى حد ما ، لأنه أعلن وجوب صيانة شعره عن موارد الضعة والامتهان بمدح من ليسوا أهلا للمدح ، ولكنه امتهنه فى كل سوق ، وقرر استيام ثقيل المهور لمدحته ثم عاد فأرخصها وجعلها ثمنا لاستهداء جبة — وقال بأن الشعر يجب أن يصرف فى الأغراض التى ترفع من شأنه — وما أظن شعره فى ذم بعض الناس وتصريحه بطلب العطاء وإحياء سورة الشعوبية مما يرضى العلاء به — أما الجزء الذى يبينه البيت الأخير من منهجه فهو ما قد تمسك به من حيث الغاية وهى طلب النعمة من الممدوحين — لا من حيث الوسيلة لأنه لم يقصر ثناءه على الملوك المنعمين عليه ، ولكنه مدح غير الملوك من الرؤساء والكتاب ومنهم بعض زملائه فى الكتابة : —

وليس مهيار أول شاعر أعلن منهاجا ثم حاد عن جادته — فهذا أبو نواس تبرأ من ذكر الديار وبكاء الرسوم حيث يقول : —

لا تبك رسما بجانب السند ولا تجد بالدموع للجُرُد
ولا تعرج على معطلة ولا أثاف خلت ولا وتد
ومِل إلى مجلس على شرف وبالكرخ، بين الحديق معتمد
منضّد صففت أرائكه فى ظل كرم معرسٍ نضد

ولكنه لم يسلم مع ذلك من بكاء الأطلال والاستفتاح بذكر الديار : —

وامرؤ القيس أبو الشعراء ملأ فى صباه شعره حماسة وفخرا ومجونا وصلفا ، ثم اضطر أخيراً إلى مدح الملوك وبعض رؤساء العرب سائلا إياهم العون . — وهكذا تتغير مناهج الرجال تبعا لتغير تيار الحياة الجارف لآمالهم ، الجادع لمعاطس كبريائهم .

ثانيا — ونلاحظ كذلك أن أمداح مهيار تنقسم قسمين تبعا لممدوحيه القسم الأول فى أولئك الذين تربطه بهم آصرة الجنسية ، كبنى عبد الرحيم،

وكامل بن مهدى ، وهؤلاء خصهم بطواله الجياد ، وكان معهم متخشعا هينا ، تبدو فى شعره سمة التذلل ، ونبرة الزلفى هذا إلى إطنابه فى تقريظهم وإشاعة محاسنهم ، وتأدبه فى مخاطبتهم ، والتماس العذر لهم إذا تغاضوا عنه ، ولا يجد على نفسه غضاضة أن يكون عبدهم المنيب ، ويلحق بهذا القسم من بكرت صلتهم به من أمثال الكافى الأوحد وابنه أبى القاسم سعد ومحمد بن أيوب وغيرهم . ممن رغب فى برهم أو خشيهم لعظيم سلطانهم « ببغداد » .

والقسم الثانى ، فى الرؤساء والولاة والوزراء ومَن إليهم من غير الفرس ومدائحه فى أكثر أولئك أقل طولا وأقل جودة كأنها غير صادرة عن خالص حب ، وكان يكثر فيها من الفخر بنفسه ، والاعتزاز بشعره ، وربما تهدد بعضهم إذا لم يجزل عطاءه ، واليك بعض قصيدته فى الأمير « أبى الذواد المفرّج بن على بن مزيد » ، وكان كاتب الممدوح « أبو نصر بن عبدر الكوهى » قد طلب من الشاعر أن يمدح سيده ووعده بعطاء نام عنه الوفاء . فقال تلك القصيدة التى ظاهرها المدح والعتب وباطنها التقريع والتحقير والاتهام ومطلعها : (١)

ألا يا خليلى المُجتبى من «خزيمة» ... هل انت أمين إن أمنت على سرى

ومنها فى تمجيد شعره ومعاتبة الممدوح على عدم مكافأته واعتباره شعره منهوباً لأنه لم يوف أجره :

يغار على الأموال فى كل حلة ... وفتيان «عوف» قد أغاروا على شعرى
سلائب لى منهوبة فى رحالهم ... ينادين بالخيبات من حَلَقِ الأسر
همو خطبوها راغبين وسوَّدوا ... عليها نفيسات من البذل والوفر
فلما غدت مجنوبة فى حبالهم ... تواصوا عليها بالخيانة والغدر
فعرّج عليهم ثم قل « لمفرج » ... أترغب فى مدحى ، وتزهد فى شكرى ؟

(١) ج ٢ ص ٢٣ من الديوان

ومنها فى أسلوب إلى التهديد أقرب مخاطباً أبا الذَّوَّاد :

فإن تقتنوها (١) بالجميل تكن لكم ... حصوناً على الأحساب من أنفس الذخر
وإن تغصبوها تمس فى غير حيّكم ... تشكّى اضطراراً أو تكلم عن عذر

وأى استهانة بعد قوله :

أيا نجم «عوف» يامفرجَ كربها ... أما آن لى أن يخجل المطل من صبرى
حملت التقاضى عنكم مهلة لكم ... فأنظرتكم فى العسر فاقضوا مع اليسر

ثم يخاطب «العَبدرىّ» الوسيط الذى اقترح على الشاعر مدح أبى الذواد :

وأغريتنى حتى إذا ما ولجتُها ... تأخرت عنى والعقابُ على المغرى
فقم يا أبا نصر قيام ابن حرة ... بنصر صديق أنت أوقعته حر
وقل للأمير ابن الأمير نصيحة ... تربَّص بخيرى واحترس من أذى شرى

فمهيار فى تلك القصيدة يكشف عن خسة وتبذل ، وجشع مزر بالكرامة فى سبيل طلب المال كما أنه قليل التورع ناضب ماء الحياء ، وأولى بمثل ذلك الأدب المجتدى فى تهديد أن يتوارى من دواوين الشعر أمام قول أبى الطيب :

ومن الخير بطء سيبك عنى ... أسرع السحب فى المسير الجهام

على أن مهيار لم يستعمل ذلك الأسلوب مع ممدوحى القسم الأول ، وأين ذلك من قوله فى أبى القاسم بن ماكولا من نفس المعنى :

وإن مسنى لذع الجفاء وطال بى ... فرب جفاء فى مدارجه عذرُ
وقد أمكن الإنصاف والجود فرصة ... إذا أعوزت فى العسر قام بها اليسر
وهل ضائع حقى ومجدك شاهدٌ ... بفضلى وسلطانى على مالك الشعر

ومن قوله فى زعيم الملك بن عبد الرحيم :

فاسمع ظلامة نافث لم تكفه ... سيف الزمان نزاهة وعفاف

---

(١) الضمير يعود على قصائده التى عبر عنها بالـلائب المنهوبة .

إن فاته استئنافكم إنصافه غضبت له حرماته الأسلاف

وإنه لمما يزيد من لوم الشاعر على هـذا التناقض وتلك التفرقة بين ممدوحيه قوله فى أبى الذواد المفرج نفسه من قصيدة دالية عصماء(١) :

فتى بيتُه للطارقين وسيفُه لهام العدا والمال للمتزود
ويوماه إما لاصطباح سُلافةٍ تصفق أو داعى صباح مُلَدد
وفى بشروط الملك وهو ابن مهده وَسُوِّد فى خيط التميم المُعقد
وجاد على العلات والعامُ أشهبٌ بأحمر من خير الرحال وأسود

ثالثاً : نستطيع أن نستنبط من رائية الشاعر المتقدمة فى المفرج أنه كان شرها يرخص كرامته من أجل المـال ، ويكيف أمداحه التكييف الذى يضمن له الحصول عليه ، وأنه كان له وسطاء يقترحون عليه الثناء، ويهيئون له العطاء ، يؤيد ذلك ما سبق الأيماء إليه من أن فخر الملك أرسل إليه دنانير أغار عليها الوسيط حتى استقلها الشاعر — وهذه الوسيلة تدلنا على إمعان الرجل فى الاتجار بشعره ، وكثيراً ما أشار مهيار فى مدائحه إلى أن الممدوح أغرم بشعره أو قرظه ، ثم يردف ذلك بطلب الثواب فى تصريح لاتعرف العفة إليه طريقا . كقوله مخاطبا المفرج من داليته المتقدم ذكرها:

أتانى من الأنباء أنك مغرم بفضل مديحى عارفٌ بتوحدى
حبيب إليك أن تَزفَّ عرائسى عليك تَهادى بين شادٍ ومنشد
متى ماتجد لى عند غيرك غادةً مخدرة تغبط عليها وتحسد
فقلت كريم هزه طيبُ أصلهِ وواحد قوم شاقه مدح أوحد

٠ ٠ ٠

متى تجزِ هـا الحسنى بحق ابتدائها . . . تزرك بِعينٍ تملأ السمع عُوَّد

(١) يغلب أنها هى التى نظمها ولم يعط عليها إذ جاء بالديوان أن الشاعر أنفذها إلى الممدوح سنة ٤١٩ هـ بعد أن أطيل سؤاله فى ذلك — الديوان جـ ١ ص ٣٠٦ .

فأى عاطفة يحملها بين جنبيه شعر متجول كأنه السّلعة الكاسدة يعرضها ملح لجوج ؟

أليس من العجيب مع ذلك أن تجد كثيراً من عظاء هذا العصر وقادته مقبلين على تلك السلعة سائلين صاحبها شيئاً منها كأبي الحلات شبيب بن حماد[١] وكأبي ماكولا[٢] ، والشريف أبي على عمر بن محمد السابسى[٣] وأبي طاهر بن حماد[٤] عميد الحضرة ، والأمير نور الدوله بن دبيس بن على ابن مزيد[٥] ؟

وأليس من العجيب أن يبلغ الحرص بالشاعر أن يُسعد فى عيد واحد أكثر من مدحة ليضمن أكثر من عطاء ؟

رابعاً : لم يمدح مهيار أحداً من الخلفاء العباسيين ، ولم يمدح كذلك من ملوك بنى بويه سوى جلال الدولة ، وقد أشرنا إلى حادث سجن الشاعر وأنه قد يكون الداعى إلى مدح هذا الملك — الذى كان حظه من مدح الشاعر قليلا إذا قيس بأمثال أبي طالب أيوب ، وأبي القاسم بن عبدالرحيم ، وعميد الدولة أبي سعد ، وكمال الملك أبي المعالى وغيرهم .

ويمكننا أن نعلل لعدم مدحه الخلفاء بما يأتى :

١ — تشيع مهيار لدرجة التّطرّف ، جعله ينظر إلى بنى العباس نظرة سخط وكراهية ، لاعتباره إياهم معتدين على حق أحفاد « على » الذين تشيع لهم وامتزج دمه بحبهم ولا يرد ذلك أن الشريف الرضى أستاذه قد مدح الخليفة القادر وغيره مع أنه من أقطاب الشيعة ، وينتمى إلى بيت أمير المؤمنين الرابع بأواصر القربى ، لأن الرضى وبيته نالوا حظوة لدى

---

(١) جـ ١ ص ٩٨

(٢) جـ ١ ص ٤١١

(٣) جـ ١ ص ٢١٣

(٤) جـ ١ ص ١٠٣

(٥) جـ ١ ص ٣٨٦

خلفاء بنى العباس لم تكن لغيرهم من فروع الدوحة العلوية ، باستثناء « على الرضا » — ولأن حقده على بنى عمومته قد اصطدم بحقد أكبر على أولئك الأعاجم أعداء العرب الألداء السالبين لنفوذ الخلفاء ، والمنتهكين لحرمتهم والمستبدين بالأمر دونهم ، هذا إلى مانال « أبا أحمد » أباه على أيديهم من سجن وحرمان ، ومن أمثال عامتنا « مع ابن عمى على الغريب » .

٢ — وإذا لاحظنا أن مهيار شاعر متجر بشعره حريص على أن يقصد الأشخاص الذين تروج لديهم بضاعته مع قدرتهم على نقده رَبيحَ الثمن — أدركنا ومن غير كد السبب الذى جعله يصدف عن مدح خليفة محدود الموارد لاغناء عنده ، ولا نوال يرجى منه .

٣ — ثم إن المدح كان إذ ذاك وسيلة الاسترضاء والملق ، ولم يكن مهيار بحاجة إلى تملق خليفة ضعيف يسيره الأمراء والوزراء حسب أهوائهم .

كما يمكن التعليل لعدم مدحه غير جلال الدولة من أمراء بنى بويه وقد عاصر منهم قبله فى بغداد بهاء الدولة وسلطان الدولة ومشرف الدولة ، بأن هؤلاء الملوك لم يكونوا متذوقين للأدب تذوق أسلافهم . ومهيار كان غالباً يخص بشعره من يقدرونه حق قدره ، فلو أنه حضر مثلا عهد عضد الدولة لمدحه — وقد يعترض علينا معترض بأن الشريف قد مدح شرف الدولة الذى أُطْلِقَ سراحُ أبيه المُوسَوِى على يديه كما مدح بهاء الدولة لأنه كان يجامل الشريف ويترضاه، ولأنه فيما يظهر كان بخلاف من جاءوا بعده يتفهم الأدب إلى حد ما — على أن مدح الشريف لبهاء الدولة لا يَسْتَوْجِبُ مدح مهيار له لأنه كان فى ذلك العهد لا يزال قليل الخطر فى ميدان الشعر .

وقد يكون من علل عدم مدح مهيار لملوك بنى بويه — بخلهم عليه إذا قورنوا بغيرهم من الوزراء والولاة والعمداء والرؤساء ، يؤيد هذا ماعرف من خلو خزائنهم من المال وثورة الجند ضدهم يطلبون أعطياتهم مراراً .

على أنى أمكننى بعد كثرة التقصى أن أدرك أن « مهيار » بالرغم من

جعله المادة رائده الأول — قد قصر أكثر أمداحه على أشخاص معروفين أما بتشيعهم أو انتمائهم بالقربى للبيت العلوى ، أو بجُدَ بهم عليه ، أو بأدبهم وتذوقهم شعره ، مع قصده إلى تنخل الكرماء من كل طائفه .

° ° °

خامساً : ومن الملاحظ أن مهيار فى أمداحه يعتبر شاعر المناسبات ، ومؤرخ الأحداث فى عصره فقلما تولى وزير أو أمير أو وال أو كاتب أو رئيس أو قائد ، أو صارت إلى أحد أولئك نعمة أو طلعت عليه رتبة بدون أن يمدحه ويهنئه ، وكان للأعياد الفارسية من تهانيه النصيبُ الأكبر وهى النيروز والمهرجان والسدق[1] ، وما قامت فتنة ولا أخمدت ثورة إلا عرض لها فى شعره ذامًا مقيمها مادحا مقعدها ، ومن هنا يصح اعتبار شعر مهيار صورة كاشفة لحياة عصره ، مصورة لاخلاق ناسه فى صدق وإحكام .

° ° °

سادسا — ومن خصائص شعر صاحبنا فى المدح أنه يندر أن تجد قصيدة منه خالية من ذم الزمان والشكوى من تخلى الإخوان ، والتعريض أو التصريح بحاجته ، ويظهر أن لاعتماده على المديح مورداً للرزق . وتأثره بأدب المتشيعة أثراً فى ذلك ، على أن الرجل فيما يبدو من قوله كان يرى أن الأديب مهضوم الحق ، وأن الغنى والأدب لا يجتمعان كقوله من مدحته فى أبى « المعمر بن الموفق » على بن اسماعيل :

شدَّ ما منى غروراً نفسه تاجر الآداب فى أن يربحا
أبداً تبصر حظاً ناقصاً حيثما تبصر فضلا رجحا
والمنى والظنُّ باب أبدا تغلقُ الأيدى إذا ما فتحا

---

(١) السدق — ليلة أشتهرت باحياء الفرس لها بالألعاب النارية .

وكقوله من قصيدة يمدح بها محمد بن أيوب :

انظر إلى الأقسام ما تأتى به إذا أردت أن ترى عجيبا
تجمع بين الماء والنار يد وما جمعت الرزق والأديبا

كما يبدو أنه كان لايقنع مهما أعطى ، ولم يكن يوماً ماراضياً عن الناس فهو من أجل طلب المال ساخط متبرم ، حاقد ضجر ، وكان أشد ما يؤلمه من المشغوفين بثنائه أن يراهم منقبضين عن إعطائه وفى ذلك يقول :

قد خبرت الناس خُبرى شِيمى بخلاءُ وتسموا سُمحا
يشتهون المال أن يبقى لهم فلماذا يشتهون المِدحا

سابعاً — ومن الإنصاف أن نسجل لمهيار فى المدح طول نفسه ، وضخامة إنتاجه ، وتنوع معانيه التى لم تخل من الابتكار والتصرف مع رقة فى الأسلوب ، وجزالة فى اللفظ — يبدو ذلك فى مثل قوله من قصيدة فى « كمال الملك » يمدح آل عبد الرحيم :

ولدتهم أم الفضائل إخوة متشابهين أصاغراً كأكابر
كالراح كل بنانها منها وإن بان اختلاف أباهم وخناصر

وكقوله من نونيته فى أبى نصر سابور بن أردشير :

أهنت شعرى أبغى الرزق من نفر تسبيح أسمحهم : يامال لا تهن :
فدارس الفهم وحشى أخاطبه كأننى خاطب فى دارس الدمن
وغافل لى صوت المدح يطربه بلا ثواب فيرضى بى ويسخطنى
بذلت عِرضى لأعراض أسيرها فيهم فنبههم بذلى وأخملنى

وكقوله فى عميد الكفاة أبى سعد معرضاً بعدوه ويمدحه :

تمنى تماما فيكم وهو ناقص وطاولكم بالكبر وهو مَهين
وأطمعه فيكم وفور حلومكم وبشر لكم عند اللقاء ولين
ولم يدر أن الزند أملسَ ليناً يُمَسُّ ، وجسم النار فيه كمين

* * *

ثامناً — ظهرت شعوبيته فى تضاعيف شعره المدحى كقوله فى بنى عبد الرحيم :

وما كل حصباء البحار جواهر ولا كل أعضاء الجسوم عيون
ولا المجد إلا دوحة فارسية لها من بنى «عبدالرحيم» غصون
إذا سئلوا لم ينكتوا بعصيهم ولم يعتفوا بالعذر وهو مُبينُ

° ° °

تاسعاً — نظام المدحة فى شعر مهيار . إذا رجعت إلى قصيدة « مهيار » فى مدح الوزير المغربى التى أولها « هل عند عينيك على غُرَّب » رأيت الأغراض الآتية :

الابتداء بالنسيب — ثم ندب الحظ والتبرم بالحياة — ثم الاتجاه إلى الممدوح وسرد مناقبه وإطراء آله — فمقارنة الممدوح بعظماء العرب وأجوادهم — ووصف الناقة وإسداء النصائح اليه — ثم بيان حاجته فى تذلل — وإطراء شعره .

وقد يتقدم بعضُ هذه الأغراض الآخرَ فى مدحة مهيار . وقد يهملُ بعضها . وقد يزاد عليها بعضُ الأغراض ، من شكوى الزمان ، والسخط على الحساد . إلى غير ذلك من ألوان العتاب الطريف ، والهجو العفيف ، وربما تخلل المدحة بعض الأبيات فى الافتخار ، وبعض آخر فى الاعتذار . يضىء من خلال ذلك كله حكمة بالغة أحياناً

وتنوع الموضوعات فى مدحة مهيار ، من نسيب وفخر ، وثناء وهجاء ، وشكوى وعتاب ، واستجداء ووصف . وما إليها يمكن تعليله بطول المدحة إذ من الصعب أن ينظم الشاعر ما يقرب من مائة وخمسين بيتاً فى موضوع واحد ، لأن ذلك فضلا عن تعذره ، يدعو إلى الملال .

الهجـــاء

كان فى قدرة مهيار أن يكون هجاء لاذعا — لأن هذا الغرض وثيق الارتباط بالمدح ، وهل المدح إلا تنضيد عقود من كريم الفضائل يبدو الممدوح للناس بها حاليا ، والهجو إلا سلب المهجو تلك الفضائل أو إسناد نقيضها إليهفيبدو المذموم منها عاطلا ؟؟ — إنه كما يستطيع البانى أن يكون هادما كذا يستطيع المادح أن يكون هاجيا — ولكن مهيار لم يكن من الهجائين السابقين مع سبقه فى المدح — وقلما تجد متكسبا بشعره تكسب « مهيار » يعطى مرة ويمنع أخرى فيمدح معطيه ولا يذم مانعه .

إنك لا تكاد تجد لهذا الشاعر هجاء صريحا فى باخل رده ، أو إقذاعا — فى هجو نظمه — مع أن البيئة الاجتماعية فى عصره كانت محدودة الفضائل والفضلاء كثيرة السفه والسفهاء ، ولكن لا تعجب من أن يكون صاحبنا مخالفا لناموس البيئة فى تلك الناحية فقد كان هناك ناموس أقدس هو ناموس العقيدة والشريعة ارتبط به على يد أعف أهل زمانه لفظا وأقلهم فى الأسلوب هجراً وهو الشريف أستاذه . على أن أكثر أدباء الشيعة كانوا على سيرة أولئك المعنيين بقول حسان : —

أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم لا يطمعون ولا يزرى بهم طمع

على أننا لا نستطيع أن نجرد مهيار من هذا الغرض تجريدا كاملا — لأنه هجا مدفوعا بأحد عاملين : —

أولهما عامل العقيدة ، فقد جره تشيعه إلى حرب شنها عليه السنيون وغيرهم — فرد عليهم ولكن فى غير إسفاف . فكان هجوه خاليا من قارص الكلم وموجع السباب — كما حمله هذا التشيع على هجو أعدائه فيه بما فيهم كرام الصحابة — وقد ضربنا لك الأمثال على ذلك عند الكلام عليه كشاعر للشيعة .

وثانيهما عامل المادة : فكانت الحاجة تدفعه لهجو الزمان وهجو من كشف عنهم من أعداء فى أثواب أخلاء لتخليهم عنه فى أحرج الساعات .

كما كانت الحاجة تدفعه إلى هجو الذين قصدهم آملا بل أوامه من ماء عطاياهم فإذا هو سراب خيب مرتجاه ولكن فى تعميم دون تخصيص كقوله فى ذم المثرين البخلاء من بائيته فى مدح عميد الحضرة ذى الرتبتين أبى طاهر بن حماد [١] : —

أمدح المثرين ظنـاً بهم ربما يقمر بالظن الكذوب
كل وغد الكف منبوذ الحبا طيب المحضر مسبوب المغيب
يمنع الرفـد وتلقى وفده قحة البخل بإدلال الوهوب
يطلب المدح لأن يفضحه وهو قبل المدح مستور العيوب
قلت للآمال فيـه كذبت أمه — إن كنت آمالى تخيبي
جلب الأرض عريض دونه وسرى العيس وإدمان اللغوب

وكقوله فى ذم حاسدى فضله من قصيدة فى أبى الحسن أحمد بن عبد الله والى البطيحة [٢] :

أغراهم أنى فضلتهـم ما أولع النقصان بالفضل
خفت مخالبهم وما خدشت حد الصفَاة أكارع النمل
إن عيبونى صادقين فهم من كل ما اخترصوه [٣] فى حل
حسدوا إبائى وعزتى وهُمُ نُهبى الهوان وأكلة الذل
والله أغلانى وأرخصهم ما شاء وهو المُرخص المُغلِي

وكانت أهاجى مهيار فى جملتها تأتى فى تضاعيف المديح ، وهى على قلتها رقيقة أشبه بالعتاب منها بالسباب ، وأميل إلى التلميح عنها إلى التصريح .

---

(١) ص ٤٠٣ ج ١

(٢) ص ٩٣ ج ٣

(٣) اخترصوه — لفقوه

الرثـــاء

إذا كان هنـاك رباط وثيق يربط الهجاء بالمدح فإن رباط الرثاء به أوثق، وعلاقته به آكد، فإن الرجل الذى يفرح برذاذ العطايا فتهتز عاطفته ويجود خياله بعاطر الثناء على كريم أخصب عيشه بعد إجداب، ثم هو بحكم شاعريته مرهف الحس، الخير مهما صغر يطربه، والشر مهما تفه يحزنه، إن رجلا هـذا شأنه جدير أن يبكى بلسان الوفاء ممدوحيه إذا أفلَتْ أنجُمُهُم، كما شكر فى حياتهم بلسان الثناء أنعمهم.

لقد كانت أسباب عيش الشاعر متعلقة بأولئك الذين أطفئوا ببرد عطاياهم غلته، وأجابوا إذ دعتهم لهفته، فإذا ما عصف الموت بواحد منهم انبت من آماله سبب، وأحس انقباضاً فبكى شعاع أمله فى شخص المرثى، وعلى ذلك يكون وحى العاطفة فى مقام الرثاء أصدق منه فى مقام الثناء، على أن أبا الحسين الديلمى قد أجاد الرثاء أول ما انفتق بالشعر لسانه، وكان من بواكير شعره تلك المراثى التى يكاد ينسكب منها الدمع فى رثاء أهل البيت الأطهار.

لقد عاش مهيار ممتداً به العمر حتى رأى الموت يطوى أحب الناس إليه، وأكثرهم حدباً عليه ممن يعتز بهم من أمثال الشريف الرضى، ووالده أبى أحمد الموسوى، وخاله أبى الحسن بن الناصر العلوى: من الأشراف وأمثال الكافى الأوحد، والصاحب أبى القاسم بن عبد الرحيم، وأبى الحسن ابن عبد الله، وعميد الجيوش أبى على بن أستاذ هرمز من الوزراء والأمراء، وابن نُبَاتة السعدى من الشعراء، وأبى الحسن الهانى من الكتاب

ومن جيد مراثيه مرثيته فى الكافى الأوحد أبى العباس الضبى، وقد عرفنا ما كان له على الشاعر من أياد ومنها (١): —

(١) الديوان ج ٣ ص ٢٧

ما للدسوت وللسروج تسائل　　من قائمٌ عنهن أو مَن نازلُ ؟
ما للجياد صوافنا ، وصوامتا　　نكساوهن سوابق وصواهل ؟
ما للسماء عليلة أنوارهـــا　　لمن السماء من الكواكب ثاكل ؟
المجد فى جدث ثوى أم كوكب الـــدنيا هوى أم ركن ضبة مائل ؟
خطب أخل الدهر فيه بعقله　　والدهر فى بعض المواطن جاهل

والقصيدة تفيض بالحزن ، وتنطق بالحسرة ، وهى فوق ذلك متينة مشبعة بالمعانى مما يدل على وفاء الشاعر لرجل شجعه على الإسلام ، وكان أول من مدوا له يد العون .

ومن مراثيه البارعة تائيته فى الصاحب أبي القاسم ومطلعها : —

قفا نِضوَيكما بالغمر نسأل　　حفيا أين مثوى المكرمات [١]

ومنها يتحسر على فقده ، ويبين أنه قد خسر بموته أسمع مجيب لسؤاله ، كما يشير إلى موت المرثى مقتولا : —

ومن لى يزحم الأيام عنى　　وقد هجمت على مصمات ؟
ومن ذا قائل خذ أو تحكم　　إذا أنا قلت هب أو قلت هات
وما أنا والعزاء وقد تَقَضَّت　　حياة تستمد بها حيـــاتى
أصاب السيف منك غرار سيف　　وحط بك الفرات إلى الفرات
لقد واسيتنى فى العَيْشِ دهراً　　فما لى لم أواسِكَ فى الممات ؟

ومن مرثيته فى أبي الحسن الهمانى [٢] :

أُعَشُّ بآمالى كأنى أنصحُ　　وأبق لأشقى بالبقاء وأفرح
وأصبو إلى وجه من الدهر مسفر　　ضحوك ووجهى فى الخمار مكلَّحُ

ومنها فى الموت :

تطامنت أرجو أن أفوت لحاظه　　فأخنى وعين الموت «زرقاء» تلمح

---

(١) النضو = المهزول من الأبل — والحفى — العالم الذى يعلم الشيء باستقصاء — وهى بالديوان ج ١ ص ١٥٩

(٢) ج ١ ص ١٩١

وقد غرنى ليل الشباب فأين بى ... أضل وفجر الشيب عريان مصبح؟
وأقرب شيء من قضيب جفوفه ... إذا الورقات الخضر ظلت تصوحُ

ورثى مهيار شخصية لم يظفر بعطائها فيما يغلب ، تلك هى شخصية عميد الجيوش أبى على أستاذ هرمز وقد كان أبوه من حجاب « عضد الدولة » وكان المرثى مثال التنعم ومحج الشعراء فى حياته التى كانت سلسلة مفاخر ، فهو الذى حارب « قرواش بن المقلد » أمير بنى عقيل حين خطب ببلاده فى (الموصل والأنبار والمدائن والكوفة) للحاكم بأمر الله العلوى حتى خضع لعميد الجيوش واعتذر ، وولاه بهاء الدولة « خوزستان » ، كما تولى إمارة الجيوش وشئون بغداد ، وهو الذى أخضع ثورتها سنة ٣٩٢ هـ ، ومع أنه كان متشيعا إلا أنه فى سبيل إخماد الفتن المذهبية ببغداد قد منع الشيعة والسنيين من إعلان مذاهبهم سنة ٣٩٣ هـ ، ويروى أنه منذ تولى بغداد انتشرت الهيبة وماتت الفتن ، وقد توفى سنة ٤٠١ هـ وعمره تسعة وأربعون عاماً ، فعمت بموته الفجيعة ودفن بالمشهد بباب التبن .

وإنما اهتممنا بذلك المرثى وتلك المرثية لأنها تكشف لنا فى شعر مهيار عن ناحيتين :

أولاهما : أنه لم يكن مقصور التفجع على أولئك الذين أعطوه ، بَلْ تعداهم إلى من عرفوا بنباهة الشأن والأصلاح وحب الخير العام ومنها قوله (٥) :

ما « للعراق » عقيب صحته اشتكى ... سقما يجاذب من ذيول الشام
أأصيب بالشمس الضحى أم خولست ... فِيها الليالى البيضُ بدرَ تمام

٥ ٥ ٥

بشراك ياساعى الفساد وغبطة ... ذهب المقوم يابنى الإجرام

ومنها فى الإشارة إلى أنه يبكيه وإن لم يظفر بموهوبه : —

---

* ج ٣ ص ٣٤٩ .

إن لم يكن لى منك يوم خصنى   فلقد علمتك صالح الأيام

وثانيتهما — أنه لم يغفل عن التنويه بمجد الفرس والفخر بهم كآباء حتى فى معرض الرثاء حيث يقول : —

ولقد أعد إذا بكيتك صادقا   فى الحافظين وواصلى الأرحام
أصلى وأصلك فى مقر واحد   وتفاوت الفرعين بالأقسام (١)
وإذا تشجرت (٢) المناسب والتقى الـ   ـفخران كان أبوك من أعمامى
شرف وصلنا حبله فى فارس   بالمحكمين مرائر الإبرام (٣)

ثم يبين مهيار أن مرثيه نال أكبر الشرف بدفنه بمقابر أهل البيت وأنه سينزل بصحبتهم الجنة بسلام — إذ يقول : —

فتحوا ضريحك فى مساكن تربة   جاورتها فختمت خير ختام
ونزلت فى مضر وقومك غيرهم   بعد الممات بأشرف الأقوام
أنى التفت فأنت فى حرزين من   حرمى شهيد سيد وإمام
أصبحت منهم بالنزول عليهم   يا رحب ما بوئت من إكرام
فإذا تزخرفت الجنان غدا لهم   صاحبتهم فدخلتـم بسلام

٥ ٥ ٥

وليس موضع عجب أن يكون رثاء مهيار لأستاذه الشريف أقوى ما أنتج فى هذا الغرض — فإن أبا الحسن بن الحسين الموسوى كان أول من نبه من شأنه ورفع من ذكره ، وقوم من لسانه وصقل من أدبه ، فوق كونه كان للفضل أهلا وفى كرم النسب عريقا — أجمع أهل عصره على تقديره ولم يكن لينازعه مكانه من الاحترام والمهابة سواه .

وقد رثاه تلميذه ابن مرزويه بقصيدتين تعتبران من أروع المراثى فى

---

(١) الأقسام — الحظوظ
(٢) التشجر — الاشتباك
(٣) المرائر — الحبال محكمة الفتل

الشعر العربي لصدورهما عن عاطفة كليمة ، وتأثر غير مفتعل ، فدلتا بحق على وفاء التلميذ للأستاذ والناشيء للمنشيء . أما أولاهما فمنها :

من جب غارب « هاشم » وسنامها[1] ولوى « لؤيا » فاستزل مقامها[2]
وغزا « قريشا » « بالبطاح » فلفها بيد وقوض عزها وخيامها
وأناخ في « مضر » بكلكل خسفه يستام واحتملت له ماسامها
من حل مكة فاستباح حريمها والبيت يشهد واستحل حرامها ؟
ومضى « بيثرب » مزعجاً من شاءمن تلك القبور الطاهرات عظامها ؟
يبكى « النبي » ويستثيج « لفاطم » « بالطف » في أبنائها أيامها[3]

° ° °

ومنها جامعاً بين التفجع عليه والكشف عن مناقبه : —

كلح الصباح بموته من ليلة نفضت على وجه الصباح ظلامها
صدع الحمام صفاة آل محمد صدع الرداء به وحل نظامها
بالفارس العلوى شق غبارها والناطق العربي شق كلامها
سلب العشيرة يومه مصباحها ورمى الردى عمالها علامها
برهان حجتها الذى بهرت به أعداءها وتقدمت أعمامها

ومنها في بيان فضل الشريف على الشعر وفي تشجيع الشاعر : —

وغريبة مسحت يداك مؤانساً منها النفور ومفصحاً إعجامها
حمست حتى قيل صب دماءها وغزلت حتى قيل صب مدامها
ماتت بموتك غير ما خلدته في الصحف إذ أمددته أقلامها
قد كنت ترضانى إذا سومتها تبعا وأرضى أن تسير أمامها
وإذا سمعت حمدت صفوى وحده وذممت غش القائلين وذامها[4]

---

(١) جب — قطع ، الغارب الكاهل — ما بين السنام والعنق
(٢) الديوان ج ٣ ص ٣٦٦
(٣) الطف — شاطيء الفرات الذى قتل عنده الحسين
(٤) الذام : العيب

فتركتنى ترك اليمين شمالها ... فرداً أعالج فاتلا إبرامها

والقصيدة طويلة قوية تكاد ترجف نبراتها الأكباد شجنا. وتذيب القلوب حسرة، وقد بالغ الشاعر فى تمجيد الشريف تمجيدا أغضب حساد الرضى، فى حياته، وحساد مهيار. واتهموه بالسرف فى تقريظ المرثى، وكان من بين هؤلاء من شارك مهيار رثاء أستاذه بشعر متكلف أضعف مما كان يرجى منه، فتألم وأراد أن يزيد من غيظهم، فنظم مرثية أخرى دالية لا تقل عن تلك الميمية فى قوة معانيها ومتانة سبكها ومنها [١] : —

بكر النعى فقال أَرْدِى خيرُها ... إن كان يصدق، فالرضى، هو الرَّدِى

عادت أراكة، هاشم، من بعده ... خَوَرَاً لفأس الحاطب المتـــوقد

فُجِعَت بمعجز آية مشهودة ... ولرب آيات لها لم تُشْهِدَ

كانت إذا هى فى الإمامة نوزعت ... ثم ادعت بك فضلها لم تُجْحَدِ

* * *

بكت السماء له وودت أنها ... فقدت غزالتها ولما يفقـــد

والأرض وابن الحاج سدت سبله ... والمجد ضِيمَ فماله من منجد

ومنها فيمن رثوا الشريف بأقل مما يستحق، وبيان معاداة بعضهم للشاعر بعد موت أستاذه : —

ورثيت حتى لو فرقت مُمَيِّزا ... رائيك من هاجيك لم تَستَبْعِدَ

كانوا الصديق رددتهم لى حسدا ... صلى الإله على مكثر حسدى

ويختمها بالدعاء للشريف فى قبره فيقول : —

لا غيرتك جنائب [٢] تحت البلى ... وكساك طيب البيت طيب الملحَد

وقربت لا تبعد وإن عُـلالة ... للنفس زورا قولتى لا تبعد

---

(١) ج ١ ص ٢٥٠

(٢) جمع جنوب وهى ريح تقابل الشمال.

ومن جياد مراثيه فى أبى الحسين أحمد بن عبد الله الذى ربطته بالشاعر صلات ومودة وكانت وفاته بواسط سنة ٤١٣ هـ والتى مطلعها[١] : —

نعم هـذه يادهر أم المصائب فلا توعِـدَنّى بعدها بالنوائبْ

ومنها فى التفجع على المرثى وبكاء حظه بعده : —

سددت طريق الفضل من كل وجهة وملت على للعلياء من كل جانب
أبعد ابن «عبد الله» أحظى براجع من العيش أو آسى على إثر ذاهب؟

وفى الموت وذم الدنيا فى أرق ما يكون أسلوباً وأصفى ديباجة : —

سل الموت هل أودَعتُه من ضغينة تَـنَـقَّـمَ منها فهو بالوتر طالبي ؟
له كل يوم حول سرحى غـارة يشرد فيها بالصفايا النجائب
سلافة إخوانى وصفوة إخوتى ونخبة أحبابى وجل قرائبى

° ° °

عجبت لهذى الأرض كيف تلمنا لتصدعنا والأرض أم العجائب
نُطَارَدُ عن أرواحنا برماحنا ونطرب من أيامنا للحرائب
وتسحرنا الدنيا بشبعة طاعم هى السقم المردى، ونَهْلة شارب
أحـدث نفسى خاليا بخلودها فأين أبى الأدنى واين أقاربى ؟
ولا كنت إلا واحدا من عشيرة ولا باقيا فى الناس إلا ابن ذاهب

° ° °

ولم يقصر مهيار مراثيه على ممدوحيه وإخوانه فرثى أم أحد أصدقائه كما رثى بعض العلماء وحاكى أستاذه الشريف الذى كان يرثى بنات أصدقائه فرثى ابنتى «أبى الحسين بن روح» النهروانى وقد توفيتا فى مدة قريبة بقصيدة قوية الأسر موشاة بجامع الحكم ومنها[٢] : —

على أى أخلاق الزمان أعاتبه وما هو إلا صَرْفه ونوائبُه

---

(١) ج ١ ص ٥٥ .
(٢) ج ١ ص ٧٢ .

تفرى أديمى[١] وهو بُـتْرٌ شفارة ... وجافت جروحى وهو صم مخالبه[٢]
شغلت يدى حينا بعد ذنوبه ... وزدن فقد تاركته لا أحاسبه
فلا هو إن أطريته قابض يداً ... ولا خائف عارا بما أنا عائبة
نصحتك لا تخدع بسنة وجهه ... فشاهده حسن تشوه غائبه
ولا تتمهد قعدة فوق ظهره ... فما هو إلا ضيغم أنت راكبه

. . .

ومنها مخاطبا المعزى فى ذلك الخطب الفادح :

سقتك[٣] بكأس أدهقت لك ثانيا ... ولما يفق من أول بعد شاربه
فقرح ، وقرح لم تلاحم ندوبه ... ودمع ، ودمع ما تعلق ساربه

. . .

رزئتهما شمسين أقسم فيهما ... ظلام الأسى الا تجلى غياهبه
يعدون خرقاً بالفتى فى بناته ... إذا ما بكى أو ذل للحزن جانبه
وكم من كريم عزه نجباؤه ... فعز بما ساقت إليه نجائبه
وبعض البنات من بها يتنج العلا ... وبعض بنى الإنسان فى الحى عائبه

والبيتان الأخيران فيهما أثر الإبتكار مع فخامة أسلوبهما ورقة ألفاظهما ولقد جاء بما فيهما من معنى لطيف فى قالب من الحكمة أخاذ ، ولا يقل عنهما جلالا هذان البيتان اللذان ختم بهما تلك المرثية وهما :

عتبت على دهرى فسهل عذره ... ـ بأنك باق ـ كل ما هو جالبه
إذا سلم البدر التمام فهين ... على الليل أن تهوى صغارا كواكبه

وقبل أن نختم ضرب الأمثال لمراثى مهيار نود أن نلفت النظر إلى ما سقناه مبسوطاً من مراثى الشاعر فى أهل البيت عند الكلام على شعره التشيعى.

---

(١) تفرى أديمى : اشق جلدى .
(٢) جافت : بلغت الجوف ، وصم جمع أصم وهو الصلب المتين .
(٣) الفاعل فى سقت ضمير يعود على الأيام فى البيت قبله .

تعليق على الرثاء فى شعر مهيار

كان مهيار فى المديح طروبا حتى فى اختيار الأوزان ، أما رثاؤه فيكشف لنا عن ناحية أخرى من شخصيته لأنه يبدو لنا فى ثوب الحزين الباكى ، والوادع الشاكى ، والناقم على الدنيا ، المتبرم بتصاريف الأقدار ، الهازىء بالحياة ونعيمها .

وقد كانت مراثيه — إلا ما شذ — من بحرى الطويل والكامل وهما يمثلان فى بطء حركاتهما بطء الجنائز فى سـيرها ، كما امتازت تلك المراثى بقصرها بالنسبة للمدائح وبخلوها من المقدمات الطوال حتى كانت مطالعها منبئة بموضوعها ، كما كانت ألفاظها فخمة تتفق وجلال الغرض وهيبته وتراكيبها متينة محكمة البناء تصيب كبد المعنى المراد .

ورثاء مهيار يدل على وفاء وصدق عاطفة ، وشدة تفجع ، مما يدل على صدوره عن لب كليم ، وقلب تكسرت فيه النصال على النصال .

ولعل الذى ساعد ذلك الشاعر على النبوغ فى هذا الفن نبوغاً محسوساً ، أنه حاوله بحكم تشيعه مبتدئا فكان أول الأغراض التى مرن عليها لسانه ، واتسعت على مدارجها آفاق شاعريته كما أنه — شأنه شأن أدباء الشيعة — حزين بطبعه ، ساخط على الحياة وعلى تصاريف الأقدار بحكم مذهبه ، وقد يكون من أسباب ذلك إخلاص الرجل لذوى الأيادى عليه ممن ذكرنا لك الكثير منهم ، كالكافى الأوحد ، وآل الصاحب بن عبد الرحيم فكان لزاماً عليه أن يبكى لبكاء من فرح لفرحهم ، وأن يسكب دموع الوفاء على من وفوا له فى حياتهم :

ومن سر أهل الأرض ثم بكى أسى   بكى بعيون سرها وقلوب (١)

هذا وقد ظهر أثر الحكمة فى مراثى مهيار أكثر من ظهورها فى أى غرض آخر من شعره كقوله :

---

(١) إن البيت للمتنبى فى تعزية سيف الدولة فى مملوكه .

ففى العيش ما يحتاج فيه إلى الردى وفى العيش مايحتاج فيه إلى الصرم
وفى الأخوة الجافين أبناء علة وفى الأجنباء الأصفياء بنو أم

وقوله :

ولاعلم لى من أى شِقَىْ مصرعى وفى أيما أرض يُخَطّ لجانبى

الغزل فى شعر مهيار

الغزل هو الغرض الشعرى الأول الذى تتجلى فيه عبقرية الشعراء ، وهو الغرض الأول الذى يتمشى مع فطرة الشعر وملكته ، إنه ابن العاطفة البكر ، وترجمانها الصادق ، يصدر عن طبيعة ويتألف عن وحى من الخاطر . منزه عن الغرض بعيد عن الغاية ، وقد يكون من الشذوذ أن نجد شاعراً مبدعاً لم يعالج هذا الفن السامى يصور فيه ميوله ويصف هواه وإن اختلف سبب الهوى — وليس الشعراء فى هذا الغرض سواسية ، ولاهم فى اتجاهاتهم به نظراء ، وما من شك فى أن الغزل أول أغراض الشعر العربى نشأة وبخاصة إذا صح ما يقال من أن نواة ذلك الشعر كانت الأراجيز يتغنى بها العربى مودعاً من هجر من الأحباب ومخففاً عن راحلته بعض وعثاء السفر الطويل .

ومن أعجب العجب أن يتخذ القدامى النسيب بسملة للقصائد فى شتى الأغراض ، ولا سيما المديح . وأى علاقة مثلا بين وصف الجواد والسحاب والبروق وبين فاطمة امرىء القيس أو بين وصف حرب عبس وذبيان . ومدح ابن عوف وابن سنان وبين أم أوفى زهير ، وما الصلة بين الاعتذار لسيد المرسلين وسعاد كعب — إنه تقليد أصبح طبعا وناموسا يندر أن يشذ عنـه شاعر وأرجو ألا يكون فضولا منى أن أتعرض لذكر علته فالشاعرية إحساس يهيجه التحنان ومعاودة ذكريات الهوى ، وقد يركد هذا الإحساس فيجف معين الخيال وتذبل نضرة الوجدان فيصعب على الشاعر إذا عالج نظم الشعر فى غرض غير طبيعى كالمديح أن يظفر بمواتاة

شاعريته وقد يقف جامدا لا يكاد يجيد قولا فيعمد إلى شحذ خياله وسن شبا عاطفته بمعالجة الغزل لما تستلزم من إثارة الحنين ولم شتيت الأخيلة وعرض صحف من الذكريات تتزاحم بتزاحمها المعانى فى أجمل حللها اللفظية كأنها الأبكار فى ميدان انتخابى للجمال فإذا أحس الشاعر قدح زناد إحساساته تسلل فى لباقة إلى غرضه — موضوع القصيدة فإذا العصى طيع والجديب خصيب والشارد مذلل .

والشريف الرضى وتلميذه مهيار تغزلا وافتتحا قصائدهما المدحية بالنسيب كغيرهما من الشعراء . إلا أن غزلهما كان من ذلك النوع العفيف الخالى من دنس الريبة وشيات الإثم على الرغم من البيئة التى عاشا فيها وكانت مملوءة بمظاهر الاستهتار والعشق والمجون ومعاقرة الصهباء حتى فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء .

أما « الشريف » فبحكم منزلته فى المجتمع ومنصبه نقيباً للطالبيين كان كذلك ولا عجب أما « مهيار » فكونه كذلك هو موضع العجب لأنه خالف سلوك شـــعراء العصر المداحين وكانوا فى جملتهم منهومين بالشراب لا يستحيون أن يفحشوا فى غزلهم ، وليس لدينا من تعليل لتلك العفة عند صاحبنا فى غزله سوى الملازمة الطويلة للشريف مما جعله يشب على مثاله ، مع الإلقاء بنفسه فى ميدان الخصومات المذهبية مما أكثر من أعدائه والدهم له السنيون وكلهم كان يتلمس فيه الغميزة فحرص هو على تجنب مزالق الشبه ومظان الاتهام ، وكثيراً ما كان « مهيار » يتمدح بعفته فى غزله من مثل قوله :

وﷲ نفس من نهاها عذولها ... ومن صونها يوم « العذيب » رقيبها
لكل محب حين يظفر ريبة ... فسل خلواتى هل رأت ما يريبها[1]

---

(١) ج ١ ص ٤٨ .

وكقوله فى موضوع آخر :

أراجع لى بضمان الهوى «ملحوب» أو ماضم «ملحوب»؟
وصالحات من ليالى الحمى ما شابها إثم ولا حوب؟

وما أحسن فى هذا المعنى قوله :

وكريمة الأبوين أطرق بيتها والليل بابن سمائه متوضح[٢]
وعلى من تُوبَق هواى وعفتى شوق يبل وخلوة لا تقبح

ومهيار وإن اشترك مع الشعراء فى افتتاح مدائحه بالنسيب إلا أنه امتاز بالإطالة فيه حتى لتجد له فى أول المدحة منه ما يصح أن يكون قصيدة مستقلة مع تنويع فى المعانى ورقة فى الأسلوب وانتقاء للألفاظ ، وحسن اختيار للأوزان المرقصة من البسيط ومخلعه والمتقارب والرجز والمضارع .

وإن نظرة إلى نسيب هـــذا الشاعر لترينا أنه كان يميل إلى منهج «ابن أبى ربيعة» و «عبد الله بن عمر المعروف بالعرجى» فى ذكر قصص مفتعلة عن تعلقه بقاصدات الحج الطائفات بالبيت وإن اختلف عنهما فى البعد عن الأفحاش والتفاخر بأثام الهوى — وكان مجاريا فى ذلك للشريف الرضى الذى اشتهر بحجازياته فى الغزل ومن أمثلة ذلك فى شعر ابن أبى ربيعة قوله :

أبصرتها ليلة ونسوتها يمشين بين «المقام» و «الحجر»
بيضا حسانا نواعما قطفا يمشين هونا كمشية البقر

ومن أمثلته فى شعر العرجى قوله[٣] : —

عوجى علينا ربة الهودج إنك إلا تفعلى تحرجى
نلبث حولا كاملا كلــــه ما نلتقى إلا على منهج
فى الحج إن حجت وماذا «منى» وأهله إن هى لم تحجج

---

(٢) ج ١ ص ٢١٤ .

(٣) الأغانى ج ١ ص ٤٠٦ .

أيسر ما نال محب لدى　　بين حبيب قوله عسرج
نقض إليكم حاجة أو نقل　　هل لى مما بى من مخرج

ومنه فى شعر الشريف قوله : —

تذكرت بين «المأزمين» إلى منى　　غزالا رمى قلبي وراح سليما
لئن كنت أستحلى مواقع نبله　　فإنى ألاقى غِبَّهن أليما
أصاب حراما بنشد الأجر حسبة　　فما عاد مأجورا وعاد أثيما
فلو كان قلبي بارئا ما أَلِمْتُه　　ولكنَّ أسقاما أصبن سقيما
قنصت ه «بجمع» ، شادنا فرحمته　　وأخفق قناص يكون رحيما

ولقد برع مهيار فى تصوير ما صوره هؤلاء فى أرق لفظ وأنزه معنى حيث يقول [١]

يا من رأى «باللوى» بُرَيقاً　　تقدح نيرانه الجنوب
كأن ما لاح منه وهنا　　على شباب الدجى مشيب
حدثنى بالغضا حديثا　　سَرَّ على أنه خلوب
لا وليال على «المصلى» [٢]　　تسرق فى نسكها الذنوب
وما رأى «الخَيْف» [٣] من هنات　　يغفرها المالك الوهوب
وخلوات بأم سعد　　ما بعدها لذة تطيب
لولا لماها لما سقانى　　«بزمزم» ما سق القليب
ماذا على محرم «بجمع»　　وسهمه من دمى خضيب
وكيف والصيد ثم بَسْلٌ [٤]　　تصاد بالأعين القلوب

وأبدع من ذلك غزله فى مقدمة رائيته فى مدح كمال الملك ويقينى أن إطالتى فى الاستشهاد به لن تصادف من القارىء ملالا قال [٥] :

هل لقتيل على «اللوى» ثائر　　أم هل لليل المحب من آخر ؟

(١) الديوان ج ١ ص ٨٥ .　(٢) المصلى اسم موضع .
(٣) الخيف موضع قرب «منى» .　(٤) بسل : حرام .
(٥) ج ٢ ص ٩٤ .

أم الفتى جائد ببهجته ... على بخيل بقوله عاذر
خاطر فى حب ظالم لم تجز ... قط له رحمة على خاطر
يحسب كل الأبدان يوم «منى» ... بدن الهدايا تحل للعاقر
له من القتل باعث لا يقا ... ويه من الحزم والتقى زاجر
إذا كريم عفا لقدرته ... أغراه بالشر أنه قادر
بمحصب، وادى الجمار، يستغفر الـ ... ـله ومن للدماء بالغافر
كل حصاة بتراء تنبذ بالـ ... ـوادى حسام من كفه باتر
عز قبيلى وخانى وأنا الـ ... ـمظلوم فى حبه بلا ناصر
لو كان فى «بابل» رضاباً وألحا(م) ... ظا لقت الخمار والساحر
تاجر هواه وثق بذمته ... تكن شريك المقمور لا القامر[1]
يلقاك من قده وإمرته ... يوم التقاضى بالعادل الجائر
ولا تسم الهجر الملال وعش ... بالفرق بين الملول والهاجر
حجر عليك الأطراب بعد ليا ... ليك اللواتى انطوت على «حاجر»
ذلك عهد نامى بشاشته ... أسعد حظا به من الذاكر
كم عثرة بين «زمزم» لك والمشـ ... ـعر لا يستقيلها العاثر
أفسدت فيها فريضة الحج بالذ ... ل لغير المهيمن القاهر
فأنت بين الأحرام والحب للأ(م) ... صنام لا مؤمن ولا كافر
تخضع منها لصورة فطرت ... ويخضع المختبون[2] للفاطر
حسبك كان الشباب يستر من ... نفسك ما الشيب ليس بالساتر
قد آن أن ينفع الملام وأن ... تلزم فى العدل طاعة الآمر
غاب الشباب المغرى وقد حضر الشـ ... ـيب نذيراً والحكم للحاضر

فأنت ترى الشاعر فى تلك الأبيات رقيق الحاشية واسع الخيال جميل التصوير إلى أبعد حد حتى ليندر أن يدانيه أحد من المتقدمين أو المتأخرين

---

(١) المقمور المغلوب فى لعب القمار، والقامر الغالب. (٢) المخبت: المطمئن إلى ربه.

فى تلوين مثل تلك الصورة الرائعة ، كما تلمح عفته وطهره من خلال ألوانها.

قد يبدو لبعضهم أن غزل مهيار صناعى بحت ونحن نوافقهم إلى حد ما فهو صناعى من حيث أنه قصص مردد لا يعتمد على حقيقة من نفس مهيار الذى ذكر لنا محبوبات متعددات وأماكن قد لا تكون وطئتها قدمه ، وهو طبيعى من جهة كونه إحساسات وعواطف ، وهل من حرج فى أن يحسب أمثال الشريف ومهيار ، وأن يعفا ويبرآ من المآثم ؟ . إن النفس البشرية يمكن كبح جماحها عن الفسق والاستهتار ، ولكنه ضرب من الاستحالة أن نشنقها [١] فلا يستهويها الجمال ، ولا يأخذ بمجامعها الحسن ، على أن غزل مهيار يبدو عليه طابع الصدق وسمات الرقة وهى أكثر ماتأتى — كما يقول صاحب « الوساطة [٢] » — من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، وإنك لو استقرأت غزل مهيار لأسفر لك عن حقيقة حب ، وأن محبوبته كانت عربية أصيلة تدل عليه بعريق نسبها وتراه غير كفء لها ، وقد دعا ذلك مهيار للدفاع عن نفسه وعن عتيد مجده أمام سلطان الحب القاهر فيقول :

يا أخت فهر والمحبة بيننا نسب وإن ناداك غير نسيب
لولاك لم أشم الخِلابَ ولاصبت نفسى لأحلام الكرى المكذوب

ويقول فى موضع آخر فى محبوبته التى كنى عنها « بأم سعد » ، والتى تردد اسمها فى غزله كثيرا :

لاتخالى نسباً يخفضنى أنا من يرضيك عند النسب
قومى استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب

وهى معروفة يتغنى بها الآن لرقتها .

---

(١) شنق البعير وأشنقه : كفه بزمامه .

(٢) على بن عبد العزيز القاضى الجرجانى .

ولكنه بعد ذلك الفخر وتلك الخيلاء ، يعود معترفاً بالهزيمة أمام جبروت الحب وسحر الجمال فيقول :

يا إبنة قوم وجدوا ثأرهُم عندى بها والثأر مطلوبُ
لولاك والأيـــام دوالة ما استعبد الفرس الأعاريب

ثم هو يؤثر البداوة وعيشها يأكل لحوم النواضح (١) ، ويشرب ماء الآبار مالحاً على قصور الفرس ، وهم الذين اعتز بهم كثيرا ، وفضلهم فيما سقناه إليك من الأمثلة عند الكلام على شعوبيته وماذلك إلا لأن تلك الحياة الريفية تقربه من محبوبته ، فيهنأ برؤيتها طعاماً ، وبعذب وصالها شراباً حيث يقول :

يعنف فى حب البداوة فارغ من الوجد لم يقر الغرام الجوانحا
فياليت لى من دارقومى وأسرتى جوارك رواحا عليك وصابحا
ومن ترهات (٢) الريف أرضاقطنتها من الجدب فيها يأكلون النواضحا
إذا ماشربت الوصل عذباًمرقرقاً بها لم أعف أن أشرب الماء مالحا

٥ ٥ ٥

ثم هو يعترف بأن تلك العربية قد استعبدته بجمالها قائلا :

سهرنا ببابل للنائمـــــــين عما نقاسى بنجد رقودا
من العربيـــات شمس تعود بأحرار فارس مثلى عبيــدا

٥ ٥ ٥

وبينما تراه يفضل حسن محبوبته على مافى لونها من شحوب فيقول :

إذا وصف الحسن البياض تطلعت سواهم يفدى بالبياض شحوبها

ويقول من قصيدة فى عميد الكفاة أبى سعد مادحا سمرة الحسان ومعتبرها على النسب العربى الأصيل دليلا (٣) :

---

(١) النواضح : الابل يستقى عليها مفردها ناضح .
(٢) الترهات : الطرق الصغار تتشعب عن الجادة .
(٣) ج ٣ س ٢٤٢ .

راض نبالا من جفنه ورمى ظبى بجمع ماراقب الحرما
باقرب الله يوم تقصى الدمى الـ بيض ظباء «بمكة» أدما
أسهمهن اللصوق بالنسب الـ ضارب فى «يعرب» وإن قدما
إذا اعتزى باللسان منتسب سفرن ثم انتسبن لى فسما
أو سلم الحسن للبياض لما عد شفاه بين الشفاه لمى

تراه فى مواضع أخرى يمدح البياض كما فى البيت :

مكنونة بيضاء لم يسعدها فى البدو لون العرب الشاحب

والبيت :

ومن عجب أن البياض[1] ولونه إليك بغيض وهو منك حبيب

° ° °

ومما هو جدير بالملاحظة أن مهيار قد جمع بين الغزل ، وبكاء الشباب فى كل غزلياته — إلا ماندر — منذ ظهرت عليه أعراض الشيب ، وذلك حين بلغ الثلاثين ، أو جاوزها بقليل وكان ذلك فى براعة فائقة ، واستيعاب معدوم النظير ، ثم تراه يدافع عن المشيب أحياناً دفاعا لايخلو — على لطفه — من المغالطة ، ومن أروع ماقاله فى ذلك[2] :

إن الذى عن بغضه زاورته[3] لون الصدود بلمتى مادوم
حكم يجور على سى وكيف بالـ عدوى[4] عليه وأنت فيه خصيم
ماذا يمسك من شباب راحل عنى وبلبالى عليك مقيم
أو ماراًيت الشيب جانس لونه فى العين در لثاتك المنظوم

ومنه قولة[5] :

ولائم ملتفت عن صبوتى ينكرها ولو أحب لصبا

---

(١) البياض : المقصود به الشيب (٢) ج ٤ ص ٩
(٣) زاورته : عدلت عنه (٤) العدوى : الانتصار
(٥) ج ١ ص ١٢٢

يلومنى لامات إلا لائمـــاً أو عاش عاش بالهوى معذباً
قال عشقت أشيباً بعدها منقصـــة نعم عشقت أشيبا
هل شــعر بدلتُه بشعر مبدلٌ من أرب أربا ؟

وأجمل من ذلك قوله فى مقدمة مدحته فى أبى المعمَّر الموفق[1].

أنكرت صبغتين «خنساء» فى شعر (م) ى بياضاً وفى أديمى أدمه[2]
ليت هذى البيضاء تأثيرها فى الو (م) جه أعدى تأثيرها فى اللمه
أنحلتنى الدنيا ولم ينحل الـ عمر ومن عز قلبه كد جسمه

وقوله من الميمية المتقدمة — فى عميد الكفاة :

قل « بنى » إن أعارك الرشأ النـ افر سمعا أو قُلتَ ما فهما
كادت قريش ترتد جاهلة لما تمثلتَ بينهم صنما
أستخلف الله والضنا كبدا ضامنها ما وفى وما غرما
يا لزمانى على الحمى عجبا أى زمان مضى وأى حمى ؟
كان الهوى والشباب نعم القر ينان وكان الشباب خيرهما
شب علىَّ المشيب بارقة كان شبابى لنارها فحما
لو صُبغت بالبكاء ناصية دام شبابى مما بكيت دما

. . .

قامت تألى ما شاب من كبر «خنساء» برت وأكرمت قسما
لا تسألى السن بالفتى وسلى الـ هم وراء الضلوع والهمما
كم عثرة لى بالدهر لو عثر الهـ لال طفلا بمثلها هرما
ركوبى الدهم من نوائبه بدل شهبا من رأسى الدهما

. . .

وبمثل تلك العلل اللطيفة كان مهيار يعلل لشيبه ، فى رقة وطول نفس

(٦) ج ٣ ص ٢٣٩ (٧) الأدمة : السمرة

يكاد ينفرد بهما ومن جميل تنصله من إثم الشيب والقاء تبعته على الزمان. قوله[١] :

قسم البين فما عدل بي غَدْرَةَ الوافي؟ وتبعيد القريب
وقضى الدهر فخالت صبغة عُدَّ ذنبُ الدهر فيها من ذنوبي
وفؤادي يشتكي جور النوى وعِذَاري يشتكي جور المشيب

ويتحسر «مهيار» على عهد الشباب لأنه ذلَّل له رقاب الأيام، ويعلن سخطه على الشيب الذي نفر منه الحسان و بدل حسناته سيئات، كما في تلك الأبيات[٢] :

وبيض راعهن بياض رأسي فكل محبب مني معيب
عددن مذ التثمت به ذنوبي وقبل الشيب أحبطت الذنوب
بجد المرء لبسته ويبلى وآخر لبسة الرأس المشيب
وكنت إذا عتبت على الليالي وفي وجهي لها لون نسيب
أطاع شبابها حفظا شبابي فجاءت من إساءتها تنيب
فما بالي أرى الأيام تنحى على مع المشيب، وهن شيب

ومن لطيف تعليله للشيب[٣] :

إن تكن أعين المها أنكرتني فلعمري لقد أصبن نكيرا
زاورت خلتين مني اقتا را يقذى عيونها وقتيرا
كنت ما قد عرفن ثم انتحتني غير لم أطلق لها تغييرا
وخطوب تحيل صبغتها الأبشار فضلا عن أن تحيل الشعورا

نستطيع بعد ما بسطنا من أمثلة أن نجزم بأن مهيار قد أحب، وأن حبه كان قبل إعلان إسلامه — فيما يغلب — أي في منتصف العقد الثالث من عمره، وأن حبه قد ظل إلى ما بعد إسلامه، وأنه قد فشل في حبه لأن

---

(١) من قصيدته في عميد الحضرة أبي طاهر بن حماد : ج ١ س ١٠٣
(٢) ج ١ س ٦٥ . (٣) ج ٢ س ١١٢

حداثة عهده بالإسلام ، وأصله غير العربي قد عوقا حباله عن اقتناص قلب ابنة العرب الخلص ، وأنه قد أخذ يتوسل بفضائله ونسبه العريق الفارسية مراراً « لأم سعد » — أو غير « أم سعد » ممن سماهن فى شعره ، كما يمكن التدليل على حب مهيار بنظمه بعض مقطوعات مستقلة بغرض الغزل .

الشعوبية فى غزل مهيار :

ومن الطبيعى أن يتصل دفاع مهيار عن نفسه أمام من انتقصت قدره وكفاءته . بالتعرض لذكر قومه والتمدح بعظمتهم فيما سلف ، وقصيدة « أعجبت بى » ، التى شهرها فى العالم العربي الآن تغنى مطرب مصر الأول[1] بها — أصدق شاهد على مزج الشاعر غزله بشعوبيته ، وقد كانت فى المحبوبة التى دعاها « أم سعد » ، وهناك شاهد آخر من مقدمة مدحته فى أبى الوفاء كامل بن مهدى فى هذا الباب يخاطب من سماه سعدا ويستعين به :

يا «سعد» أحرزها يداً مذخوره ... تولى أخا قَنَناً بشكر النائل
إن كنت فاتك يوم «رامة» نصرتى ... فتغنم الأخرى « ببرقة عاقل »

. . .

وأماوما استودِعْنَ غير حوافظ ... يوم الفراق وقلن غير فواعل
لقد انتأين فما سعيت لهاجرٍ ... حفظا لهن ولا أوبت لواصل

. . .

ومن التجشم أن تروم بحطة ... نقضى ، وقد فتل الحفاظ حبائلى
وَلَهَذِهِ الخضراء تنقل شهبها ... أدنى عليك من انتقاصِ فضائلى
أنا من علمت قديمه وحديثه ... علم اليقين ، وإن جهلت فسائل
قومى الملوك وخيم نفسى خيمها[2] ... أفلح[3] بمثل أواخرى وأوائلى
ماضر عيصى[4] فى أرومة «فارس» ... ألا يكون «بخندف» « أوائل »

---

(١) محمد عبد الوهاب . (٢) الخيم : الطبيعة والسجية
(٣) أفلح : صيغة تعجب مثل أسمع بهم وأبصر . (٤) العيص : الأصل

ملاحظات على غزله :

١ — يلاحظ أن ذكريات الحب قد لازمت الشاعر طول حياته ، فأخذ ينفث زفراتها فى شعره سابقا أكثر الشعراء لينا وجزالة وحسن اختيار للأوزان الغنائية ، وانتقاء للألفاظ ، مع طول فى النفس وسعة فى الخيال ، وأدب فى التعبير .

وقد بلغ من أدبه أنه كان إذا وصف فى المرأة مالا يصح تكشيفه من مواطن الستر من جسدها — عبر بكناية لطيفة متحشمة كقوله :

سافرات «بمنى» لولا التقى   خمرتهن شفاه بالقُبَل
كل حسناء تمنى الكحل لو   أنه ما بين جفنيها الكحل
نصفها الأعلى نشاط كله   والذى يدنو من الأرض كسل

فكنى عن ثقل الأرداف بالكسل فى نصفها الأسفل ، ولا شك أن ذلك ضرب من أدب التعبير يزرى بمثل قول القائل :

تمشى فتثقلها روادفها   فكأنها تمشى إلى خلف

٢ — وكانت لمهيار فى غزله براعة فى حسن التعليل ، و قدرة على صب مبالغاته فى قالب تستساغ معه وتستطرف فمن الأول قوله :

وما أتبعت ظعن الحى طرفى   لاغنم نظرة فتكون زادى
ولكنى بعثت بلحظ عينى   وراء الركب يسأل عن فؤادى

ومن الثانى قوله :

سألت بى أنَّى أقام وهل نا   م بعينيه بعد هجرى وقطعى ؟
قيل يبكى بالربع قالت فما با   لى أرى يابساً تراب الربع ؟

٣ — كما يلاحظ أنه افتعل أسماء تغزل فيها ، وذكر أماكن قد يكون هواه فى غيرها يدل على ذلك قوله فى لائمه :

إذا نسبت بهواى ساءه   مصرحا ، ولو كنيت غضبا
وما عليه أن غرمت بابلا   بحاجر ، وقاطما بزينب

٤ — وأنه أبدع فى التعرض لذكر الطيف، من وصفه وترقبه من مثل :

هل زورة تمتعنا منكم وهناً بميعاد الكرى الباطلِ ؟
أم هل لجسم قاطن أن يرى عودة قلب معكم راحل ؟
ردوا ولو يوما ولو ساعة على الغضا من عيشنا الزائل
لى ذله السائل ما بينكم فلا تفتكم عزة الباذل

وقوله (١) :

قال عنها الواشون حقا فعفنا وقنعنا بالطيف، والطيف زورُ
زارنا بالعراق زورة ذى الجـنب ، وما وانٍ ، دونه الخفير
يركب الليل قعدة والليالى صهوات فرسانهن البـدور
يقطع التيه والجبال دليـل بين عينيه ، والظلام خفير
فإذا مضجعى القضيض مهيد وإذا ليلى الطويل قصير

وقوله :

وأبى «سلامة» إنما جلب الكرى منها عدواً فى ثياب حبيب
لو حكمت يقظى لما زارت بلا عدة ولا وصلت بغير رقيب

وألطف من كل ما تقدم لك فى الطيف قوله (٢) :

وعلت طيفها الصدود وقد كنت بإفك الأحلام أقتنع
وليلة «النعف» والسرى أمرٌ بالنوم والشوق زاجر يزع
أكرهت عينى على الكرى أرقب الـطيف ونومى لولاه ممتنع
فما وفت شيمـة ملونة تسن فى غدرها وتبتدع
حتى تمنيت لو سهرت مع الـركب ، وود السارون لو هجعوا

٥ ٥ ٥

---

(١) ج ٢ ص ١٦٣
(٢) ج ٢ ص ١٧٢

ومما وصف فيه الشاعر الوجنات، وتحسر فيه على الشباب، وتبرم بالشيب فى وقت واحد قوله [١]:

وأعهدها والدمع يجرى بلونه فتصبغه من خدها بنجيع
كأن شعاع النار فى وجناتها يطير شرار النار بين ضلوعى
وعصر الحمى عصرى، وعهد ظبائه معى وربيع العيش فيه ربيعى
إذا رعتها من وصل أخرى بزلة تلافيتها من لمتى بشفيع
وفحمة ليل كالشعور اهتديتها بقدحة برق كالثغور لموع

وفى البيت الاخير تشبيهان مقلوبان أكسباه جمالا لا يخفى على ذى ذوق.

ثم يتبع ذلك بقوله فى لفظ رقيق ومعنى عميق، وتعليل حسن للشيب:

تعيب على الشيب «خنساء» أن رأت تطلع ضوء الفجر تحت هزيع
وما شبت لكن ضاع فيما بكيتكم سواد عذارى فى بياض دموعى

وقد عكس معنى هذين البيتين فى موضع آخر فقال مبتدعا [٢]:

وبيضاء لم تنفر لبيضاء لمتى وقد راع منها ناصل الصبغ ناصع
رأت نحرها فى لونه فصبت له وما خلت أن الشيب فى الحب شافع

قد عرفنا أن مهيار أكثر من الشعر المنسوب، وأن شعره كان أنسب من شعر غيره من جملة نواح أشرنا إليها، وإن غزله امتلأ بكل وصف دقيق، وعتاب وادع للحبائب ومناجاة للأطياف ونعى للحظوظ، ودفاع عن الشيب والفقر، وتفاخر بالعفة وما إلى ذلك مما يطول سرده.

ولا يفوتنا أن نشير إلى قطعتين من غزل مهيار ضرب برقتهما المثل: أولاهما: الحائية التى افتتح بها مدحته فى أبى المعمر الموفق، على بن اسماعيل، ومنها [٣]:

---

(١) جـ ٢ ص ١٩٨
(٢) جـ ٢ ص ١٩٣
(٣) جـ ١ ص ٢٠٢

من عذيرى يوم شرق الحمى   من هوى جد بقلبي مَزَحَا
نظرة عادت فعادت حسرة   قتل الرامى بها من جرحا
سل طريق العيس عن وادى الغضا   كيف أغسقت لنا رَأْدَ الضحى
ألشىء غير ما جيراننا   نفضوا «نجدا» وحلوا «الأبطحا»

° ° °

يا نسيم الريح من «كاظمة»   شد ماهجت الجوى والبرحا
الصبا إن كان لا بد الصبا   إنها كانت لقلبي أروحا

° ° °

يا ندماى «بسلع» هل أرى   ذلك المغبق والمصطبحا
اذكرونا ذكرنا عهدكم   رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم   شرب الدمع، وعاف القدحا
رجع العاذل عنى آيسا   من فؤادى فيكم أن يفلحا
قد شربت الصبر عنكم مكرها   وتبعت السقم فيكم مسمحا
وعرفت الهم من بعدكم   فكأنى ما عرفت الفرحا

° ° °

ما لسارى اللهو فى ليل الصبا   ضل فى فجر برأسى وضحا
طارق زار، وما أنذرنا   مرغياً بكراً ولا مستنبحا
صوحت ريحانة العيش به   فمن الراعى نباتا صوَّحا [١]

وثانيتهما : الميمية، وهى من قصيدته فى مدح «زعيم الدين أبي الحسن ابن عبد الرحيم»، وقد اعتبرها ابن خلكان [٢] من سائر شعره ومنها :

---

(١) صَوَّحَ النبت كتصوح : يبس
(٢) ج ٣ ص ٤٨ وفيات .

بكر العارض تحدوه النعامى(١) فسقاك الرى يا دار « أماما »
وتمشت فيك أرواح الصبا تأرجحن بأنفاس الخزامى

° ° °

أين سكانك ؟ لا أين همو « أحجازاً ، أقبلوها أم « شآما »
صدعوا بعد التئام فغدت بهم أيدى الموامى(٢) تترامى

° ° °

يا لواة الدين عن ميسرة والضنينات وما كن لئاماً
قد وقفنا قبلكم فى ربعكم فنقضناه استلاما والتزاماً

° ° °

قل لجيران « الغضا » آه على طيب عيش بالغضا لو كان داما
نصل العام وما نفساكموا وقصارى الوجد أن نسلخ عاما
حملوا ريح الصبا نشركموا قبل أن تحمل شيحا وثماما(٣)
وابعثوا أشباحكم لى فى الكرى إن أذنتم لجفونى أن تناما

° ° °

وقف الظامى على أبوابكم أفيقضى وهو لم يشف أواما
ما يبالى من سقيتن اللمى منعكن الماء عذبا والمداما
واعجبوا من أن يرى الظَّلْمَ(٤) حلالا شارب وهو يرى الخمر حراما

° ° °

أشتكيكم وإلى من أشتكى ؟ أنتمُ الداء فمن يشفى السقاما
أنتم والدهر سيف وفم ما تملان ضراباً وخصاما
كلما عاتبت فى حظى دهرى زاده العتب لجاجا وعراما(٥)

° ° °

---

(١) النعامى . ريح الجنوب المعروفة بأنها أرطب الرياح ، والقصيدة بالجزء الثالث من الديوان ص ٣٢٧ .

(٢) المفازات الواسعة خلت من الماء والأنيس .

(٣) نبت ضعيف له ما يشبه الخوص قد يحشى به .

(٤) الظلم بفتح الظاء ماء الأسنان . (٥) العرام : الشدة .

وسأترك ما تمثلت به من هاتين الخريدتين لحكم القراء مخافة أن يعكر التعليق عليهما من صفو جمالها — والمنقب فى ديوان الشاعر واجد — ومن غير شك الكثير من أمثالهما سهولة وعذوبة، ورقة وصفاء.

ولمهيار فى الغزل أبيات يكاد ينفرد بها من مثل قوله : —

إن كانت الأعراض مجزية فعاقب الله الهوى بالهوى

. . .

رفعوها على الحدوج وراحوا وهى مما تحوى القلوب صدور

. . .

إن وصفت تيمها وصفها أو نسبت أعجبها الناسب

. . .

ما أعف النفوس ياصاحبى شكواى لولا غرامة الأحداق

. . .

لك الغرام وللواشى بك التعب وكل عذل إذاجد الهوى لعب

. . .

خان بكاء العين أجفانه فناح والنوح بكاء الفم

. . .

ما منجزات الوعود عندى أكرم من وعدك المطول
ولا الحبيب الوصول أحظى لدى من طيفك البخيل

. . .

الوصف فى شعر مهيار

الوصف : يعتمد إلى أبعد حد على قوة الإدراك، وسعة الخيال، ودقة الذوق، وهو فوق ذلك عماد البلاغة لأنه معين التشبيه الذى يعتبر

أقوى أركانها ، والوصف ظل البيئة التى يعيش فيها الأدباء ، ومن هنا اختلفت الأوصاف باختلاف الموصوفات وبالتالى اختلف الشعر الوصفى باختلاف البيئات ، وقد ثبت أن تعدد المناظر وكثرة ألوان المرئيات من شأنها أن تطوء البصائر وتنير الأبصار ، وقلتها تحدث نقيض ذلك لإحاطة الحواس بها إحاطة استيعاب ، وتمحيص — ومن هنا نستطيع أن ندرك السر فى نبوغ شعراء الجاهلية فى الوصف لقلة مشاهد بيئتهم التى تكاد تنحصر فى الخيل والجمال والوحش والغزال ، والتلال والجبال ، والبروق والسحاب وما إليها ، فأبدعوا فى وصف كل أولئك إبداعاً يشهد فيه ما انتهى إلينا من أدبهم .

أما فى العصر العباسى فقد تغيرت البيئة وزادت محتوياتها باستحكام العمران ، ورسوخ قدم مدنية الأمم العريقة التى دانت لسلطان العرب ، مع كثرة الامتزاج والتزاوج بأصحابها وكان من نتائج ذلك أن تناول الوصف أشياء كثيرة لم تكن فى متناول القدامى حتى يستطيعوا وصفها — وكان الشعراء المولدون سباقين مجددين فى وصف ماهو جديد بجـــدة البيئة ، محاكين للقدماء إذا تعرضوا لوصف ماهو قديم لأن الأوائل قد أفاضوا فيه إفاضة لم تدع سبيلا للاستحداث إلا أن يكون ذلك من قبيل التصرف والأغراب نتيجة الدراسات المنطقية وغيرها من الفنون العقلية .

وشاعرنا مهيار : — تربى بين أحضان بيئة غنية بمظاهر الحضارة زاخرة بمرافق المدنية فكان من وصافى النوع الثانى (المولدين) محاكيا ومجددا فى آن واحد — ومن يقر أوصافه لمـا يتناوله يشهد دقة فى الخيال ورقة فى الشعور ، وقوة فى الملاحظة - يحيط بموصوفه من جميع نواحيه فلا يدع صغيرة ولا كبيرة منه إلا أحصاها ، وصـاغ لها ماينا سبها من تشبيه محكم ، أو استعارة نادرة ، أو كناية بارعة ، ولقد كان لنشأة مهيار وفارسية أصله دخل كبير فى قدرته على الوصف فالفرس يمتازون بعقلهم الآرى الجبار

وبسعة خيالهم ، وتعلقهم بالموسيقى ، وشغفهم بالمناظر المنمقة ، وغرامهم بالحلية فى كل شىء .

ويمكننا أن نقسم وصف ذلك الشاعر إلى قسمين :

أما القسم الأول فهو ماجاء فى تضاعيف مطولاته وبخاصة المدحية — من وصف للسفينة ، أو الصحراء أو المطايا ، وتعداد محاسن الحبائب إذا تغزل وفضائل مقصوديه إذا مدح وما إلى هذا مما عرض له — وقد جرى فى هذا القسم على طريقة القدماء وإن فاق عليهم — فى تخير الأوزان الموسيقية والأساليب الخلابة فمن ذلك قوله فى السفينة من قصيدة يمدح بها بعض أصدقائه وكان ناظراً على « ميسان » حرباً وخراجا[1] :

يا راكبا تنقله سابحة ورهاء[2] لا من جنة ولا خرقْ
سوداء من لباسها وجلدها وجسمها أبيض عريان يقق[3]
إذا المطايا ألمت من الصدى خمساً وعشراً[4] ألمت من الشرق
تحدى بزجر ليس من أشجانها ونغم لم ينصبها ولم يشق
تركب من هوج الرياح غررا ومالها إلا بهن مرتفق[5]

وأجمل من ذلك قوله فى وصفها من قصيدته فى محمد بن الحسن الهمانى[6]

نشدتك قرّب لى معوّدة الطوى عليها سوى الماء العليق حرامُ
إذا ظهر طرف لم يطق غير فارس ففرسانها المستبطنون زحام
تسرّبُ شقّ الأيم فى الترب طرقه لها زبد من شدها ولغام[7]
كأن صفاء الماء ينفرج القذى بها عنه وجه غطّ عنه لثامُ

(١) ج ٢ س ٣٤٦ فى مدح الأمير « سعد الدولة »

(٢) الورهاء — الخرقاء ، والخرق — الحمق (٣) شديد البياض

(٤) الخمس والعشر بكسر الخاء والعين من إظماء الابل وهو ورودها الماء فى اليوم الخامس أو العاشر

(٥) الهوج — جمع هوجاء وهى الريح التى لاتستوى فى هبوبها ، والغرر — الخطر

(٦) ج ٣ س ٣٥٥ (٧) زبد أفواه الابل

من الحبشيات اللواتى إذا انتمت ... أسر لها «سام» وأظهر «حام»
إذا رحلت بالشرع مرت كأنها ... جوافل من طرد الشمال نعامُ

والوصف غاية فى الدقة والروعة إذ وصف السفينة بأنها كالمطية التى ليس لها عليق سوى الماء وأن بطنها يتسع لكثير من الركاب على حين لا يتسع ظهر الجواد لغير واحد، وأنها تتسرب فى الماء كما يشق الأيم — الثعبان — طريقه فى التراب، وأنها تحدث فى سيرها ارتغاء الماء كما ترغى الناقة، ثم يشبهها بحبشية للونها القارى، ثم يوفق أكثر من ذلك فى تشبيه السفينة الشراعية بنعامة جافل تسير باسطة جناحيها فى سرعة وذعر فى اتجاه ريح الشمال التى تساعد على دفعها.

ومن جميـــل قوله فى وصف الصحراء من مدحه فى مؤيد الملك أبى الحسين الرخجى:

وواسعة الذراع يَغُرُّ فيها ... عيونَ العيس رقّاص [1] خلوبُ
إذا استاف [2] الدليل بنائراها ... أراب شَمِيمَه الترب الغريب
تخفضنا وترفعنا ضـــلالا ... كما خَبَّت براكبها الجنوب
إذا غنت لنا الأرواح فيها ... تطاربت العمائم والجيـــوب
عمائم زانها الأخلاق ليثت ... على سنن وضاءتها الشحوب
قطعناها إليك على يقـــين ... بأن الحظ رائده اللغـوب

ومما قاله فى وصف الناقة [3]:

إلى الوزير [4] اعترقت نَيَّها [5] ... كل أمون [6] وَعرة المَجذِب
تعطى الخشاشات [7] ليانا على ... أنف لها غضبان مستعصب

---

(١) السراب (٢) شم
(٣) صفحة ٧٨ ح ١ (٤) هو أبو القاسم الحسن بن على المغربى
(٥) اعترقت نيها — أكلت شحمها كناية عن الهزال
(٦) الأمون — الناقة
(٧) الخشاشات جمع خشاش وهو مايدخل فى أنف الناقة أو البعير من خشب ونحوه.

مجنونة الحلم وما سُفِّهت بالسوط خَرقاءُ ولم تجنب
ييأس فحل الشول من ضربها لعزة النفس ولم تُكتب[١]
لو وطئت شوك القنا نابتاً فى طرق العلياء لم تُنقب[٢]
تخُطّ فى الأرض بها ميسم دام متى يمل السري يكتب
كأن حاذيها على قارِدٍ أحمش مسنون القرا أحقبِ[٣]
طامنَ فى الرمل له قانص أعجف لم يُحمِض ولم يُرطب[٤]

ومما قاله من قصيدته التى يمدح بها نقيب النقباء أبا القاسم بن بما فى وصف العود[٥] وذلك فى ثوب عزمته :

وأخرسُ مما سنت الفرس ناطق يهب رياحاً رَوْحُه وهو راكد
على صدره بالطول سبعَ صفائف تدبرها بالعَرْضِ سبعَ شدائد
وخمس سكونٌ تحت خمس حوارِكٍ تمُدُّ ثلاثاً يمتطيهن واحد
يُشرِّدُ من حلم الفتى وهو حازم فيرجعُ عنه فاسقاً وهو عابد

ومن قوله فى وصف الجواد وسرعته من مدحته فى مؤيد الملك الرخجى[٦] .

ولألقينك راكباً من عزمتى جرداء تفتح فى الطريق المبهمَ
فى كف راكبها عنانُ مُسمَّح فى السبق صفحة وجهه لم تلطَمِ
يكفيه وزعة سوطه ولجامه ما مس فى نخذيه إثر المحزم
تنضو الجياد كأنها ملمومة هوت انحداراً من فقار ويلملم[٧]
تحت الدجى منها شهاب ثاقب جن الخطوب بمثله لم تُرجَم

---

(١) لم تقيد ويحتم حباؤها حتى لايُبتَّرَى عليها . (٢) لم تصبها قروح

(٣) الحاذان موضع الذنب من أدبار الفخذين ، والقادر المتجعد الشعر ، والأحمش دقيق الساقين والقرا الظهر ، والأحقب الحمار الوحشى .

(٤) الأعجف : النحيل المهزول ، والحمض والرطب مما ترعاها الماشية .

(٥) جـ ١ ص ٢٢٦

(٦) جـ ٣ ص ٢٣٢ (٧) الملمومة الصخرة المستديرة الصلبة ، ويلملم اسم جبل

تهفو على أثر الطراد كأنها قبس تهافت من زناد مُضَرِم
تجتاب بي أجواز كل تنوفة عذراء ما وطئت وخَرْق أعجم (١)

أما القسم الثانى : فهو ما جاء مستقلا مقصوداً به وصف ما وقع تحت حسه، من السيف، والشطرنج ، والصياد، والقوس، والطبل، والاسطرلاب، والمنشار، والثريا، والريح ، والدفاتر، ، والدرهم، والصنم، والسماء، والأرض والخاتم، والشيطان ، والنجم ، والنخلة ، والمرآة ، والمكحلة ، والميل ، والميزان ، واللوح ، وزهرة النيلوفر ، وبنات نعش ، والدواة ، والرمانة والسرير ، وغيرها — وكان فى هذا القسم مُلْغِزاً معمياً لا يصرح بالموصوف ولذلك يحتاج فى فهمه إلى كد ذهن ، كما كان قصير النفس لا يتجاوز وصفه أحدها فى الغالب بضعة أبيات . فما قاله فى الصياد (٢) :

ما ناشر ذو مخالـ ـب لم يُنَشطْن بظُفْره
يبغى فينشر مكرا يطويه من بعد نشره
له مكايد شر وخيره قبل شره
ينال بسط يديه بضم ما تحت صدره
يعدو برق (٣) خبيث لحله ولطهره
شطرين يمشى بشطر وشطره فوق مُهْره
على أقبّ (٤) خفيف محمل فوق وقره
طوراً له هو ظهر وتارة فوق ظهره
فيا لريان غض الـ ـمعاش مع طول ضُرّه

وقال فى ملك الشطرنج (٥) :

ومؤمر بين الرجال مقدم فى الأرض وهو مدبر مأمور
باق يخاف الحتف وهو متى يمت فله معاد عاجل ونشور

(١) التنوفة والخرق بمعنى المفازة (٢) ج ٢ س ١٢١
(٣) الرق بفتح الراء وضمها الماء الرقيق فى البحر أو فى الوادى
(٤) الضامر البطن (٥) ج ٢ س ١٠٣

ويسير ماسار الجيوش أمامه   ويقودها فيقيم وهو يسير
كثرت منازله وضاقت طرقه   فكأنه بمكانه مأسور

والذى يعرف قليلا عن تلك اللعبة يجزم بأن مهيار — كان يجيدها — لأن هذا الوصف لايصدر عن جاهل بها .

ومما قاله فى بنات نعش (١) :

جارية تُعْزَى إلى أبيها   ولم تَلِد ولم يَلِدْ أبُوها
إذا سبى بالحسن وجه ناظر   سبت عيوناً وسبت وجوهاً
تركب ظهر الليل فيها سُرْبَةٌ   تعد أيام الزمان فيها (٢)
يتيه من يَأْتَمُّ فى الصبح بها   وابن الظلام لايخاف التيها
تَشْنَا أَبَاهَا كلُّ نفسٍ أَنَّه   يفنى به الناس الذى يُنْهيها

ومن قوله فى الصنم (٣) :

سألت غزالا شف قلبى عن اسمه   فدافع عنه ثم قال وعماهُ
هو اسم يعاف الصالحون استماعه   لأن الذى يهواه يبغضه الله
وتصحيفه مرٌّ على المرء طعمه   يمر على سمع الكريم فيأباه (٤)
ولو قيل لى ثلثاه من فعل صاحب   تجافيته من بعدما كنت أهواه (٥)
ولو قيل فى أخرى سمعت بصيحة   لساهر ليل بالهموم تغشّاه (٦)
ولكن إذا أشبهته باسم غادة   فذلك مما تشتهيه وترضاه (٧)

ومما قاله فى النيلوفر (٨) :

ساهرة الليل نئوم الضحى   ريانة ، والأرض تشكو الظما

---

(١) جـ ٤ ص ١٨٨
(٢) أى أن الأيام سبعة بعدة مجموعة نجومها
(٣) جـ ٤ ص ١٨٧
(٤) ضيم
(٥) نم أومن
(٦) نم
(٧) دمية
(٨) هى زهرة « البشنين » وتظهر شجرتها فى المياه الراكدة ، أوراقها عريضة تغطى سطح الماء وأزهارها تجلس على سيقان مرتفعة تتجمع فى أسفل الماء ، وتتفتح فى الليل وتطبق أعضاؤها فى نور النهار (جـ ١ ص ٨)

رائحة فى السرب لم تقتنص ظبــاؤه إلا بأمر الدجى
ملتثم فوها وإن لم يكن فى شفتيها مالها من لَمَى
حيـة ماء نافع سمها[١] وناقـع سم أفاعى الصَّفا
تعطيك منها ألسناً عِـدَّة مجتمعاتٍ كلها فى لَهَـا

. . .

ومنها فى الجام :

وقوراء[٢] ماء الكرم أحمر ذائب عليها وماء التبر أصفر جامِدُ
تمثل « بهرام » الكواكب قائما بها حيث « بهرام » الأكاسر قاعد
أميران يخفى قائم السيف قابض عليه ويبدى درة التاج عاقد
تبين وحبات المزاج نوازل وتخفى وحبات الحباب صواعد
مصالح عيش والفتى من خلالها إذا لاحظ الأعقاب فهى مفاسد[٣]

وأن هذه الموصوفات الكثيرة ، مع ما استشهدنا به من شعر «مهيار» فيها لتدلنا على سعة أفق خيال الشاعر ، وفهمه الصحيح للبيئة التى عاش فيها ، كما تدل على قوة إدراك ، وبعد تفكير ، وصدق تصور ، مما لا يكون إلا بالدراسة الكثيرة مع قوة الملاحظة .

ومع أنه وصف أشياء لم يتعرض لها غيره — فلا يصح أن نضعه فى قائمة الوصافين البارعين أمثال « ابن المعتز » و « ابن خفاجه و « ابن الرومى » .

الفخر فى شعر مهيار

لم نكن بحاجة إلى التعرض لهذا الغرض بعد أن أشرنا إليه أكثر من مرة ، وفى عدة مناسبات وإنما دعانا إلى ذلك الرغبة فى لم شتات هذا الغرض

(١) فى الديوان نافع وهو تصحيف (٢) الواسعة ويريد بها الكاس
(٣) هذا المثال « فى وصف الجام » يعتبر من القسم الاول الذى جاء غير مستقل بغرض الوصف

ويعتبر الفخر من الأغراض المشتركة بين سائر الشعراء مع التفاوت بتفاوت أسبابه ، فمنهم من فخر بحسبه ونسبه ، كشعراء العصبيات ، ومنهم من فخر بكرمه كحاتم، وفريق فخر بخلقه ، وآخر بشجاعته وهكذا ، ومن لم يجد من سبب للفخار غير شعره جعله مادة فخره .

ومهيار : كأحد أولئك الذين نسلهم الموالى ومن أسرة يغلب عليها الفقر — أخذ يقلب وجهه ويرسل أشعة خياله ، فلم يجد فى نسبه القريب مفخرة — فراح يبحث عن أرومة ماجدة يرتكز على شرفها ، ويباهى بالانتساب إليها ، كما باهى غيره من شعراء عصره بأنسابهم الكريمة - فتماجد « بكسرى وإيوانه » وأردشير » وسلطانه ، ولا يدهشنك ذلك منه ، فجرير ابن عطية » الكلبي حين أعياه الفخر بنسبه القريب لتواضع فيه — على « الفرزدق » التميمى ومشايعيه راح يلفق فى الأنساب يقارب ويباعد، ويقدم ويؤخر ، حتى استطاع نسج حبل واه من القرابة يربطه بأمير المؤمنين « عبد الملك بن مروان » الذى قصده باشارته إذ يقول : —

مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم يا خزر تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينـــا

لقد فخر مهيار بفارسيته فى تعصب شديد ، وله عذره من تعيير خصومه من شعراء العرب إياه أعجميته ، ثم فاخر بإسلامه إذ رأى ذلك مرجحا لكفته على معيريه نسبه — إذ يريد أنه ساواهم إسلاما وفاتهم أصلا . وفى قصيدته للكافى الأوحد التى يبشره فيها بإسلامه والتى أشرنا إليها ، وقصيدته (أعجبت بى) وغيرهما مما سقناه إليك ما يؤيد ذلك — كما يؤيده قوله فى « أبي الوفاء كامل بن مهدى » الفارسى الأصل وحامى « واسط » [1] :

نحن الولاة العادلون ولم تزل آثارنا حلى الزمان العاطل
ذدنا فذ عدم الانام رعاءنا عدت الذئاب على السوام الهامل

---

(١) (ج ٣ س ١٨٤)

عمرت بنا الدنيا ففضة عذرها فينا وعمر شبابها المتخايل
تتبسم التيجان فوق رءوسنا عن كل وضاح الجبين حُلا حلِ
من عد نفسا فخره وقبيله فلنا آثاره فخـره المتقابل

وفخر مهيار بعفته ونزاهته ، وصبره على مكاره الدهر فى مثل قوله من قصيدة فى مدح أبى طالب « محمد بن أيوب » [١] .

تمنى رجال أن تزل بى النعل ولم تمش فى مجد بمثلى لهم رجل
وعابوا على هجر المطامع عفتى وللهجر خير حين يزرى بك الوصل
وسمو إباى الضيم كبراً ولا أرى حطيطة نفسى ـ وهن تنهض ـ أن تعلو
إذا كان عزمى طاردا عنى الغنى فلله فقـر لا يجاوره الذل
على اجتناء الفضل من ثمراته ولا ذنب إن لم يجن حظاً لى الفضل
خلقت وحيدا فى ثياب نزاهتى غريبا وأهل الارض لو شئت لى أهل
وفى الناس مثـلى مقترون وإنما أزاد جوى أن ليس فى الفضل لى مثل

وفخر بشعره مع عفته فقال :

لـئن أبصرتنى رثا معاشى أطوف حول حظى أو أجوب
فتحت خصاصتى نفس عزوف وحشو معاوزى كرم قشيب [٢]
سلى بيدى الطروس وعن لسانى فوارك لا يلامسها أديب [٣]
لها وطن المقيم بكل سمع تمر به وسائرها غريب

وكقوله : فى ختام إحدى مدحه فى أبى طالب بن أيوب يطرى قصائده [٤] :

وزائرات طيبت أعطافها منك بذكر لو عداك لم تطب
جواريا مع الرياح بالذى أوليت ، أو سواريا مع السحب
كل فتاة قر لى شماسها [٥] وذل فى قودى منها ما صعب

---

(١) (ج ٣ ص ٦٧) (٢) عزوف : زاهدة — المعاوز : الثياب الخلقة
(٣) الفوارك : النواشز ، يريد بها قصائده التى استعصت على غيره
(٤) جـ ١ ص ٣٢ (٥) الشماس : الاباء والامتناع

تروى فلو أطرب شيء نفسه لقد سمعت من قوافيها الطرب
أضحى وراح حاسدى إن قلتها وحاسدوك إن علوت فى تعب

. . .

الشكوى والعتاب

إن خيال الشعراء يجنح دائما إلى الشكوى ، لما امتازوا به من إحساس مرهف ، وعاطفة تهيج لأقل وخز من عنت الأيام ، أو جفوة الإخوان والشاعر تعرض له الصغيرة فلا يزال خياله يدحوها حتى تبدو أمام عينيه كبيرة ينوء كاهله باحتمالها . فيلجأ إلى التنفيس عن نفسه بما ينفثه فى شعره من زفرات الشكوى ، ونبرات الأنين، وزأرات العتاب — وأكثر الشعراء يعمر قلوبهم اعتداد بالنفس واعتزاز بالكرامة يبلغ حد الغرور أحيانا يصحبه طمع ملح ، وعندئذ لا يقنعون من حياتهم بما يقنع به غيرهم ولا يرضون من العيش بما يرضى سواهم .

ومهيار — فوق كونه واحدا من أولئك — قد أحاطت به عوامل أخرى جعلته أشكى وأعتب ومن تلك العوامل تشيعه ، والشيعة كما أسلفنا كانوا مؤمنين الإيمان كله بأنهم مهضومو الحق وأنه ليس من العدل فى شيء انصراف العز والسعادة إلى غيرهم ، ولا من الإنصاف تركز الحكم ومقاليد السيادة فى يد أعدائهم — فلونت عقيدتهم أدبهم بطابع الحزن والسخط . ومنها أنه كان فقيرا مجدبا على حين كان حظ الأدباء فى عصره — ممن يعتقدهم دونه — من الجاه والثراء عظيما ، فأوجد ذلك نفسه وأسخطها عليهم وجعله ينحى باللوم على الأيام وينتقد الأقسام[1]، ويعتب على من بيدهم الأمر ممن

---

(١) الأقسام الحظوظ

فى مكنتهم أن يرفعوا من شأنه، وأن يريشو جناحه المحصوص [١].

وقد يكون من تلك العوامل غزله مع تبكير الشيب به فأقحمه ذلك فى ميدان الجدل والعتاب بينه وبين حبائبه حينا، وبينه وبين الدهر حينا آخر.

ويعتبر شعر مهيار فى هذا الباب من أرق ما عرف هذا الفن فى مختلف أعصاره، ولنستمع إلى قوله فى النعى على الحظوظ وشكوى الزمان [٢]:

يا حظ مالك لا أقالك عثرة ... جارى الحظوظ وغافر زلاتها
كم أشتكيك وأنت صل حماطة ... لا يطمع الحاوون فى حياتها
عيش كلا عيش ونفس مالها ... من متعة الدنيا سوى حسراتها
إن كان عندك يا زمان بقية ... مما يضام بها الكرام فهاتها

وكقوله:

لا تغمز الأطماع لى جانبا ... ولا أمالت منة كاهلى
نغّص عندى العُرفَ أنى أرى ... طول يد المعطى على القابل
جربت أقسامى فما أشبه الـ ... جائر من حظى بالعادل

. . .

وقوله متحسرا على شبابه ولهوه، وناعيا على الحظوظ التى تسعف جاهلا وتؤسف فاضلا أديبا مثله:

عمر مضى سرفا وعصر بطالة ... أخذ المشيب لحقه من باطلى
ملك الحجا منى مكان خلاعتى ... وتوقرت بعد المراح شمائلى
أحييت أموات المحاسن قائلا ... لو لم يُرَعْن من الحسود بقاتل
قالوا عدوك — فاحتقره — جاهل ... من لى على فضلى بحظ الجاهل ؟

وكقوله:

لله مفطور على عزه ... أرضعه المجد لغير الفطام
لا يملكُ الغريد إطرابه ... شجوا ولا نشوته للمدام

---

(١) المحصوص: مقصوص الريش (٢) ص ١٦٤ ج ١

ومن جميل ما قاله فى شكوى الإخوان وتغير الزمان (١) :

هرم الزمان وحولت عن شكلها شيم الرجال ، وحالت الأوصافُ
ورقدت تحت الضيم لا عن ذلة مستحليا للنوم وهو ذعاف
ما إن شربت الجور مرتخصاً له حتى غلا وتعـذر الإنصاف
وجفت خلائق كنت إن جاذبتها سهل القياد ولانت الأعطاف

وقال يشكو الحظوظ ويبكى الآمال ويعاتب أبا القاسم سعد بن الكافى الأوحد (٢) :

وعاذلة قالت رم الحظ تلقه وما كل طلاب الحظوظ لحوقها
قضت عادة الأيام أن صريحها قليل إذا درت وعز مذيقها (٣)
فناشطها فى غالب الأمر مجدب خميص ويرعاها بطينا ربيقها (٤)
أفى هذه الأشباح أهل لمطلب عفيف أبت أخلاقها وفسوقها
رعى الله آمالا إليهم بعثتها ضياعا كأنى فى «الفرات» أريقها
إذا كان «سعد» وهو أكرم من مشت به وله أيدى الركاب وسوقها
نبا وقسا على القوافى فؤاده فمن بعده حنانها وشفيقها ؟
لمن تبضع الأشعار يرجى نفاقها إذا كسدت يا «سعد» عندك سوقها؟
ألست الذى عزت عليه قصائدى كما قيل حتى ليس شىء يفوقها ؟
من الشعراء القائمون مقاومى لديك ومن ذا إن سكت نطوقها ؟

. . .

ومن لطيف ما شكا به الزمان وعرض فيه بتخلى الإخوان :

كم باطن غالطت — وهو مرمق (٥) عنه الحسود بظاهر مرموق
والناس أهل الواحد المثرى وأعـ ـداء المقل بمعشر وفريق
سلنى بهم فلقد حلبت أمورهم شطرين من محض ومن ممذوق

---

(١) (ج ٢ ص ٢٧٨) (٢) (ج ٢ ص ٢٩٥)
(٣) المذيق والمذق المخلوط (٤) الربيق : المشدود بالربقة من البهم
(٥) المرمق وكمحشر من العيش ضيقة (ج ٢ ص ٢٩٧) من الديوان .

وخبرتهم خبر اللبيب طباعه ... فمعى على سعة ، على لضيق
ما إن ضننت على الظنون بصاحب ... إلا سمحت به على التحقيق
لا يضحك الأيام كذب مطامعى ... إلا إذا طالبتها بصديق
بخلوا بما وجدوا فلو قدروا لما ... وجدت لهاة أن تُبل بريق
ويئست حتى لو بصرت بنارهم ... لِقِرًى شككت وقلت نار حريق

ومما ذم به الزمان من مقدمة إحدى مدحه فى أبى طالب بن أيوب [1] :

أيا سكر الزمان أما تفيق ... ويا سعة المطالب كم تضيقُ ؟
ويا نيل الحظوظ أما إليها ... بغير مذلة لفتى طريق ؟
أكل فضيلة كانت عليها ... تُعين هى التى عنها تَعوق ؟
قضاء ضل رشد الرأى فيه ... وكاذَبَ دونه الظن الصدوق
وعتب طال والأيام صم ... كما يشكو إلى الموج الغريق

وفى هذا الغرض يقول شاكيا الدهر فى رقة وَاضِحَة :

بلوت هذا الدهر أطوارهْ ... علىّ طورا ومعى تارهْ
وبصرتنى كيف أخلاقه ... تجارب كشَّفْنَ أخباره
فصرْتُ لا أنكر إحلاءَهُ ... يوما ولا أنكر إمراره
من عاذرى منه على أننى ... ضرورة أقبل أعذاره

ومع شكوى مهيار من الزمان والفقر فقد كان يبدو فى بعض الأحيان صَبُوراً على ريب الحوادث ، رائضا نفسه على العفة ، ومن جيد قوله فى القناعة تلك الأبيات [2] :

يلحى على البخل الشحيح [3] بماله ... أفلا تكون بماء وجهك أبخلا
أكرم يديك عن السؤال فإنما ... قدر الحياة أقلُّ من أن تسألا
ولقد أضم إلىّ فضل قَنَاعتى ... وأبيتُ مُشتملا بها متزمّلا

---

(١) (ج ٢ س ٢٩٩) (٢) ج ٢ س ١٣٨
(٣) فى الديوان الضنين ، ووردت فى ابن خلكان « الشحيح » ج ٣ س ٤٩

وأرى العدوَّ على الخصاصة شارة … تصف الغنى فيخالنى متموّلا
وإذا امرؤ أفنى الليالى حسرة … وأمانيا أفنيتهن توكُّلا

وهذه الأمثلة إلى ما سقناه إليك من نظائرها فيما سبق من الأغراض فيها الكفاية .

الحكمة فى شعر مهيار

إن الظروف التى عاش فيها مهيار كانت كافية لأن تفرغ فى رأسه خلاصة من التجربة وسديد الرأى وبعد النظر على أن الحكمة إن هى إلا ومضاتٌ يقدحها احتكاك الرجل بالأحداث واصطدامه بمشاكل العيش وخبرته أخلاق الناس ، ومع أن مهيار كان كذلك إلا أنه لم يكن حكيما فى شعره مما يدل على أن تبرمه بالحياة والناس لم يكن إلا فى أكثره اصطناعا ليس له ما يبرره التبرير الحق من الواقع ولعل ذلك راجع إلى أن شاعريته قد غلبت على حكمته فهو من أمثال البحترى شاعر ، وليس حكيما كأبى تمام والمتنبي وغيرهما ممن غلبت الحكمة على شعرهم . ومع ذلك فقد كانت له أبيات يبدو فيها صفاء الذهن وصدق الحكمة ولكن على قلة بالقياس إلى شعره الكثير وإليك بعضها :

إذا كان للعذال فى السمع موضع … مصون فما للحب فى القلب موضع

لا يضحك الأيام كذب مطامعى … إلا إذا طالبتها بصديق

لا تجمع الشيب والسرور يد … ولا يتم الثراء والجود

إذا كريم عفا لقدرته … أغراه بالشر أنه قادر

ولست بواجِد قلبا صحيحا … إذا نخلت دفينة كل صدْر

ما أذل الخصب فى دار الأذى … وألذ العز فى دار الجدوب

لو كان أفضل من فى الناس أسعدهم … ما انحطت الشمس عن عال من الشهب

لا تحسب الهمة العليا موجبة رزقا على قسمة الأقدار لم يجب

وفى الأخوة الجافين أبناء علة[١] وفى الأجنباء الأصفياء بنو أم

تخفـّفْ بفيض الدمع من ثقل الجوى تجد راحة إن الدموع هى الثقل

لا أخلف المال غير متلفه إن الغنى البخيل مكدود

ومن لم تغيره الليالى بِعَدْوِهِ طوالَ سنيها غيرته خطوبها
يعدد أقوام ذنوب زمانهم فمن لى بأيام تعد ذنوبها

فإن الصل يحذر مستميتا وتحت قبوعه أبداً وُثوب

وربما طالع وجه المنى من شرف اليأس ولم يحسب

إذا كنت تهوى الشىء إما رأيته وأحببت أن تشقى فزر ثم جنب

يسيغ الفتى أيامه وهو جاهل ويغتص بالساعات وهو لبيبُ
وبعض مودات الرجال عقارب لها تحت ظلماء العقوق دبيب
فما أكثر الإخوان بل ما أقلهم على نائبات الدهر حين تنوب

إذا سمنت همة فى الضلوع فآيتها البدن الناحل

وما الحرص إلا فضلة لو نبذتها لما فاتك الزاد الذى أنت آكله

يعد أخوك أشرف منك بيتا بأنك عاطل وأخوك حالى

تحتشم التغرير والرزق فى الـ إقدام والحرمان فى الاحتشام
زاحم على باب العلا ضاغطا لا بد أن تدخل بين الزحام
من طلب الغاية خطوا على ظهر الهوينى رام صعب المرام

وقد دل حائل لون الشباب على أن عمر الفتى زائلُ
يحبب مكروه يومى غدى ويُنْسى أذى عامىَ القابلُ

(١) أبناء العلة : الاخوة من أمهات شتى

وطول أيامنا والدهر يطلبنا مراحل تنتهى أعدادها وخطا

عقبى الطاعة فى مال يُمَنُّ به عصارة لا يغطى خبثها الطيب

إذا كفك الميسور والعرض وافر فكل الذى فوق الكفاف فضول

وما الحسن ماتثنى به العين وحدها ولكنّ ما يثنى عليه قلوبُ

إذا حملت أرض تراب مذلة فليس عليها للكريم قرار

وهل يئل الإنسان مما وراءه وقدامه مفضى له ومآل

وللموت خير من حياة مضيمة ومن عيشة أعنكى بها وأطال

ورزق يد المسئول مفتاح بابه وشر نوال ما جناه سؤال

فكيف يبين الخرت والعين عورة ويبرم أمر واليمين شمال (١)

إذا الحى يوما كان فى الحى كاذبا نفاقا فإن الحى فى الميت صادق

ولم أر مثل السيف عريان كاسيا ولا أمرد الخدين وهو خضيب

السرقات فى شعر مهيار

وأقصد بها المعانى التى جاءت فى شعره مع ورودها فى شعر غيره ممن تقدموه غالبا من الشعراء ولا أقصد فى تلك العجالة استقصاء جميع أشعاره التى تدخل فى باب السرق ولكنى سأسرد منها طائفة على سبيل المثال فمن ذلك:

١ — قال المتنبى:

إذا الدولة استكفت به فى ملمة كفاها فكان السيف والكف والقلبا

وقال مهيار:

ذا الدولة استذرت بأيام عزها فما هى إلا رأيه ومناصله

(١) الخرت: الثقب — وعورة إن أراد بها عوراء فهو خطأ ولا مانع من إرادة معنى العورة وهى السوأة، والخلل فى الثغر وغيره» قاموس»

ولا شك أن بيت المتنبي من حيث الأسلوب أجمل ، ومن جهة المعانى أحفل .

٭ ٭ ٭

٢ — قال المتنبي :

ولما قلَّت الإبل امتطينا   إلى ابن أبي سليمان الخطوبا

وقال مهيار :

ولقد ركبت إلى المآرب قبلها[1]   ظهر الخِطار سلمت أو لم أسلم

٭ ٭ ٭

٣ — قال أبو نواس :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم   وأسمت سرح اللهو حيث أساموا

وقال مهيار :

أيام أدلو بشبابى فلا   أرجع إلا مترعات سجال[2]

٤ — قال ابن زريق فى عينيته المشهورة :

وما مجاهدة الإنسان واصلة   رزقا ولادعة الانسان تقطعه

وقال مهيار :

لا تحسب الهمة العليا موجبة   رزقا على قسمة الأقدار لم يجب

وبيت ابن زريق أحسن لأن شطره الأول يكاد ينتظم معنى بيت مهيار كله ، أما كون الدعة لا تمنع الرزق فذلك ما تفرد به البيت الأول .

٭ ٭ ٭

٥ — قال المتنبي :

وكم لسواد الليل عندك من يد   تخبر أن المانوية تكذب

وقال مهيار :

فلليل الطويل شكرى ودين العشق أن تكره الليالى الطوال

---

(١) الضمير : فى قبلها يعود على الجياد فى الأبيات قبله

(٢) السجال : جمع سجل وهو الدلو

فمعنى البيتين واحد من حيث شكر الليل لماله من أيد فى ستر الحبيبين عن عيون الرقبة وإن اختلف الاتجاه عند الشاعرين بعد ذلك — فالمتنبي يرى أن نعمة الليل قد أقنعته بأن مذهب المانوية — نسبة إلى « مانى » الذى يرى الشر فى الظلام — كذب . ومهيار يرى أن يشكر الليل برغم كره لياليه الطوال عند أمثاله العشاق الذين لم يظفروا ظفره بالوصال .

٦ — قال المتنبي :

فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

وقال مهيار مخاطبا الزمان :

أصبتنى بالخطوب حتى لم تبق لى مقتلا تصيب

° ° °

٧ — قال المتنبي فى رثاء أخت سيف الدولة :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب

وقال فى رثاء أمه :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أبوك الضخم كونك لى أما

وأخذ مهيار معنى البيتين فقال فى رثاء أم صديقه أبى الحسين ، أحمد ابن روح ، فأجاد :

ألا لا تعرفها بغير ابنها أبا وقد ينسب الإنسان يوما بمن ينمى

وقال شوقى فى هذا المعنى فى نهج البردة مادحا سيد المرسلين :

نموا إليه فزادوا فى الورى شرفاً ورب أصل لفرع فى الفخار نمى

° ° °

٨ — قال أبو فراس الحمدانى فى سيف الدولة :

وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

وقال مهيار : فى كمال الملك بن عبد الرحيم :

فليت أن كال الملك خالصة   آراؤه لى ورأى الناس مؤتشب[١]

* * *

٩ — قال عمر بن أبى ربيعة :

فعـــدى نائلا وإن لم تُنيلى   إنه ينفع المحب الرجاء

وقال الشريف الرضى :

يا ماطلى بالدين وهو محبب   من لى بدائم وعدك الـكذاب

وقال مهيار :

إن كنت تقضى ثم لا نلتقى   قدم على المطل وعدا أكذب

* * *

١٠ — قال المتنبي :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

وقال مهيار :

وما عابنى ناقص منكمُ   بشىء سوى أننى فاضل

وبيت المتنبي أروع وأعمق فكرة والمعنى المشترك بينهما هو أن ذم كل منهما لا يأتى إلا على لسان ناقص .

١١ — قال المتنبي :

وإذا لم يكن من الموت بد   فمن العجز أن تكون جبانا

وقال مهيار :

وللجبن خير لو أن الردى   عن المرء فى عيشه غافل

* * *

١٢ — قال الشاعر :

إذا أنت لم تنفع فضُرَّ فإنما   يرجى الفتى كيما يضر وينفع

---

(١) مؤتشب : غير صريح

وقال مهيار :

إذا لم تجد من يعظمونك رغبة   ورمتهم أن ينصفوك فأرهب

فإنك مالم تُرْجَ أو تُخشَ فيهمُ   وتقعد مع الوسطى تدسك فتعطب

ولاشك أن البيت الأول أسمى وأبلغ لاشتماله على معنى بيتى مهيار وإن امتازا بحسن التصوير

° ° °

١٣ — قال المتنبي فى الشيب :

ابعد بعدت بياضا لا بياض له   لأنت أسود فى عينى من الظلم

وقال الشريف الرضى :

أيها الصبح زل ذميما فما أظـــلم يومى من بعد ذلك الظلام

وقال مهيار :

تأبى البياض وتأبى أن أسوده   بصبغة وكلا اللونين غربيبُ

° ° °

١٤ — قال امرؤ القيس فى الجواد :

مكر مفر مقبل مدبر معا   كجلمود صخر حطه السيل من على

وأخذ مهيار معنى شطره الثانى فقال :

تنضو الجيادَ كأنها ملمومة   هوت انحدارا من فَقَار «يلملم»[1]

° ° °

١٥ — قال الشاعر :

لا سرهن لدينا ذائع أبدا   وحافظات إذا استودعن أسرارا

وقال مهيار :

حفظت الذى استودعت من سر حبه   وهاجرته بغيا ، وقلبى مواصله

---

(١) يلملم : اسم جبل ، وفقار الظهر معروف ، والمقصود من فوق الجبل ، والملمومة الصخرة المستديرة الصلبة .

والمعنى مشترك من حيث التمدح بحفظ سر المحبوب فى الشطر الأول ، وإن اختلفت تكملته فى الثانى .

° ° °

١٦ — قال الشريف :

فاتنِى أن أرى الديار بطرفى　　فلعلى أرى الديار بسمعى

وقال مهيار :

غنيانى بأم سعد وقلبى　　معها إن قلبىَ اليوم سمعى

فقد تمنى الشريف أن ينوب سمعه عن طرفه ، ومهيار يرى أن قلبه قد ناب عن سمعه — وإحلال حاسة محل أخرى فى سبيل امتاع النفس بالمحبوب من المعانى التى تبارى فيها الشعراء كقول بشار :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة　　والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ومن أجمل ما جاء فى ذلك قول المرحوم « اسماعيل صبرى باشا » :

تثب القلوب إلى الرؤوس إذا مشت　　وتطل من حَدَقِ العيون فتنظر

° ° °

١٧ — قال الشريف :

وبات بارق ذاك الثغر يوضح لى　　مواقع اللثم فى داج من الظلم

وقال مهيار :

ولحمة ليل كالشعور اهتديتها　　بقدحة برق كالثغور لموع

وقد أبدع مهيار إذ قلب التشبيه فزاد المعنى جلالا .

° ° °

١٨ — قال الشريف :

إذا قل مالى قل صحبى وإن نما　　فلى من جميع الناس أهلٌ ومرحبُ

وقال مهيار : فى الاخوان :

وخبرتهم خبر اللبيب طباعه　　فهى على سعة على لضيق

° ° °

١٩ — قال الشريف :

وكيف وفور العرض والمال وافر ومن يخزن الأموال ينفق من العرض

وقال مهيار :

إذا كفك الميسور والعرض وافر فكل الذى فوق الكفاف فضول

. . .

٢٠ — قال الشريف فى مدح الخليفة الطائع :

نظرة منك ترسل الماء فى عو دى وتمطى ظلى وتنبت تربى

وقال مهيار فى عميد الدولة أبى سعد بن عبد الرحيم :

فلولا الندا العد الرحيمى ما جرى إلى أيكتى ماء ولا اخضرّ لى تُرْبُ

. . .

٢١ — قال الشريف :

علامة العز أن حسدت به إن المعالى قرائن الحسد

وقال مهيار :

فبقيتم والحاسدون علاكم لا خير فيما ليس فيه حسود

. . .

٢٢ — قال ابراهيم بن اسحق الموصلى :

إن ما قل منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

وقال مهيار :

فكثير الجزاء منك قليل وقليل من آخرين كثير

وبيت مهيار أكثر معانى — لأن ابراهيم يرى أن أقل ما تجود به المحبوبة يكفى لرى صداه وشفاء غليله ولو كان الجود به نظرة — كما يفهم من البيت الذى قبله

وهو (هل إلى نظرة إليك سبيل فيروّى الصدى ويُشْفَى الغليل)

والشطر الثانى تذييل للأول فلا جديد فيه — أما « مهيار » ففضلا عن

نقله المعنى من الغزل إلى المديح — قد عكس المعنى فيرى أن ممدوحه (كامل بن مهدى) مهما أكثر فى مجازاته على شعره بالعطاء فذلك قليل إلى جانب ما عرف من مكرماته — أما الآخرون فإن قليل العطاء منهم يستكثر لأنه أقصى مبذول ينتظره قاصدوهم. ولا يخفى ما فى بيت «مهيار» من جمال المقابلة

٢٣ — قال المتنبى :

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى   بأصعب من أن أجمع الجد والفهما

وقال مهيار :

تجمع بين المـــاء والنار يد   وما جمعت الرزق والأدبا .

شخصية مهيار كما تبدو فى شعره

الرجال صناديق مقفله مفاتيحها الألسنة ، وكلام الشخص دليل عقله والمرء مخبوء تحت لسانه ولذلك سنبحث عن شخصية «مهيار» فى تراثه الأدبى الذى خلفه .

ولشد ما تدهش حين ترى تلك الشخصية بجمع المتناقضات ، فبينا نرى صاحبها مرحا فى أمداحه يداعب ممدوحيه ويعاتبهم ويطالبهم بدفع العطاء إليه كأنه حق مفروض له فى مالهم ، كقوله من قصيدة فى أبى المعالى بن عبد الرحيم [١] :

يا رسولى ومتى تبلغ فقل   خير ما حُمّلَ مأمونٌ فأدى
«يا كمال الملك ، يا أكرم من   يممته ظُعُنُ الآمال تُحْدَى
يا شهابا كلما قال العدا   كاد يخبو زاده الرحمن وقدا
فرّعتْ للمجد منكم دوحة   كنت من أنضرها عودا وأندى
تربةٌ بورك فى صلصالها   أنجبتكم والدا طابَ وولدا
أجمع الحصباء فى مدحكمُ   بلسانى وأعد الرمل عدا

---

(١) ج ١ ص ٣٢٤

أبدا أنصب نفسى دونكم   علما فرداً وخصما ما ألدا
غير أنى منك يا بحر الندى   أشتكى حظى فقد خاب وأكدى
عادة تمنع أو تقطع بتًا   وحقوق وجبت تهمل جدا
حاش للسحب التى عوّدتها   منك أن يَرْوَى بها الناس وأصدى
كتب النيروز يستعجلكم   سائلا فى الوعد أن يُجْعل نقدا
فاقبلوه شافعا وارضوا به   زائراً عنى بالشعر ووفدا
أنتم أكرم من يُهْدَى له   والقوافى خير ما يُجْبَى ويُهدى

فيبدو هنا مرحا مداعبا ذا دلال على ممدوحه حتى فى مقام الاستجداء عند إطرائه الذى أكثر فيه حتى جمع الحصى وعد الرمل وخاصم أعداء كمال الملك وعند شكايته له من أن تعم سحبه الناس ويحرم هو الرى منها، ثم يطلب إنجاز وعد العطاء نقداً مستشفعاً بالنيروز وبشعره الذى يعتبره أكرم هدية لأكرم مهدى اليه.

ولو تأملت ما سقناه من أمثلة لشعره فى المدح رأيت تلك الشخصية — إلى جانب مرحها — تستبد بها نفسية قلقه طاحة تعبد المال وتكيف بتكيُّفِ الوسائل التى تؤدى إلى الحصول عليه — يتضح ذلك من قوله :

قامر بدنياك وبعها مرخصا   بأبخس الأثمان تغبن بائعا
إن عشت متبوعاً بها محسداً   أولا فمت لا تكون تابعا
فى الناس من يعطيك من لسانه   شعشعة الآل اطباك(١) لامعا
فإن ظفرت منهم بما جد
    فاضرب به شَوْلك(٢) تُنْتِجِب فارعا(٣)
واشدد عليه يد مفتون به   فليس إن أفلت منك راجعا

وفى البيت الأخير يبدو الجشع صريحا والتحايل على ابتزاز المال سافراً فهو يطلب إلى نفسه وأمثاله أن يظهروا الافتنان بالممدوح متى آنسوا منه

---

(١) اطباك : ازدهاك   (٢) جمع شائلة وهى ما أتى على حملها سبعة اشهر من الإبل .
(٣) الفارع المرتفع الهَنِىء الحسن وفى الأصل قارعا بالقاف وهو عندى أوفق على أن تكون حالا من فاعل تنجب

خيرا ، وألا يتركوه يفلت بماله من أيديهم لانه إن أفلت فليس بعائد إليهم وكيف يفلت الماجد من شراك هؤلاء المداحين الا إذا كانوا ثقلاء ملحين

على أن وميض هذا المرح سرعان ما كأن ينطفىء أمام الحاجة الملحة وأمام عبادة المال، فإذا شخصية صاحبه متواضعة هينة كأن يقول مخاطبا فخر الملك :

أرى من قريب شمل عزى مبدداً — وقد كان ظنى أنه بك جامعُ
أيا جابر المنهاض لم يبق مفصل — والا ندوبٌ تحته ولواذع
أعيذك بالمجد المحسد أن يرى — جنابك عنى ضيقا وهو واسع

. . .

بينا نرى مهيار كذلك فى المديح نرى شخصيته تلبس ثوبا جديداً فى الفخر، هو ثوب الخيلاء والزهو، والاعتزاز بمجد قومه الدارس، والإفراط فى المباهاة بأشعاره، من نحو ما قدمنا لك من أمثال ومن مثل قوله فى أشعاره مخاطباً الكافى الأوحد :

واسمع فإن عزبت[1] فلم تسمع لها — أختالها من مادحيك عرفتنى
هى قبلة صلى القريض لها، فمن — لم يَعْنُ منه لها فليس بمؤمن

ولكن تلك الشخصية التى يزدهيها الفخر وترتفع بها الكبرياء كثيرا ما كان يزرى بها الاستجداء وكيف تجمع بين الترفع والإلحاف فى المسألة إلا إذا جمعت بين الماء والنار .

. . .

أما فى الهجاء وعتاب الدهر والشكوى من تخلى الأصدقاء فلشخصية الشاعر فى جميعها لون واحد، شعاره التبرم والغضب والسخط ، ويبدو فى تلك الناحية ثائراً ثورة المظلوم العاجز عن درك وتره من ظالمه ، كما يبدو مكبوت الغضب يضيق به فؤاده ، ولا يصرح بأكثره لسانه ، لأنه كما يقول عن نفسه أثناء مدحه أبا طالب بن أيوب :

نفسى أحجى من أن تحلم بالو (م) عظ وقلبى بالمجد مضطلع

---

(١) عزبت بعدت

وإن هوى بى أو حطَّنى حُمُقُ الحـ ظ فهمى يسمو ويرتفع
صدقت دهرى عنى ليعرفنى لو كنت فيه بالصدق أنتفع
وقلت مل بى عن طرق مسألة النـ اس وقـدنى فإننى تبـع
جربت قوما وفاؤهم بارق الخـ لب لا يمطرون إن لمعوا
فى العسر واليسر يمنعون فإن أعطوا تمنيت أنهم منعوا
طمعت فيهم حتى يئست وما اليـ أس سوى ما أفادك الطمع
فاقعد إذا السعى جر مهضمة وجع إذا ما أهانك الشَّبَعُ

إن بعض الشعراء كربى الأحساس ، برقى الانفعال ، وقد كان «مهيار» من هذا البعض ، فهو يتأثر لأقل هاجس يعرض له إن تخلى عنه صديق ، أو تغاضى مسئول ، ثم هو فوق ذلك أديب عفيف لا يتبذل إن شكا ، ولا يسب إن سخط فلم تكن مندوحة له فى مثل تلك الأحوال من أن يعاود نفسه ثم يجاهدها حتى يحملها على الاعتصام بحبل العفة ، وقنة الشمم ، فتراه يعدل فجاة عن أسلوب الذلة الوادع إلى زئير الفخر الغاضب متبرئا من نفسه حينا كقوله :

إذا أنا طالت وقفتى فتوقنى فإن لها لابد وثبة منجب
ويا صاحبى والرزق للذل مورد أضن بنفسى عنه وهى تجود بى
خذ النفس عنى والمطامع إنها قد استوطأت من ظهرها غير مركبى

ثائراً فى وجه ممدوحه حينا آخر كقوله :

أتلنى بعض ما يرضى فلو ما غضبت حمانى الأنف الغضوب
ومن هذا يرد عنان طرْفى إليك إن استمر بى الركوب
سترمى عنك بى إبلى بعيدا وتنتظر الإياب فلا أؤوب

ولقد أفادت هذه الثورة المكبوحة الشاعر وساعدته على البراعة فى العتاب والشكوى — لأنه ليس لحبيس الشهوات والعواطف وسجين الآلام والآمال من متنفس غير اللسان ، ولذلك كان ظلم أمانى المتنبى ، واتهام النابغة ،

ونفى البارودى — مثلا — عاملا قويا فيما أنتجه كل منهم من ثروة شعرية صادقة التصوير .

وفى الأبيات الآتية يبدو ضجر « مهيار » بالحياة أشد ، وسخطه على الأرزاق تجنبها المسألة أكبر ، حتى لتراه يستغيث بالناس من الناس وبالأيام من عنت الأيام وليس أشد على نفس المعتد بفضله من أن يعيش مهضوم الحق ، منتقص القدر ؛ ولا على العزيز الحر من أن تلق به الحاجة على أبواب المسألة مغلولا بحبل المنّة لذلك بدا الشاعر فى هذا المثل من شعره ثائرا حانقا ، تضيق حيله عن بلوغ أمله حيث يقول[1] :

أعينونى على طلب المعالى فقد ضاقت بها سعة احتيالى
ودلونى على رزق بعيـــد وإن هو قل عن بذل السؤال
فلو قنن الجبال زحمن جنبي وقعن أخف من منن الرجال
وإلا فاسلبونى حظ فضـــلى إلى ما فاتنى من حظ حالى
ونحونى وحيـــدا لا علىّ الـــ محاسن والشقاء بها ولا لى
ألا رجل يخاف العيب منكم ويأنف للحقوق من المحال[2]
فيعدل فى القضـــية لا يحابي ويحكم بالسّويّة لا يبالى
تواصى الناس إكرام الأسامى وهان لديهم كرم الفعـــال
يعد أخوك أشرف منك بيتا بأنك عاطل وأخوك حالى
عسى الأيام يوجعها عتـــابي ويخجلهـــا انتظارى واحتمالى

على أن تلك الثورة وهذا الغضب كان مقدمة قصيدة بعث بها لأحد خلصائه من « كتاب فخر الملك » يهنئه بخلعة هذا الوزير عليه ويستعين به على إنهاء كتاب منه إلى مجلسه وهو « بأوانا » ، أى أنه نظمها مستحثا صديقه على أن يكون وساطته إلى فخر الملك — يدل على ذلك ما جاء فى عنوانها كما يشهد به منها قوله :

(١) ج ٣ ص ٣٥ — (٢) المحال بكسر الميم = الكيد وروم الأمر بالحيل

وجرب منك نحر الملك عضبا   مخوف الحد مأمون الكلال
تجلل منكبيك لباس فخر   يدل على التناسب فى الجلال

٭ ٭ ٭

إذا نثرت لك الدنيا سعودا   حظيت بها فنظمتُ اللآلى
ولكن وفّنى منها نصيبا   بجاهك ، لا أسومك فضل مال
وجاز مفيدك الحسنى بذكرى   ومهّد عنده بالوصف حالى
فإن هدية مثلى(١) لتكفى   مكافأة لأنعمه الجزال
وقد جربتنى وخبرت قدما   فهل شىء يريبك من خصالى ؟
وغيرك قد تكفل أمر غيرى   فنال بسعيه بعض المنال
وقدم آخرون وهم بطاء   فمالك لا تغار على العجال

ننتقل بعد ذلك إلى لون جديد فى شخصية « مهيار » ، يظهر فى مراثيه، وهو لون شاحب حزين يتفق وصبغة الأحداث والمصائب ، وفى هذا الغرض يبدو صاحبنا كاسف البال يائس العزم واجب القلب ، لأن المرثيين كانوا فى جملتهم — دون غيرهم — أشعة أمله ومحط رجائه فكلما قبض منهم رجل، انقبض له من نفسه شعاع ، وانطفأت من آماله بارقة فلا يزال متحسرا حزينا ، ضارعا لصدمة المقدور، صابرا على ريب الزمان وخطوبه المتواترة، وأرزائه المتعاقبة حتى لقد أعجز الشاعر عد ذنوبه ، ولذلك عدل عن محاسبته إلى مداجته ، كما يبدو من مقدمة مرثيته فى ابنتى أبى الحسين بن روح النهروانى:

على أى أخلاق الزمان أعاتبه   وما هو إلا صرفه ونوائبه
تفرّى أديمى وهو بُتْر شفاره   وجافت جروحى وهو صم مخالبه(٢)
ذنوب تفى هذه إثر هذه   ودام إذا ما باخ أوقد صاحبه(٣)

---

(١) وردت فى الديوان بضم الميم وسكون الثاء، وفتح اللام وأفضل أنها مثلى بكسر الميم واللام
(٢) جافت : بلغت الجوف ، وصم : جمع أصم وهو الصلب المتين .
(٣) باخ : خمد .

شغلت يدى حينا بعد ذنوبه وزدن فقد تاركته لا احاسبه

. . .

نصحتك لا تخدع ببسمة وجهه فشاهده حسن تشوه غائبه
ولا تتمهد قِعدة فوق ظهره فما هو إلا ضيغم أنت راكبه

. . .

تصاممت عن داعى المنون مغالطا وإنى على طول السكوت مجاوبه
وقدمت غيرى جُنةً أتقى بها ومن يوق من راميه لابد صائبه
أخلاى ، أيم الله أطلب ثأركم من الدهر، لو قد أدرك الثأر طالبه
أفى كل يوم لى قضيب مُخالَسٌ وذخر نفيس منكم الموت غاصبه
وكم منكم كالنجم رعت به الدجى زمانا خبا بعد الإضاءة ثاقبه

٥ ٥ ٥

فأنت ترى من خلال هذه الأبيات شخصية بكاءة جازعة ، تؤذنها الفوادح بأنها إلى ربها راجعة، يتنخل الموت صفوة أعوان صاحبها، ويخطئه غير مستقر ولا آمن ، فمثله كراكب الأسد لا يبقى إلا فزعا ، ولا ينزل عن ظهره إلا مأكولا ، ثم هو عاجز عن رد عاديات الردى وطلب الترة من الدهر ، فليس له إلا أن يستكين، ويصبر على آلامه الممضة وأحزانه المقضة إلى أن تحيط به من قانص الأرواح :

حبائل مكتوب لها نصر كيدها من الله ، لا يمحى الذى هو كاتبه

على أن الأسى قد وجد من قلب ذلك الشاعر الشيعى الحزين بطبعه أخصب مرتع وأطيب مقام .

ومن هذا الموجز الذى قدمناه يتبين للقارىء أن شخصية مهيار كانت مرنة تشكلت بأشكال الأحداث وتلونت بألوان الزمان ولبست لكل حال لبوسها من رضا وسخط ، ومرح وضجر ، وقناعة وجشع ، وصبابة وعفة، وترفع واتضاع .

مآخذ على شعر مهيار

لسنا فى هذا الباب بمحاولين أن نستقصى جميع ما يؤخذ على «مهيار» فى شعره، ولكننا سنذكر بعض تلك المآخذ على سبيل المثال جانحين إلى الإيجاز، معتذرين لقارئ الديوان إذا كنا قد تركنا مأخذا جديرا بالتنبيه إليه.

أولا: وأول تلك المآخذ خطأ عروضى فى أحد بحور الشعر وهو «مخلع البسيط» فالمعروف أن تفاعيله:

مستفعلن فاعلن فعولن — مستفعلن فاعلن فعولن

وبينما يسير مهيار فى هذا الوزن على تفاعيله الصحيحة تراه يخطئ فيحيد عنها إلى مستفعلن مستعلن فعولن — مما يحدث فى وزن البيت ثقلا يحسه لسان القارئ، وتنفر منه أذن السامع ولو كان ممن لا يلمون بفن العروض — ومن ذلك ما وقع فيه فى بائيته فى أبى المعالى هبة الله بن عبد الرحيم فى نيروز سنة ٤١٥ والتى مطلعها [١]:

يادار لا أنهج[٢] القَشِيبُ — منك ولا صوَّحَ الرطيب

ومنها: وكان عطرا كما عهدنا — مشى الصبا فيك والهبوب

فرب ليل ثَرَاكِ فيه — بين نحور العشاق. طيب

عجنا وليل المطى ليل — بعد وصوت الحادى صليب

وما نقضناه من طريق — من حيث رحنا عنه قريب

فقال صحبى أضل هاد — أم خدع الحازم الأريب؟

ليس أوان التعريس هذا — قلت: هو الشوق لا اللغوب.

وقد وضعنا للقارئ خطا تحت كل مصراع لا يتمشى مع الوزن، ولنا من ذوق القارئ شاهد وحكم، ويلاحظ أن بعض هذه الأبيات يمكن

(١) ج ١ ص ٨٤ — (٢) أنهج: بلى

إصلاح خطئه على أنه من قبيل التصحيف أو التحريف بسبب جهل النساخ — كأن نقول فى الأول ، مما تحته خط ، مثلا :

بين نحور العتاق طيب

وفى الثانى — بعد وصوت الحدا صليب

وفى الثالث — من حيث رحنا به قريب

وفى الرابع — ليس أوان المقام هذا

ومع ما يبدو من ظاهر المجاملة للشاعر فى هذا الإصلاح وإلقاء التبعة على النساخ فهناك اعتبارات لها وزنها تحول دونه أهمها :

١ — أن القصيدة بها مالا يقل عن خمسة عشر بيتاً مختلة ، مما يضعف احتمال التحريف .

٢ — أن هذا الخطأ العروضى قد تكرر فى قصائد أخري من هذا البحر ، كما فى لاميته . فى زعيم الملك أبى الحسن بن عبد الرحيم فى النيروز ومطلعها[1] :

يُذْنِبُ دهرٌ ويَسْتَقيلُ ويستقيمُ الذى يَميلُ
وربما حنت الليالى ثم لها مرةً عُقُولُ
فاسر فإن الدنيا طريق[2] أسهل ميل ، وشق ميل
أبناء عبد الرحيم أفق لم يهتضم شمسه الأفول
لا تحسبوها إذا توارت أن التوارى لها نزول
فالأسد أسد فى الغيل والنـ صول فى قربها نصول
إذا زعيم الملك اقتفاهم يحمى من الضيم أو ينيل

وقد وضعنا لك تحت الأبيات غير مستقيمة العروض خطاً ، على أن الاختلال فى البيت (فالأسد أسد ....) جد ظاهر .

وكذلك جاء فى لامية أخرى من نفس (بحر مخلع البسيط) فى مدح كمال الملك أبى المعالى — هذا الخطأ بعينه ، فمطلعها[3] :

(١) ج ٣ ص ١٧٤ (٢) صواب عروضه — فاسر فان الدنى طريق
(٣) ج ٣ ص ١٥٧

يا دار ما أبقت الليالى   منك سوى أربُعٍ بَوالى

مستقيم الوزن — ثم يحدث الخطأ فى الأبيات التى تليه كقوله :

وفى الغيط المومى إليه   بدردجى من « بنى هلال »

وقوله :

بمن أحل الشكوى وألق   وسُوقَ أشجانى الثقال

يدل كل ذلك على أن الخطأ خطأ الشاعر ، وليس إهمال الناسخ .

وقد عثرنا على أخطاء عروضية أخرى رجحنا إلقاء تبعتها على عدم دقة النسخ أو الطباعة من مثل قوله :

ودعتنى إلى هــواه سجايا   هن صر فى عن سواه وردعى[1]

والقصيدة من الخفيف ، وعلى ذلك فصواب البيت .

هن صرفى عن سواه وردعى

هذا إلى جانب بعض أخطاء أخرى لاحظها حضرة الأستاذ الفاضل المشرف على طبع الديوان ، وعنى بتصحيح معظمها تصحيحا دقيقا .

ثانيا : ومن تلك المآخذ ما يتعلق بالمعانى ويمكن تلخيصه فيما يأتى :

١ — تكرير المعنى الواحد فى شعره كقوله فى الوزير المغربى فى مدحه ومدح آبائه :

زدت وما انحطوا ولكنها   زيادة البدر على الكوكب

وقوله مرددا نفس المعنى فى أبى طالب محمد بن أيوب :

زيادة البدر بشعشاعهِ   على ضياء الكوكب الثاقب

. . .

ومن مثل قوله فى أحمد بن عبد الله الكاتب :

ملكت فؤادى عند أول نظرة   كما صاد عذريًا أغنُّ ربيب

---

(١) ج ٢ ص ٢٣٥

ومن نفس المعنى فى الكافى الأوحد :

أحن إذا الوفد استقلوا لقصدكم حنين الفتى العذرى مرّ بربرَبِ

ومنه — فى شعره مخاطباً أبا طاهر بن حماد :

جاءنى أنك مشـــعوف به شغف العذرى بالخشف الربيب

٢ — قبح التشبيه ويتصل به قبح الاستعارة التى يتوقف حسنها أو قبحها على مدى ذوق الشاعر وتوفيقه فى اختيار المشبه به ، ولا نقصد بذلك إلى أن « مهيار » قد خلا شعره من التشبيه المحكم المبتكر فله تشبيهات غاية فى الروعة والأحكام من نحو قوله مخاطبا « على بن محمد البندارى » الكاتب خليفة الكافى الأوحد .

وغيرك من سكنت إليـه كرها كما سكن العذار إلى المشيب

وكقوله فى وصف البرق .

كأن ما لاح منه وهنا على شباب الدجى مشيب .

ولكن ما أخذناه على « مهيار » فى هذا قد وقع فيه الشعراء غيره بما فيهم أبو الطيب . فمن خطأ تشبيهات « الديلمى » ما سبق لك فى البيتين اللذين قالها فى « الكافى » وأحمد بن عبد الله » لأن الشاعر لم يزد على أن جعل ممدوحه غادة يشبب بها .

وكقوله لأحد ممدوحيه من بنى مزيد :

وتظلم آمالى لديك ومطلبى ووجهك من تحت اللثام أخو البدر

وكثيرا ما وقع مهيار فى ذلك الخطأ مع معظم ممدوحيه فشبههم بالبدور والكواكب وبالشمس مما لا يليق بصفة الرجال .

ومن هذا القبيل خطاب الشاعر لسعد الملك بن حاجب النعمان سنة ٤١٧هـ :

ورثت فضلا لو قنعت لكنى لكن أبيت غير ماتكتسب

كالليث لا تحلو له فريسة   لا ينشق فيها ولا يخلب
حوَيْتَ إعظاما وقدمثلت لى   رائدَ عينىّ ، وقلت تكذبُ
أدمية صيغت أم البدر هوى   وبشر ، أم ملك مقرب
معجزة جاء الزمان غلطا   بهـا وآىٌ كلهن عجب

فبينا تراه يشبه الرئيس الممدوح فى إيثاره مكسوب الفضل على موروثه — بالأسد الذى لا تحلو له إلا الفريسة التى يتعب أسنانه فى انتقاء دهن عظامها، ويعمل مخالبه فيها — وهو حسن — تراه يسقط فى التشبيه التالى إذ يتصور ممدوحه دمية مصوغة ، وبدراً هاوياً مما لايستسيغه الذوق العربى ، ثم يقلل من قيمه التشبيه الأخير بجعل المعجزة غلطاً — إلى غير ذلك مما لا يتسع المقام لاستقصائه من التشبيهات غير الموفقة .

ومن قبيح استعاراته قوله للوزير أبى القاسم المغربى :

كم أجهضت قبلك من عدهم   لها شهور الحامل المقرب
وولدت وهى كأن لم تلد   أمٌ إذا هى لم تنجب

والضمير فى أجهضت للوزارة ، فقد شبهها بالحامل التى أجهضت ، وقبح المشبه به هنا ظاهر لا يحتاج إلى تشريح .

وقوله فى آباء ذلك الممدوح نفسه ومن نفس القصيدة :

تسلقوا المجد وداسوا العلا   وطرقها يهماء لم تُلْحَب (١)

فأى إزراء بالعلا أقبح من جعلها مداسا لأقدام الممدوحين ، وكيف يتحلى المرء ويفخر بما يطؤه بأقدامه . أما كان الأليق أن يقول « تسلقوا المجد وراموا العلا » . أو « ونالوا العلا » ؟ سأترك الجواب لذوق القارىء .

وكقوله فى « المفرج بن على بن مزيد » مشيرا لأنه نفحه قصيدة مدح بناء على رغبة الممدوح ووعد عطاء جزلا لم يوفه .

---

(١) يهماء : فلاة مضلة ، وتلحب : تسلك .

وأمهرتموها[١] وارتجعتم صداقها　　فهل تستحلون النكاح بلا مهر

فأى ذوق يقبل أن تشبه القصيدة بالزوجة المخطوبة ، والعطاء عليها بالصداق ؟

وكقوله فى « أبى القاسم بن ماكولا » حين سافر من بغداد إلى البطيحة « ما بين واسط والبصرة » متقلدا إياها :

ويحسب بدر « عجل » أن ليلى　　له من بعد غيبته صباحُ
وأنى بَعْــدَهُ بِمُــتَى ولحظٍ　　ينازعنى إلى جــذل طِمَاحُ
إذن ففركت بعل المجد منه　　وبنت من العلاء ولا نكاح

فأى رجولة تقبل أن تكون زوجة فاركا من مجد الممدوح الذى تعتبره بعلا ، وبائنا من العلاء ، ولكنها رجولة غير عربية .

. . .

٣ — عدم الدقة فى استعمال ألوان البديع ، ومن ذلك المقابلة فى البيت الآتى :

ما أذل الخصب فى دار الأذى　　والذ العز فى دار الجدوب

فليس هناك تضاد واضح بين اللذة والعزة ، ولا أدنى تخالف بين الخصب والعز . . . وإنما تصح المقابلة بين دار الأذى ودار العز ، وبين الخصب والجدوب ... وكان ذلك اللون البديعى يكون أظهر لو قال مراعيا الترتيب .

ما أمر الخصب فى دار الأذى　　وألذ الجدب فى العز الرغيب

. . .

ثالثا : وقع فى كثير من المخالفات للأقيسة والقوانين النحوية المشهورة :

١ — كإدخال ياء المخاطبة على الماضى فى قوله :

أردتينى ليملكنى نفاقاً　　سليم الوجه ذو ظهر مريب[٢]

---

(١) الضمير يعود على البكر فى البيت قبله ويقصد بها مدحته .　(٢) ج ١ ص ١٥

٢ — وكإبدال همزة القطع بهمزة الوصل فى مناسبات كثيرة كقوله فى أبي المعمر بن الموفق يمدح آله [١] :

إذا ولدوا فتى سعت المعالى تَبَاشرُ بينها بالإزدياد

وقوله فى جلال الدولة — متحدثا عن تسمية كسرى للمهرجان :

وشق له من اسم الشمس وصفا يصول به صحيح الإشتقاق

* * *

الشريف الرضى ومهيار

أو الأستاذ والتلميذ

إن الموازنة بين شاعر وشاعر من الأمور الصعبة المركب إذ لا قانون يضبطها ولا قاعدة تضمها وإنما مرجع ذلك الذوق والوجدان ، وما أكثر اختلافهما فى بنى الإنسان ، وقديما خاض أولو النظر بالشعر ونقده هذا الموضوع ، فتراهم قد فضلوا شاعراً على آخر لبيت قاله فصادف من نفوسهم هوى فإذا سمعوا من غيره غيره فضلوه وهكذا تختلف آراؤهم تبعاً لمدى تأثرهم بما يسمعون .

على أن الموازنة بين شاعرين تكون أيسر تناولا وأكثر دقة إذا عاشا فى عصر واحد وقالا فى غرض واحد .

والشريف ومهيار ربيبا عصر واحد ضمتهما بيئة اجتماعية واحدة ، وأظلتهما دوحة أدبية واحدة ودانا بعقيدة واحدة ، وشربا من معين فكرى واحد ، إلا أن الشريف قد سبق مولداً ونشأة بما يقرب من سبع سنوات ، ونضج تفكيره مبكراً وقال الشعر بعد العاشرة من عمره بقليل .

كما أن الشاعرين اتصلا اتصالا وثيقاً ما يقرب من ربع قرن — لأن

(١) ج ١ ص ٢٧٤

الشريف عاش حوالى عشرين سنه بعد قصيدة مهيار الميمية فى تفضيل الفرس والتى يمدح فيها أهل البيت ، فهل يعقل أن يكون ذلك قبل مرور مدة على اختلاطهما تكفى لتأثر الناشىء المجوسى بمبادىء التشيع ، وإذا صح ما يرويه لنا المؤرخون من أن « مهيار » تلميذ الرضى وأنه تلقن عنه فن الشعر فإن تلك القصيدة التى أومأنا إليها لا يعقل أن تجود بها قريحة ما ابتداء قبل دربة طويلة ومعالجة لنظم الشعر وقتاً غير قصير .

لهذا كله لم يكن بغريب أن يصبح « مهيار » من الشريف كالظل من الجسم ، والصدى من الصوت وأن يكون حتى فى إنتاجه الأدبى صورة مصغرة — قليلا — لأستاذ يقتفى أثره وينهج نهجه ، ومما يأتى ستعلم إلى أى مدى كان تأثر الرجل الأعجمى الديلمى ، بالشريف القرشى .

أولا : لقد كان كل من الرجلين شاعراً كاتباً ، فالشريف المعروف بشاعريته الجبارة كان كاتباً مجيداً إلى أبعد مدى ، حتى ليقال إنه مفتعل « نهج البلاغة » المنسوب « للإمام على » ، أو معظمه ، ومهيار فوق كونه شاعراً كان كاتباً — حتى أن « أبا الفرج الجوزى » صاحب المنتظم « ذكره بعنوان « أبو الحسن مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسى » ، وقد قدمنا لك أنه اشتغل بالكتابة فى ديوان الخلافة ببغداد .

ثانياً : تشابها فى الأغراض الشعرية التى تناولاها فكلا الشاعرين أجاد المديح والرثاء ، والفخر والهجاء ، والوصف والغزل ، والشكوى والعتاب . إلا أنهما يتفاوتان فى تلك الأغراض من حيث الاتجاه .

فمدائح الشريف يبدو عليها طابع الإباء ، ومدائح مهيار يغلب عليها الرياء ، وتعليل ذلك أن الشريف لم يكن متكسباً على حين تكسب تلميذه بشعره ، هذا فضلا عن مركز الشريف الاجتماعى الذى جعله مخطوب الود مرهوب الجانب ، وله من محتده ، ومنزلة أبيه « أبى أحمد الموسوى » جاه عريض .

كان مهيار يمدح الرؤساء والوزراء والكتاب وغيرهم من الأصدقاء وأشراف العلويين وكان أكثر مدحه لغاية الارتزاق ، وبدافع هو حب المال — أما أستاذه فكان يمدح أمراء بنى « بويه » ، ويمدح الخلفاء وأفذاذ الوزراء فاعتبر شاعر الخاصة وقد كان مدحه للبويهيين بعد « عضد الدولة وصمصام الدولة » اللذين فى عهدهما ذاق أبوه ألواناً من العنت من سجن وتشريد ، ومصادرة أملاك — فلما تولى « شرف الدولة » وأطلق سراحه هز حسن الصنيع عواطف الرضى فمدحه ومن ذلك الحين ابتدأ يمتدح البويهيين بعد أن كان لا يمدح غير الخلفاء ، وعلى حين كان تلميذه الديلمى لا يجرؤ على مدحهم .

وكان الرضى يمتدح نواحى الفضل والإصلاح فى الرجال لأنه كمصلح اجتماعى يفخر بالفضيلة أحب المصلحين والفضلاء

لقد مدح كل من الشريف ومهيار « محمد بن خلف » الملقب بفخر الملك ، وزير « بهاء الدولة » ثم وزير ابنه « سلطان الدولة » ، وقد نبهنا فى باب المديح إلى قصيدة مهيار فى ذلك الممدوح وهى اللامية التى مطلعها .

أروم الوفاء الصعب بالمطلبِ السَّهْلِ

وأرتاد جود الحبِّ فى منبت البُخْلِ

وسنذكر للشريف مدحة فى فخر الملك نفسه لتدرك بنفسك — وقد قال الشاعران فى غرض واحد وممدوح واحد مدى الفرق بين مديحيهما .

تبدأ مدحة مهيار بالغزل فى تسعة أبيات ، وفى العاشر يتخلص إلى الممدوح إذ يقول[1] :

ومالى « وفخرُ الملك » جارىَ نصره بنفس كنفسى لا أضن ولا أغلى
وعلَّم عزا كل قلب ووسمت يداه ببسط الجود كل يد غفل
رأى غير معقول على الغيب رأيه وجاد فخيط المزن ليس بمنحل

(١) الديوان ج ٣ ص ٤٣ .

وأعجز قـــول السائلين نواله ... وإن كان حظى منه يمشى على مهل

° ° °

ثم يبين أن ما أصابه من فيض الممدوح قليل لا ينقع غلته ، على كثرة عمومه الناس مع أنه أسبق فى الاتصـال به من غيره من الشعراء الذين لا يستطيعون مجاراته .

أرى عارضا قد طبق الأرض ماؤه ... وعم وربعى منه ليس بمبتل
وجارين لو مسوا غبارى تحملوا ... وقدوَصَلوا بعدى وقدوُصِلوا قبلى
أتوسع قدامى — وحاش قياسكم ... خطى قدم لو قد حذت ماحذت نعلى
شرائط نُعْماكم واحسان جودكم ... ترى جذبكم ضَبْعِى ، وحملَكم ثقلى
فإنكم لو تنفضون عيابكم ... لعز على التفتيش أن تجدوا مثلى

° ° °

ويستمر بعد ذلك فى تقريظ أشعاره فيقول :

ومنتخبات إن دَهى الشعر هجنة الأ (م) بوة راحت وهى مخبورةُ الأصل
إذا ما رأيت النجم منها مشرقا ... شهدت — ولم ينسب أبا — أنه نجلى (١)

° ° °

ثم يبكى حظه ويعـود إلى تحقير من أفادوا من خير الممدوح دونه ، ويستحثه على العطاء ، ويهجو حاسديه :

وهل نافعى يوما وحظى قاعـد ... إذا نهضت بى همتى أوسعت رجْلِى
ولما منتم بالنـــدى فعطفتم ... على وأعلقتم بمعروفكم حبلى
حمانى نداكم صفوه وحلاله ... خبيثُ اللسان دونكم كدرُ الفِعْلِ
إذا مضغ الأعراض كان عدوه ... ومولاه فى فيه خليقين بالأكل

(١) جاء بذيل الديوان أن نسج البيت صناعة غير ملتئم ، ولا أقر ذلك لأن معنى البيت أن أشعار مهيار كالنجوم ممتازة على غيرها من الأشعار فاذا ما رآها الممدوح غير منسوبة لقائلها عرف أنها لمهيار .

أمانىَّ لى فيكم أمات نشاطها ... فلا كان من قبل الأمانى فى حل
وما والذى أحيا بك الجود بعدما ... لها الناس عنه واطمأنوا إلى الشُّكْلِ
جزعت لوفر أخطأتنى سماؤه ... وصابت بطلٍّ أرض غيرىَ أو وَبْلِ

° ° °

فإنى على عض الزمان وحمله ... صليب قناة الصبر جَلْد على الثقل
أحب الجدَا يأتى جميلا منوَّهاً ... وأقلى الغنى المجنوبَ فى رَسَنِ الذل
ولكن يظن الناس أنك مانعى ... لزهدك فى مدحى وشكك فى فضلى

وبعد أن يعرض بغير فخر الملك من الممدوحين البخلاء يقول :

أبى ونوَّهْ بى قرب صنيعة ... زكالك فرْعاها ولم تشق بالأصل

ويختمها بالدعاء للمدوح بأن يبقى معدوم الشبيه ، وبدوام العز مدى الدهر ما لبى الملبى وطاف الطائف بالبيت ، يدعو له الحجيج أن يرعاه الله لصيانة الحرث والنسل وذلك فى قوله :

بقيت بلا بعد تراعى انتظاره ... كما أنت إن عد الملوك بلا قبل
يَعُدُّ لكَ الأعيادَ متصلُ العرى ... من العمر منظومُ العلائق فى الشمل
مدى الدهر مالبوا فطافوا فحللوا ... عن البدن يوم النحر مثنيه العقل
وما نسلوا للنفر داعين من « منى » ... رعى الله « فخر الملك » للحرث والنسل

أما قصيدة الشريف فسنورد لك معظمها قبل الموازنة ، وقد كتب بها إلى فخر الملك وهو بفارس :

أحق من كانت النعماء سابغةً ... عليه من أسبغ النعمى على الأمم
وأجدر الناس أن تعنو الرقاب له ... من استرق رقاب الناس بالنعم
إذا سما فإلى العلياء نهضته ... وإن مشى فعلى الأعناق والقمم
لله أم تلقته براحتها ... ماذا تلقت إلى الدنيا من الكرم
كم غبت عنه وما غابت مكارمه ... ونمت عنه بآمالى ، ولم ينم

لا يتبع المال أنفاسا مصاعدة ... ولا يعير العطايا زفرة الندم
يا ممرضا بالمساعى قلب حاسده ... على العلا ومداوى الفقر والعدم

° ° °

أقام سوق المعالى وهى بائرة ... مجالُ عزمك بين السيف والقلم
فنى النزال يد حمراء من علق ... وفى النوال يد بيضاء من كرم
أعيا الرجال وإن عزوا وإن كرموا ... مكانُ كفيك فيها من ندًى ودم

° ° °

فأنت ترى الشريف فى قصيدته شاعراً يقيم وزناً للمثل العليا — مدح « فخر الملك » لا ليقال إنه شاعر بارع أدرك بثنائه على الممدوح شرفا ومجداً ، ولا لينال عطاء هو عنه فى غنى وإنما أثنى عليه لمقصد أسمى ، وهو أن « فخر الملك » وزير عظيم وسياسى حازم ومصلح كبير ، وتلك صفات جديرة بالتقريظ والإطراء فكان محور قصيدته الكشف عن مناقب ممدوحه التى يجملها فى سعة نعمته التى لم يضن بها على الناس حتى استرق رقابهم ، وأنه دائم الأيادى على الشاعر ، فى القرب والبعد ، عند التأميل فيه وعدمه ، وأنه يعطى راضيا فلا يندم على أثر عطاياه التى قضت على الأجداب ، ثم وصف سعيه بأنه فوق سعى الحاسدين لعلاه ، وأنه جمع بين طرفى الشجاعة والبلاغة وأن يده فى هول المعركة حمراء من كثرة ما يسيل من الدماء وفى السلم بيضاء من غزرة العطاء ، ثم أبان أنه فى الحالين : الشجاعة والكرم : قد أعجز لاحقيه مهما عزوا وكرموا .

وأنت ترى كذلك الشريف شاعراً يتوخى مدح الرجال بما فيهم ، فلا يبالغ مبالغة مهيار وتراه عزيز النفس فلا يتملق الممدوحين تملق تلميذه .

وهو : أى الشريف : وإن بدأ بعض أمداحه بالغزل لم يسرف إسراف مهيار فكثيراً ما كان يؤثر الدخول على الموضوع من غير مقدمة ، أو بمقدمة فى الفخر بشجاعته أحياناً .

ولئن كان أقصر — فى أمداحه — من تلميذه نفسا ، إلا أنه كان أشرف معنى ، وأعلى اسلوبا .

أما فى الهجاء فيكاد الشاعران يتشابهان موضوعا وعفة لفظ ، ولقد كان محور هجائهما ذم الزمان والإخوان والأقسام وقد سقنا إليك أمثلة متعددة من شعر مهيار فى هذا الغرض وإذا قرأت قول الشريف :

نظرت إلى الدنيا بعين مريضة ... وما لى من داء الرجال طبيب
فمالى طول الدهر أمشى كأننى ... لفضلى فى هذا الزمان غريب
إذا قلت قد علقت قلبى بصاحب ... تعود عواد بيننا وخطوب

علمت أنه فى موضع الأستاذ فى ذلك الغرض كذلك .

على أن سر الشكوى عند الشاعرين ليس واحداً ، فلئن كان عند مهيار خيبة أمله فى الزمان والناس وقلة المال وما إليها مما يدخل فى دائرة الآمال المحدودة . فلقد كانت شكوى الشريف من خيبة آمال أوسع محيطاً ، وأسمى مكانا فما كان تواقا لجمع المال والسعى للحصول عليه — وهو فى فضل منه — ولا كان مقصور الأمانى على منصب يتولاه مما كان غاية أدباء ذلك العهد ، ولكنه كان يريد أسمى مكان فى الدولة ألا وهو عرش الخلافة ، واضطر فى سبيل ذلك لإحسان صلته بالبويهيين ليتخذ منهم سندا ، وبالحمدانيين ليكونوا له عضداً .

ويدخل فى ذلك الغرض بكاء الشباب والشكوى من المشيب ، فكلا الشاعرين شاب صغيرا ، وكلاهما أكثر من التبرم بالمشيب فى شعره وعلل تعليلا لطيفا لبياض الشعر معجلا ، وقد قدمنا لك عند تقدير الفترة التى ولد بها مهيار — أمثلة لكليهما .

ومع إحسان « مهيار » التعليل — من نحو ما أسلفنا لك — فما استطاع أن يبدع إبداع « الرضى » فى قوله :

فى قوله يرثى ابنة أحد أصدقائه :

تخطو وما خطونا إلا إلى أجلِ … وننقضى وكأن العمر لم يَطُلِ
والعيش يؤذننا بالموت أوله … ونحن نرغب فى الأيام والدول
يأتى الحمام فينسى المرء مُنْيَتَه … وأعضل الداء ما يلهى عن الأمل
ترخى النوائب من أعمارنا طرفا … فنستعز وقد أمسكن بالطِّوَلِ
لا تحسب العيش ذا طول فتركبه … ياقرب مابين عُنُقِ اليوم والكفل
نروغ عن طلب الدنيا وتطلبنا … مدى الزمان بأرماح من الأجل
يقودنى الموت من دارى فأتبعه … وقد هزمت بأطراف القنا الذبل
والمرء يطلبه حتف فيدركه … وقد نجا من قراع البيض والأسل
ليس الفناء بمأمون على أحد … ولا البقاء بمقصور على رجل

وكذلك ترى قصيدته فى رثاء ابنة سيف الدولة :

نغالب ثم تغلبنا الليالى … وكم يبقى الرمى على النبال

معارضاً لامية المتنبى فى أخت سيف الدولة « نعد المشرفية والعوالى »

وإنّ رجلا يستطيع أن يجعل مرثيته كلها تقريبا على هذا النمط من الحكمة جدير بكل فضل وتميز .

* * *

أما الوصف : فالشريف وتلميذه لم يجيداه كغرض مستقل ، وإنما جاء فى شعرهما عن طريق الاستطراد . فى تضاعيف الأغراض الأخرى ، وقد مثلنا لهذا النوع فى شعر مهيار من وصف السفينة ، والناقة ، والصحراء وغيرها ، وكذلك فعل الشريف فى وصف الأسد والحية — وقد انفرد « مهيار » بوصف كثير من الأشياء الدقيقة مما تحت حسه وعما لم يتعرض له « الرضى » ، وقد أشرنا إلى أن مهيار قد جرى فيه مجرى التعمية والإلغاز .

وأما الغزل : ففيه يتشابه الشاعران من وجوه مختلفة :

١ — يتشابهان فى أنهما أحبا فأخفق كل منهما فى حبه[1] كذلك كانت

---

(١) أخفق الشريف فى الزواج من فارسية — هى ابنة أبى على وزير بهاء الدولة ، وأخفق مهيار فى الزواج من عربية أصيلة فيما يظهر .

عاطفة كليهما نهبا بين محبوبات متباينات اسما وموطنا كما ورد فى شعرهما ، والمعروف أن الشريف كان يحب فى العراق،وكانت به لواعج شوق لظبيات من الهند وفارس ومصر وغيرها بحكم افتتانه بأولات جميعاً حين تقع عليهن عينه فى موسم الحج ، وكانت له إمارته ، ولقد كان مهيار محاكيا أستاذه فى ذلك ، وكان « لمهيار » فى غزله تلك الحجازيات التى ذكرنا لك منها أمثلة فى موضعها إلا أنه كان فى ذلك صورة للشريف كما كان العرجى صورة لعمر .

٢ — والمتصفح لشعر الشاعرين يجد شبها كبيرا بينهما فى أدب الغزل وعفته ، وتبرئة كل منهما نفسه مما يريب — كقول الشريف :

يشكو الحبيب إلى شدة شوقه   وأنا المشوق وما يبين جنانى
وإذا هممت بمن أحب أمانى   حصر يعوق ، وعفة تنهانى

وكقوله :

يعف عن الفحشاء ذيلى كأنما   عليه نطاق دونها وحجاب[1]

٣ — ومن العجيب أن الشاعرين قد اتفقت أكثر أسماء حبائبهما والأماكن التى أظهرا حنينا نحوها من « ظمياء » ، « وسلع » ، « ونجد » ، « ومنى » ، « والخيف » ، « وجَمْع » ، وما إليها مما يدل على قوة تأثر التلميذ بأستاذه .

أما الفخر : فقد اشتركا فى بعض نواحيه ففخر كل منهما بأشعاره واتهم الشعراء بسرقة معانيه — فيقول مهيار مباهيا بأشعاره ومعرضاً بمن يسرقون معانيه مخاطبا « فخر الملك » .

ومهما تعر من نعمة فجزاؤها   على الله ثم الشعر عنى يثيبها
بكل شرود يقطع الريح شوطها   ويسرى أمام الغاسقات دبوبها
يروقك منها جزلها وحميسها   إذا راق من أبيات أخرى نسيبها

° ° °

---

(١) راجع ماقدمنا لك من أمثلة على ذلك من شعر « مهيار » عند الكلام على غزله .

(٢) يبوخ : يبرد .

ترى الناس خلفى يلقطون بَديدَها ويعجبهم من غير كد غصوبُها
جواهر لى تصديفها من بحورها صحاحاً ، وللعادى المغير ثقوبها

° ° °

ويقول الشريف فى الفخر بشعره :

وعندى لك الغر التى لانظامها يهى أبداً ولايبوخ (٢) شهابها
وعندى للأعداء فيك أوابد لعاب الأفاعى القاتلات لعابها

ويقول فى سارق أشعاره :

كأن بنى غبراء إذ ينهبونها أجالوا على مال بذى الدوح سارح
يرجون منها والأمانى ضـلة رجاء نتاج الحمل من غير لاقح
أباغث أضرتها السفاهة فاعتدت تخطف هذا القول خطف الجوارح
دَعُوا ورد ماء لستمُ من رِجالِهِ وحلوا الروابى قبل سيل الأباطح
ولاتطلبوها سمعة فى معرة تحدث عنكم كل غاد ورائح
خمول الفتى خير من الذكر بالخنا وجر ذيول المنديات (١) الفواضح

كذلك فخر كل منهما بعفته وفضله ، وخلقه ، وباهى كل بحسبه ، وإن تفاوت الحسبان فالشريف عربى يسرى نسبه فى الذوائب من قريش . ويربطه بسلسلة عترة البيت النبوى ، قرابة قريبة — أما مهيار فكان من أسرة غير معروفة بالجاه والحسب فاضطر إلى المباهاة بملوك فارس الذين انتحلهم له آباء وأجداداً .

لم يقف التشابه بين الشاعرين عند حد الأغراض ، فقد تشابها فى تأثر كل منهما بخلق الشعراء ، والشعر الذى يرهف العواطف كثيراً مايثلم حد المبادىء ، ويفل من مضاء العهود ، ولهذا السبب تورط كثير من الشعراء وعلى رأسهم أبو الطيب فى مغامز التناقض .

---

(١) المنديات : المراد بها المُخْجِلات .

لقد مدح الشريف الطائع ، وجعله ملاذه دون غيره ، فلما تولى الخليفة القادر بعد إسقاط الطائع ونهب نفائسه وماله ، وكان بحضرته الشريف الذى هرب ناجياً بنفسه — لم يلبث أن مدح القادر .

وكذلك فعل مهيار ، فقد مدح « الكافى الأوحد » وبين أنه المخصوص بأمداحه ، وأنها حرام على غيره ، ثم عاد فمدح خلفه ، وكان يوهم كل وزير ممن مدحهم — وما أكثر عدتهم — بأنه رب نعمته والمنطق بعطاياه لسانه بالشعر ، وأنه سُووِمَ من أجل مدائحه فعزت على الطالبين سواه ، فإذا ماتولى غيره — هنأه واستتبع التهنئة والمدح رمى سلفه بالقصور ، وإظهار الوزارة بمظهر العروس لم تجد أكفاء حتى ظهر ذلك الممدوح الجديد ، فخطبته قبل أن يخطبها وسعت إليه دون أن يسعى إليها .

° ° °

مما تقدم يتضح لك أن الشبه كان كبيراً بين « مهيار » وأستاذه ، وأن هناك اختلافاً بين شعريهما من وجوه أظهرها الأسلوب فهو عند الشريف أقوى لتمكنه من اللغة حتى ليندر أن تجد فى شعره سقطاً مما يبدو فى شعر « مهيار » .

وفوق ذلك كان لشعر الرضى ماللرضى نفسه من شمم وإباء مما لم يتطاول إليه مهيار . ويبدو لدارس ديوانى الشاعرين أن مهيار أهمل كثيراً من القوافى ، فلم يقل فى الثاء والخاء والذال والزاى والشين والغين والظاء مما قال أستاذه فيه ، ويظهر أن لفارسيته أثراً فى ذلك إذ لايكاد يكون لمعظم تلك الحروف وجود فى اللغة الفارسية .

° ° °

بعض ملاحظات على طبع الديوان

ليس من الإنصاف في شيء أن نتغاضى عن تسجيل الفضل الأكبر للأديب الفاضل الأستاذ أحمد نسيم على ما عانى من مشاق وقام به من مجهود مشكور فى الإشراف على طبع الديوان وتصحيح ما صادفه من أخطاء جاءت نتيجة جهل النساخ، أو طمس التقادم لبعض الكلمات، ويستطيع أن يدرك ذلك المجهود من يقرأ الديوان قراءة استيعاب وإذا كنت قد عنت لى بعض الملاحظات على صغائر قد فاته التوفيق إلى إصلاحها، أو أصلحها إصلاحا لم يصادف الدقة التامة، فما ذلك بمزرٍ بفضله وكفاه فخاراً أن تكون تلك الملاحظات معدودة: وسأذكر أمثلة منها.

١ — جاء فى الجــزء الأول صحيفة (٣٢) للشاعر يصف قصائده وطواعيتها له.

كل قناة قرّ لى شماسها   وذل فى فَوْدَىَّ منها ماصعب

فقد جاءت كلمة فودى مشكولة هكذا — والصواب — (وذل فى قَوْدِىَ (١)) إذ لا معنى لأن يذل صعب القصائد فى فَوْدَى الشاعر لأن الفودين هما شعر جانبى الرأس مما يلى الأذنين.

. . .

٢ — وجاء فى صحيفة (٧٢) من الجزء الثالث. فى وصف هيفاء.

لم تعنها هزة فى قدها   إنه من صفة الرمح الخطل

وهو تصحيف والصحيح. (لم تعبها)

. . .

---

(١) فى القاموس المحيط: القود نقيض السوق كالقيادة والمقادة . . . والخيل أو التى تقاد بمقاودها ولا تركب.

٣ — وجاء فى الجزء الثالث صحيفة (٢٣٣) فى وصف سرعة الفرس

تهفو على أثر الطراد كأنها　　قبس تهافت عن زناد مصرمِ

جاء بالديوان بذيل الصحيفة أن معنى المصرم المجذوذ المقطوع ، ومع أن هـذا المعنى ينطبق على « الصريم » أكثر إذ جاء كذلك بالقاموس ، فإن مصرم لا يستقيم بها المعنى ، وإنما صواب المصراع الثانى :

قبس تهافت من زناد مُضَرَّم

والمضرم بتشديد الراء كالمضرم بضم الميم وتسكين الضاد وكسر الراء ، وهو موقد النار .

ه ه ه

٤ — جاء بالجزء الثانى ص ١٨٢ من قصيدته فى مناقب أمير المؤمنين على بن أبى طالب :

فداء وافين تمشى الوافيات بهم　　دمع دم ، وحشا فى أثرهم قطع

الليل بعدهم كالفجر متصـل　　ماشاء والنوم مثل الوصل ممتنع

وقد رجحت أن تكون كالهجر لتتقابل مع الوصل فى الشطر الثانى . أما أن الليل متصل كالفجر فهو مالا معنى له .

٥ — وفى ص ١٨٨ من الجزء الرابع فى بنات نعش « هذا البيت »

تشنا أباها كل نفـس أنه　　يفنى به البـأس الذى يُشْنِيها

وجاء « بالذيل » برقم (٥) (فى الأصل الفوتوغرافى والنسخة الخطية « الناس » ، وهو تصحيف) ولـكنى أرى الصواب ماجاء بالأصـل « لأن مقصود الشاعر من البيت أن كل نفس تبغض أباها « أى النعش » إذ به يحمل الناس بعد فنائهم إلى أجداثهم وهم « أى الناس » مصدر هنائها لأن حياة النفس بمعزل عن الناس شقاء ووحشة — أما أن النفس تهنأ بالبأس فهذا مالا نفهمه لأن البأس يكون فى الغالب سبب شقاء النفس ، ولعل هذا الشك الذى حمل المصحح على استبدال « البأس بالناس » منشؤه تصوره أن

اسم الموصول المفرد المذكر « الذى » لايوصف به الناس . وفاته قول لبيد :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا النـاس كيف لبيد

٦ — وجاء فى ص ١٦٩ من الجزء الثانى فى وجوب مخاتلة الدهر .

ولا تشاوره فى أمر هممت به   فربما لهوج الآراء أو خبطا

« أفاد المصحح فى الذيل أنها وردت بالأصل (خطا) ، فرجح إصلاحها (خبطا) وعندى أنه إصلاح غير دقيق — لأن «خبط» فضلا عن تكررها فى القافية بالقصيدة — لا تتناسب مع الرأى — وإنما الأنسب «فربما لهوج الآراء أو خلطا» ، أما الخبط فهو بالسير أولى .

. . .

٧ — وجاء فى ص ٨ من الجزء الأول فى وصف زهرة « النيلوفر » .

حية ماء ناقع سمها   وناقع سم أفاعى الصفا

وهو تصحيف والصواب ، حية ماء نافع سمها بالفاء .

. . .

٨ — وفى ص ٩٤ من الجزء الثانى البيتان .

هل لقتيل على « اللوى » ثائر   أم هل لليل المحب من آخر ؟

أم الفتى جائد بمهجتـــه   على بخيل بقـوله غادر

ومن العجيب أن المصحح قد أشار فى « الهامش » إلى أن لفظة غادر (فى الأصل « عاذر ») ولا أرى غبارا على ما جاء بالأصل ، إذ المعنى هل يجود الفتى بمهجته على بخيل اكتفاء بقول ذلك البخيل «عاذر» بمعنى مقصر أو مذنب ، « وعاذر من عذر كأعذر بمعنى أبدى عذراً ، وثبت له عذر ، وقصر ... وكثرت ذنوبه [1] » ، ونحن إنما نلجأ للتغيـــير فى الأصل إذا لم يستقم به المعنى .

. . .

(١) قاموس .

٩ — ومثل الكلمة المتقدمة — كلمة تتنحل فى البيت (١)

فقل لمن ظن البعاد سلوة　　لا تتنحل طعم شىء لم تذق

فقد أشير « فى الهامش » إلى أنها بالأصل (تتحل) وفضلا عن استقامة الوزن بها فالكلمة على ما بالأصل لاغبار عليها لأن تتحلى ، مضارع تحلى الشىء كحلية واستحلاه فى المعنى — ويكون المراد : قل لمن ظن البعاد يسلى المحب ، أنت لم تجرب الحب ولم تذق طعم البعاد فلا تحكم بحلاوة شىء لم تذقه . فما كان أغنانا عن هذا الإصلاح .

ه ه ه

١٠ — وكذلك جاء فى (ص ٢٥٢) من الجزء الثانى من قافيته فى مدح « جلال الدولة » البيت :

وأسلاه عن الإيوان بقيا　　مقام العز فى هذا الرواق

أن كلمة بقيا بالأصل (لقيا) باللام — ولكن المصحح لم يقبلها بدليل أنه استبدل بها غيرها مع أن السياق لاينفر منها إذ معنى الأبيات السابقة لهذا البيت أن المهرجان يوم كسرى أبيك الذى شيد قواعده واشتق اسمه من اسم الشمس ، ويقسم كسرى لو رآك فى هذا اليوم جالساً على عرش هذا الملك لسعى إليك وأسلاه عن إيوانه لقياه العز مقيما فى رواق أحفاده واللقيا تفيد معنى المصادفة والفجاءة ، أما البقيا فتفيد معنى اتصال العز وهو ليس بمراد لأن الشاعر أشار إلى زواله كما يفهم من « وأسلاه عن الأيوان »

١١ — وجاء فى ص ٢٦١ من الجزء الثانى . فى مدح أمير المؤمنين — حين يتهم الشاعر الصحابة بتحريف أحاديث الرسول فى « على » :

وهبهم سفاها صححوا فيك قوله　　فهل دفعوا ما عنده فى المصاحف

والصواب — « وهبهم سفاها صحفوا فيك قوله »

---

(١) ص ٤٤ ج ٢ .

١٢ — وفى الجزء الأول ص «٧١» فى مدح مؤيد الملك الرخجى :

فإن يكن انقباضى أمس ذنبا فمنذ اليوم أقلع أو أتوب
وتحضر نابيات من لسانى فواقر ربها عبد منيب

والصحيح وتحضر تائبات من لسانى البيت

هذه أمثلة من عشرات لا يتسع لسردها هذا البحث، وقد أشرت إليها لأبين إلحاح الحاجة إلى تأليف لجنة لمراجعة ديوان « مهيار » وضبطه، وتصديره بترجمة مستفيضة للشاعر وتراجم أخرى موجزه لممدوحيه، لأن ذلك يزيد القارىء بصراً بشعر الرجل وفهما لمراميه

وختاماً أرجو أن أكون قد قمت بإنصاف «مهيار» بعض حقه، وأن يوفق الله أبناء العرب إلى نشر تراثهم الأدبى، من بين زوايا الجمود وظلمة النسيان — إنه سميع قريب .

أهم مراجع الكتاب

١ — يتيمة الدهر للثعالبي
٢ — دمية القصر للباخرزى
٣ — الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام
٤ — المنتظم فى تواريخ الملوك والأمم لأبى الفرج الجوزى
٥ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .
٦ — وفيات الأعيان لابن خلكان.
٧ — الكامل لابن الأثير .
٨ — تاريخ بغداد لأبى بكر الخطيب .
٩ — تاريخ أبى الفداء .
١٠ — تاريخ الأمم الاسلامية للخضرى بك
١١ — نهج البلاغة .
١٢ — ديوان المتنبى .
١٣ — ديوان الشريف الرضى
١٤ — عبقرية الشريف الرضى للدكتور زكى مبارك .
١٥ — أعيان الشيعة ، للعاملى .
١٦ — ضحى الاسلام للأستاذ أحمد أمين بك .
١٧ — ظهر الاسلام « « « «
١٨ — رسائل البلغاء للأستاذ الكبير محمد كرد على .
١٩ — الملل والنحل للشهرستانى
٢٠ — الفاطميون فى مصر للأستاذ حسن ابراهيم .

٢١ — تاريخ الدولة العباسية للأستاذ حسن خليفه .

٢٢ — مذكرات عن الأدب العربي فى عهد الدولة العباسية للمرحوم أحمد الاسكندرى بك .

٢٣ — مقالات للأستاذ حامد عبد القادر المدرس بكلية دار العلوم .
(عن مجلة المعرفة فى سنة ١٩٣١)

٢٤ — ديوان مهيار طبعة دار الكتب المصرية .

٢٥ — المفصل فى تاريخ الأدب العربي .

٢٦ — معجم الأدباء .

٢٧ — الأغانى للأصفهانى .

إلى غير ذلك من المراجع

موضوعات الكتاب

صفحة

تصويبات

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٢٤	١٧	سىّ	سَرَّنى
٣٠	٣	صمصام	سلطان
٣٢	١٢	الطالبين	الطالبيين
٣٥	٥	تعُزلا	تَعَزُّلا
٣٥	٩	كرُبتْ	كرُبتَ
٣٥	١٠	بجُورْ	بجَوْرْ
٣٥	١٦	بيُنة	بيِّنة
٣٥	١٦	تقوّلا	تقوُّلا
٣٦	١	بهوتها	تُهْمَتُها
٤٤	٦	يجحدَ	يجْحدِ
٤٤	٧	قلدٌ	قلَّد
٤٤	١٤	تفتَق	تَفْتُقُ
٤٩	١	بنى أمية	أن بنى أمية
٤٩	٢٤	ويورثه على	ويورثه علم
٥٦	١٩	شيعىّ	شيعى
٥٨	٢١	تَشَقَّقتها	شَقَقْتُها
٦١	١٠	تعرضُ	تعرُّضُ
٦١	١٢	يدَ كرَّنى	يدُ كَرَّنى
٦١	٢١	« خبيبرُ »	و « خبيبرُ »
٤٤	١٠	أو . . .	أو يذرْ
٧٠	١	نكثهم	ونكثهم
٧٥	٥	بُكم	أو البُكمُ
٨٤	١٦	يطمع	لم يُطمِعْ
٨٥	١٠	أو عهده	أولَ عهده
٩٣	٩	ما حوضه	مالئاً حوضه
٩٣	١٣	سمحة	مُسمِحَة
٩٥	٥	فضائلهم	فضائل
٩٥	٦	وأنت من ذاك	وأنت لهم من ذاك
٩٥	١٨	متحول	متخول
٩٦	٢	مَزْلقة	مَزْلَقة
٩٨	٢١	يَصُونها	يَصُونُها
١٠٣	٢١	« كامل بن مهدى »	ككامل بن مهدى
١٠٤	١٦	فاق بها	أدق بها
١٠٧	٦	لَبِثْتُمُ	تولَّيتُمُ

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٠٨	١٣	فشربتها	فشَرِبْتُها
١١١	١٩	معانيه	أمانيه
١١٣	١٩	(أو أنا)	(أُوانا)
١١٤	٧	غيرها	غيرها
١١٦	٢٢	الشورة	المشهورة
١١٧	١٦	صرَّفة	صرْفة
١٢١	٥	سُلاَفة	سُلاَفَة
١٢١	٥	صباح مُلدَّد	صِباح مُلدَّد
١٢٢	٥	وكأى ما كولا	وكابن ما كولا
١٢٣	١٦	وقد يعترض	ولا يعترض
١٢٥	٢٣	ليْناً	لَيِّناً
١٣١	٤	الدو	الدولة
١٣٢	٨	مَرثيّة	مَرْثِيَّة
١٣٤	١٠	لجمعت	لُجْمِعَتْ
١٣٤	١٠	تُشْهِدَ	تَشَهَّدَ
١٣٥	٥	للعلماء	العلماء
١٤٠	١	موضوع	موضع
١٤١	٤	موانح نبله فإنى	موانع نبله فإنى
١٤٢	١٨	المختبون	المُخْتَبِئون
١٤٣	٦	يحدب	يُجيبُ
١٤٥	١٥	نفضه	بفضة
٤٥	١٦	بى	سَنى
١٥٢	٢	تأرجُسَ	تتأرجُس
١٥٥	٨	فيه	به
١٥٨	٨	وذلك فى ثوب عزمته	موضع هذه الجملة فى السطر ١٤ بعد كلمة الرجحى
١٥٩	١١	مخالب	مخاليب
١٦٢	١٠	لنواصع	لتواضع
١٦٣	٣	أثاره	اثارة
١٧٤	٩	ذلك	ذاك
١٧٧	١٨	طُمُسُن	طُموسُ
١٧٨	١٧	لا تكون	ولا تكون
١٩٤	١٤	منذبه	مُشْتَبِهَة